دولة القرآن

"إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين .."

قرآن كريم

طه عبد الباقي سرور

دار الفكر العربي

إهداء

إلى الذين يقلبون وجوههم في السماء

يرقبون الآفاق

ويرجون أيام الله

أهدي دولة القرآن . . .

طه عبد الباقي سرور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

على الأفق العربى يتألق اليوم شعاع وضاء ، وفى الأرض الطيبة المباركة ، تتجمع طاقات تاريخية متدفقة ، وتتلألأ آمال وأحلام مشرقة .

لقد استيقظت البقاع التى شهدت خطو الأنبياء ، ووحى السماء ، وأخذت حياة جديدة ، عزيزة شامخة ، تتبلور وتتهيأ للانطلاق .

وفى رحاب العالم الاسلامى أيضا توثب وتحرر ، ووعى هادف يتلمس الطريق الصاعد .

لقد انتفض العالم الاسلامى ، فحطم قيوده ، وفك أغلاله ، بعد قرون طوال من الهوان والمذلة .

والدنيا اليوم ترقب هذه الانتفاضة الكبرى ، فى العالمين – العربى ، والاسلامى – وترصد اتجاهاتها ومناهجها ، وتتحسس الروح الذى يمسك بزمامها ويأخذ بخطوها .

ورجال الفكرة الاسلامية ، تمتلىء قلوبهم وصدورهم بالآمال العريضة السعيدة ، ويجاهدون فى إصرار ولهفة لتعميق الاتجاه الاسلامى فى الانطلاقات البناءة الصاعدة .

ولكن الفكرة الاسلامية ، تجد نفسها فجأة ، فى مأزق وأزمة ، لقد وقفت متحجرة فى عنق الزجاجة ، لا تجد مجالا للحركة ، ولا أفقا للانطلاق .

لقد عاشت قرونا وأحقابا فى عزلة عن الحياة ، وانفصل ما بينها وبين واقعنا ، وفقدت فاعليتها فى وجودنا .

ونجمت ثقافات ، وبزغت حضارات ، ونشأت مبادىء ونظم ومثل بعيدة عن روح هذه الفكرة ، وغلغلت هذه المبادىء والنظم ، وسيطرت على شعورنا وصاغت تفكيرنا ، وصنعت مقومات وجودنا ، حتى أصبحنا غرباء عن عقيدتنا ورسالتنا !!

ومن هنا تأتى المشكلة ، وتقوم الأسوار العالية ، وتأتى الاعتراضات بأصواتها المدوية : لتنال من هذه الفكرة التى انعزلت طويلا عن الحياة ، ولم تسهم بشىء فى تلك الحضارة المتلألئة المعجزة .

وفى منطق مشرق منمق تنطلق هذه الاعتراضات :

إن العالم ليموج بالمناهج العلمية المنتصرة ، والنظم التخطيطية الفنية ، والمبادىء الايجابية المتطورة ، ولقد طبقت هذه المناهج والنظم والمبادىء وامتحنت ، فأنجبت قوى عالمية سامقة ، وخلقت حضارة انسانية متلألئة ذات بأس رهيب ، وسناء أخاذ عظيم .

والفكر الانسانى العالمى اليوم في توتر حى ، خصب عبقرى ، يبتدع كل يوم جديدا وغريبا ، ويسخر المادة ويمتطيها ، ويجوب الآفاق ويطويها ، ويوشك أن يندفع فى انطلاقة كونية باهرة ، تفتح للانسانية أبواب السماء ، ومنافذ الفضاء .

أنعرض بوجوهنا وبانطلاقتنا عن هذه النظم والمبادىء الدولية ؟ ...

أننفض أيدينا من هذه الحضارة العالمية لنجرى وراء عواطف قلبية ووجدانيات أخلاقية ، وروحانية انعزالية ، ومبادىء غير محددة الملامح ، ومناهج لم تنبثق من أفق حضارى ، ولم يبتدعها تفوق علمي ؟ !

ثم تنطلق سحب سوداء مرعدة ، تسح شكوكا وأوهاما عجبا حول الفكرة الاسلامية وفاعليتها ومستقبلها !

وتنطلق صيحات وهمسات مجنحة ، تنال من جلالها ومكانتها وقدرتها على البناء والنمو والتطور ، وقدرتها على مساندة الانتفاضات الوطنية الصاعدة .

والمشكلة ليست طارئة على أفقنا وحياتنا ، فهى تضرب بجذور بعيدة فى تاريخنا .

فقد انطفأت مصابيح الفكر الاسلامى مصباحا إثر مصباح ، وخمدت وجمدت روحه الحية القوية النامية التى صنعت ماضيه الضخم الشامخ .

وفقد هذا الفكر العظيم المبدع الخلاق ، فاعليته وإيجابيته ومبادرته للأحداث والتطورات ، وأخذ يدخل رويدا رويدا فى ظلمات الجمود والخمود ، وهيمنت عليه طقوس وشكليات وعادات دخيلة رجعية ، تسربت اليه وهيمنت عليه ، وأخذت بزمامه وقياده ، تدفع به الى دروب ومتاهات لا نهاية لها ، ولا هدف منها .

ولن نتعرض هنا للأحداث التاريخية ، الداخلية والخارجية ...

الأحداث التى رسمت الخطوط العريضة لهذا التحول الرهيب فى مجرى الفكر الاسلامى ، فلهذا مكانه من كتابنا .

ثم جاء الاستعمار الأروبى بعصبيته الصليبية الجامحة ، فاتخذ من الاسلام خصما بغيضا يضمر له الحقد الأسود ، ويبيت له الشر الملتهب ... خصما كريها يجب تدميره والقضاء عليه ، حتى يخلو له وجه الاستغلال والاحتكار ، وحتى يمكن لنظمه ومطامعه وأهدافه أن تسود وتخلد فى أرض الاسلام .

ويكشف « اللورد جلادستون » القناع عن وجهه ووجه الاستعمار ، فيرسل صيحته التاريخية المشهورة ، في مجلس العموم البريطانى :

«مادام هذا القرآن موجودا ، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هى نفسها فى أمان » .

وبكل ما امتازت به الحضارة الأروبية من تخطيط دقيق ، وتنظيم بارع راح الاستعمار الأروبى يرسم خططه في خبث ودهاء ، وفى عمق وشمول ، لتحطيم الفكرة الإسلامية فى قلوب المؤمنين بها وعقولهم ، وتفننوا فى تصويرها وتلوينها بكافة الصور والألوان التى تفقدها ذاتيتها وإيجابيتها وقدرتها على المساهمة فى الحياة بامكانياتها الانبعاثية الكبرى ، وتوجيهاتها العليا ، وقيادتها الخلاقة الهادفة .

وأعد الاستعمار أجهزة كاملة ، ورصد الميزانيات الطائلة ، وجند الأقلام والعقول والألسن الفنية المدربة ، بل وأسس لهذا الغرض المدارس والمعاهد العالمية والمؤسسات الصحفية ، ودور النشر الثقافية ، والبعثات التبشيرية ، واحتضن تحت أجنحته من أبناء الاسلام طائفة سقاها من كأسه ، ولقنها من علمه ، وأسبغ عليها من دعايته بريقا ثقافيا أخاذا ، وأطلقها تتحدث بلغات قومها ، وبعقول سادتها ، لتنال من الاسلام وروحه وثقافته وحضارته حينا ، ولتشوه حقائق الاسلام وجوهره أحيانا .

ومن ثم رأينا رجال الاستشراق الذين يفسرون القرآن ويشرحون الحديث وينشرون التصوف ، ويتحدثون عن فلسفة التوحيد ، ويبحثون فى أصول الفقه الاسلامي ، ويحللون التيارات التى هيمنت ووجهت خطو التاريخ العربى ...

ورأينا كيف اتجهت هذه الدراسات الى تصوير الاسلام بأنه دين يقوم على الرجعية المتعصبة الضيقة الأفق ، وتسيطر عليه نزعات روحية غامضة فى السلوك والمعرفة ، وأنه دين يصلح للصحراء ولحياة البادية ، ثم تقصر

أجنحته عن التحليق الحضارى المتطور ، وتقف أنظمته ، وتعجز قوانينه ، عن خلق مجتمعات انسانية متحررة .

ثم مشى المستشرقون خطوة أخرى ، فرسموا باسم العلم المجالات التى تتحرك فيها الأديان رسما مسيحيا خالصا ، فالعقيدة هى صلة بين الانسان وربه ، غايتها صفاء الروح الانسانى ، ونقاء القلب البشرى ، ثم لا شأن لها بعد ذلك بالتنظيم والتقنين والعدالة الاجتماعية ، والمبادىء الاقتصادية ، وفنون الحكم ، وسياسة الحياة .

وانطلق فى أعقاب رجال الاستشراق تلاميذهم من المسلمين الذين أسموا أنفسهم بالمجددين ، وبالمصلحين ، يرددون الصدى ويمشون خطوات أبعد تطرفا ، وأكثر جموحا .

وفى أعقاب هؤلاء وهؤلاء بزغت صحف ، وصدرت كتب ورسمت صور استمدت وحيها ومثلها من الوحى الأكبر المهيمن الموجه من وراء ستار .

وفى عنان هذه الموجة الثقافية الاستعمارية الهادفة التى طغى طوفانها على حياتنا وتفكيرنا وشعورنا ، وأخذت البيئات الدينية عندنا تنعزل عن الحياة ، وتفقد ذاتيتها وعزتها ، وتبتعد عن الأفق الايجابى ، والمسرح الحى ، وتقبع داخل قواقع فكرية مظلمة ، وتفنى حياتها فى صراع لفظى ، وشكليات جزئية ، وجوانب من التفكير الدينى لا طعم لها ولا لون .

انها لتتجادل وتتصارع حول آراء مذهبية وكلامية وفقهية ، ابتدعت فى عصور التخلف والرجعية ، وتستفتى فتفتى فى القضاء والقدر ، وزيارة القبور ، والصلاة على النبى بعد الأذان والطلاق والعتاق ، ونواقض الوضوء ، وصيام أهل القطب ، وألوان ثياب الاحرام .

أما الحرية فى الاسلام ، والعدالة فى نظمه ، والقوة فى اقتصاده ، والكمال فى أخلاقه ، والمثالية فى تشريعه ، والوحدة تحت لوائه ، والمرونة المتطورة الكامنة فى كلياته .

أما ما رسم الاسلام من حقوق وواجبات ، وجهاد لإعلاء كلمات الله ، وخطوط عريضة لكل شأن من شئون الحياة ، وما أوجب من نضال فى سبيل الخير والحق والسلام ، فشىء تتجنبه الأقلام ، وتبتعد عنه العقول .

وفى غمار هذا وذاك ، فقد المسلم ثقته بنفسه وبدينه . وبيومه وغده ؛ بل فقد مجرد التفكير فى أن بين يديه عقيدة صالحة للحياة ، عقيدة شاملة

ذات مناهج محددة نامية ، تتناول الحكم والتشريع والاقتصاد والاجتماع تناولها للروح والقلب والعبادة والأخلاق .

تلك هى مشكلة اليوم فى الفكرة الاسلامية ... المشكلة التى يجب أن نواجهها اليوم فى إيجابية مستنيرة وعزيمة صادقة هادفة .

لقد حررت القيادات الوطنية الثائرة الجانب الأكبر من أرض الاسلام والعروبة ... حررته جوا ، وبحرا ، وبرا ، وبقى أن يتحرر وجدانا وشعورا وفكرا .

يتحرر من تلك المواريث الفكرية المسمومة الهابطة التى زرعها الغرب فى أبعد عمق فى تفكيرنا ، وفى أبعد عمق فى وجداننا .

تلك المواريث الفكرية الدخيلة علينا ، المناهضة لعقائدنا ، المنحرفة عن مثلنا وأهدافنا .

وهذا التحرر العقلى والنفسى غاية لا تقل جلالا وإيجابية عن تحررنا العسكرى والسياسى .

هذا التحرر هو الذى يعطينا الذاتية الفكرية ، والقوة النفسية ، ويمنحنا الهدف والرسالة والمثالية التى ترتكز عليها نهضتنا ، ويرسم الأفق الأعلى الذى يحدد مكانتنا من التاريخ ، ومن الحياة .

إن معركتنا الفاصلة مع أوربا ، هى معركة الثقافة والتوجيه .

وميادين هذه المعركة تمتد وتتسع حتى تشمل جوانب الحياة كافة ، وتتناول - فيما تتناول - عقائدنا وآدابنا وفنوننا ومناهجنا فى السلوك والمعرفة .

والهدف من المعركة هو أن نمنح مجتمعنا فكرة اسلامية نقية حية ... فكرة تعيش عزيزة هادفة فى نفوس الأفراد والجماعات ... نمنحه ثقافة اسلامية حرة ، وتربية اسلامية موجهة ، ونضع بين يديه تاريخنا المضىء كما عشناه ، لا كما تكتبه أوربا مشوها محرفا .

وفى الطليعة من هذا كله ، نغير نظرتنا الجذرية إلى ديننا ورسالتنا .

لقد رسم الاستعمار فى أذهاننا صورة للدين مبتورة ناقصة عاجزة ، لا تعدو حدود التنسك والزهد والطقوس الشكلية . و التعبدات الروحية والمعتقدات التى يتقيد بها الإنسان فى صلاته بالله ، وفى سلوكه العام .

وبذلك ينعزل الدين عن الحياة ويذبل ، ويفقد قوته وإلهامه ، بل يفقد روحه ورسالته .

والاستعمار يعتمد فى تلك النظرة الانعزالية ، على منطق الديانة المسيحية وموقفها من الحياة ، تلك الديانة التى قسمت الدنيا بين قيصر والله ، فاعطت « مالقيصر لقيصر ، ومالله لله » وهو تصوير لا ينطبق على الاسلام ، ولا يقره منطقه ولا رسالته وواقعه ، فطبيعة الديانتين تختلف جوهرا وهدفا .

فبينما كان السيد المسيح عليه السلام فردا من أفراد المجتمع الاسرائيلى الخاضع للدولة الرومانية ... فردا مجردا من أية صفة فعالة فى النظام السياسى القائم ، كان رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، قائدا وحاكما ، ومهيمنا على الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فالمسيحية ترسم أفقا مثاليا للروح والأخلاق ، وللسلوك الفردى ، ثم تقف رسالتها عند هذا الحد لا تتخطاه .

أما الاسلام فنظام كامل ، ودستور شامل ، وشريعة مفصلة ، تحيط بكل شأن من شئون الحياة ، وبكل منهج من مناهجها .

ولقد أدرك هذا كله أحرار الفكر الأوربى ، ولمسوه جليا مبينا .

يقول « بر تراند رسل » فى كتابه « الثقافة والنظام الاجتماعى » :

« إنه يعتبر الإسلام دينا سياسيا موجها للجماعة ، يتوغل فى حياة الفرد والمجموع توغلا كليا » .

ويقول العلامة « جيب » فى كتابه « مستقبل الاسلام » :

« إن الاسلام ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذى نفهمه اليوم من هذه الكلمة ؛ بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس دينى ، ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية » .

فاذا تم لنا التحرر من الفهم الخاطىء لرسالة الدين العامة فى الحياة ، أصبح من أقدس الواجبات على دعاة الفكرة الاسلامية تحرير العقيدة نفسها من الغموض الذى أحاط بها ، والشكليات التى خنقت روحها ، والطقوس التى أطفأت نورها .

فقد شوهت العقيدة الاسلامية تشويها عجبا ، امتد الى جزئياتها وكلياتها ، فتركها شبحا باهتا وظلا متهافتا .

شوهت معرفة وسلوكا ، ومنهجا وروحا ، حتى أصبح هذا التشويه هو الأصل الثابت فى أذهان كثرة من الناس ، ويتضاعف عددهم فى البيئات الاسلامية يوما بعد يوم .

لقد تحولت عقيدتنا التوحيدية النقية إلى طقوس وعادات زاحمت الجوهر الأصيل واندست تحت أجنحته ، وتغلغلت بين طياته .

وتحولت النظم والمبادىء التى أضاءت العالم قرونا وأحقابا إلى جدليات وشكليات .

وأفنى المسلمون طاقاتهم التاريخية فى الجدل والحوار الذى لا ينتهى ؛ ودفعوا بعقيدتهم الى الجانب السلبى الانعزالى ! ! .

ان العبادات فى الاسلام ليست حوارا وجدلا ، وليست شعائر فحسب ؛ انما هى الحياة والتسامي ، والتذوق العالى .

لقد جاءت لتصوغ المسلم قلبا وروحا ، وخلقا وسلوكا ، صياغة تجعله يحلق فى الأفق الأعلى ، وتحيله الى صورة حية لآيات القرآن وخلق الرسول ... صياغة تجعله طاقة كونية فعالة مهيمنة وموجهة لكل شىء .. طاقة عزيزة أبية لا تذل ولا تضعف ، ولا تهن ولا تجبن ، تواجه الأحداث فى ثقة ، وتجاهد فى قوة ، وترفع رأسها فى عزة ، ولا تستسلم لرهبة أو رغبة .

ان المسلم كما يقول شاعر الاسلام محمد اقبال :

« ... لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم ، والمجتمع ، والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملى عليها ارادته ؛ لأنه صاحب رسالة ، وصاحب العلم اليقينى ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع .

ان مقامه مقام الامامة والقيادة ، ومقام الارشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهى .

واذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل فى صراع معه وعراك حتى يقضى الله فى أمره .

إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة ، والاوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام .

« أما المؤمن القوى : فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد »

تلك هى الرسالة التى يجب أن يحملها دعاة الفكرة الاسلامية فى دورنا الصاعد ، وفى حياتنا الحرة المستقلة البناءة ، التى تتهيأ اليوم للانطلاق والقوة .

إن الكلمة الصادقة الهادفة ، التى تقتات من قلب صاحبها وروحه ، هى طاقة وحركة وحياة .

فاذا ارتبطت بالعقيدة الصالحة ، كتبت التاريخ ، وغيرت وجه الحياة .

* * *

وبعد :

لقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ١٩٥٥ ، فأحدثت دويا علميا ، وصنعت أفقا روحيا ، وتوالت رسائل رجال الفكر من كل مكان فى العالمين العربى والاسلامى ، يحمل بعضها تقديرا وثناء خالصا ، ويحمل البعض الآخر – مع التقدير والثناء – ملاحظات وتعقيبات ، ويكشف عن ثغرات يرجو أن تملأ ، وعن جوانب فى حاجة إلى أن تزداه مادتها اتساعا وشمولا .

وأخذت المكتبة الاسلامية فى باكستان ، تترجم فصوله إلى اللغة الأوردية .

وتفضل المستشرق الألمانى العلامة « أرنس رن هارت » الأستاذ بجامعة فيينا فترجم بعض فصوله إلى اللغة الألمانية .

وقررته وزارة التربية والتعليم لهيآتها الثقافية ومعاهدها العلمية .

ونفدت الطبعة الأولى فور صدورها ، وكنت فى سبيلى إلى إعداد الجزء الثانى من هذا الكتاب : ليكمل به عرض المبادىء الاسلامية ، وتتم الصورة الكاملة المعبرة عن ... « دولة القرآن » .

ولكن إلحاح القراء الأعزاء فى طلب اعادة طبع هذا الجزء ، أخذ يزداد نموا وقوة .

وقد أضفنا إليه زيادات وتعقيبات زادت فكرته وضوحا وشمولا ، والله نسأل توفيقا وعونا على اصدار الجزء الثانى منه قريبا .

وأخيرا فان القلم ليسجد فى يدى خشوعا واجلالا وشكرا لله سبحانه ، إذ قدر لهذاالكتاب قبولا وذيوعا ومقاما فى قلوب المؤمنين وعقول المفكرين .

وأسأله جل جلاله ، أن يتقبله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وصحيفة من الصحف التى تعطى باليمين فى يوم الدين ، وأن يجعله شعاعا من أشعة الفجر الصادق ، الذى يرقبه المؤمنون بربهم،الآملون فى أيامه ، العاكفون على قرآنه يرتلون فى خشوع ، وفى أمل ، وفى ثقة ، قوله سبحانه :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الديـــــن كله ... » .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ورضاه ، وتضىء مصابيح الايمان آفاق الحياة ، ويشهد الكون العودة الظافرة لتعاليم القرآن الخالدة ...

تعاليم القرآن الذى ارتضاه الله لعباده ، أفقا ومنهجا وحياة ، وأتم به نعمه على الانسانية ، رحمة مزجاة ، ونعمة معطاة ، وصراطا مستقيما يربط الانسان بالله .

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله لقوى عزيز » .

« هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

طــه عبد الباقى سرور

١
حضارة وجاهلية

« ... الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

ذلك هو ميراث الحضارة المادية اليوم ! ... سخر لها ما فى السموات وما فى الأرض وتمت لها الخلافة على كل جوهر من جواهر المادة ، وعلى كل طاقة من طاقاتها .

ولقد استعصت الطبيعة طويلا واعتصمت - أمام الغزو البشرى - مقدسة الأسرار لا يدور الحديث عن خواصها ، وما تدخر من قوى ، وما تخفى أجنحتها من بأس ، إلا همسا فى أروقة الكهان ودمدمة فى سراديب الكهنة .

وفجأة ألقت الى الانسان ما استودعها الله ، وما أمرها أن تؤديه له فى حينه وميقاته !

لقد كان الحديد بيأسه الشديد سرا مغلقا يحتاج إلى نبى حتى يسيل ويلين وتصنع منه سابغات الدروع !

وكانت الرياح لا تخضع الا لرسول يوحى اليه ، فتجرى بأمره رخاء حيث شاء !

وكانت الصناعات فى حاجة إلى مردة وشياطين ، يسخرهم الله لرسوله « سليمان » ، فيصنعون له بجبروتهم ما يريد من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات .

ولو بعث جن سليمان اليوم لأخذتهم الرجفة من الانسان ، فقد فاقت تهاويله وما تصنع يده تهاويل الشياطين وما تبدع المردة .

فالحديد اليوم ، لم يلن فحسب ؛ كما لان لنبى الله داود ؛ بل لان كل شيء فى هذا الكوكب الأرضى ...لان واستجاب ،وألقى بيديه وفض كنوزه ، وكشف اسراره .

والرياح سخرت وذللت ، حتى عادت بساطا سحريا ، لا تحمل أجنحة الانسان فحسب ، بل تحمل لخدمته الموجات الأثيرية والطاقات الكهربائية ، والأشعة المرئية وغير المرئية ، وينقل همساته وصيحاته وحركاته ، عبر أمواج البحار ، وفوق شامخات الجبال .

لقد أطلق الانسان كل جبار مارد ، من قماقم الطبيعة ، وحرر الطاقات الهائلة الملتهبة فى النواة والذرة .

كل شيء مسخر لأمره ، مستجيب للمسات علمه ، يقبس من الأحجار شعاعا ، ويستخرج من البحار نارا ويرسل الصواعق ، وينير الظلمات .

لم يعد قزما بين عمالقة الطبيعة ، يخيفه الرعد ، ويرعبه البرق ، وتهوله النار ، بل أصبح فجأة متحكما جبارا ، طويت له المسافات ، وزويت له الأرض ، وتكشفت له الألغاز والأسرار وألقى اليه كل معدن وجوهر ، بسره وعنانه .

تلك هى قمم المجد البشرى التى حققها فى ميادين المادة وكان كفاء ذلك أن يرفل كوكبنا فى حلل السلام وأن يرتع فى جنات الرخاء ، وأن ينعم بالطيب من الخلق ، والكريم من الصفات ، والمزيد من الأمن .

ولكن لا يستطيع انسان أن يزعم ، أن سكان هذا السيار الأرضى فى حاضرهم أسعد عيشا وأهنأ حياة وأسمى خلقا ، وأكبر أمنا وسلاما من أمسهم يوم كان الحديد لا يلين إلا لنبى ! والرياح لا تسخر إلا لرسول ! .

لقد انتصر الانسان نصره الكبير ، وفتح فتحه المبين ، فى عالم المادة ، فتقمصته أرواح المردة وركبته أهواء الشياطين ، وكمن تحت ردائه العلمى الباهر السناء ، روح ملحد جاهلى متمرد ، وأمسكت بقلبه نزوات مراهق ملتاث ، لا تحلو له الحياة الا فى عنان الشهوات ومخادع الأحلام الملونة !...

لقد ارتد الانسان العظيم على عقبيه الى الجاهلية الأولى ، فغدا ذئبا مفترسا هائما بالدم مغرما بلحم أخيه فهو قاتله أينما ثقفه ، ومستعبده أينما وجده ، ومذله حيثما أصابه !

وانقلب على ذاته ، فهو يدفع بها إلى ظلمات الحقد ومرارته ، وضيق الجشع ومذلته ، ويزج بها فى تيه الأمانى النهمة المسعورة ، التى لا تهدأ ؛ بل هى أبدا مشبوبة الأوار مشتعلة اللظى .

إنه أينما تراه إنما يعب من شهوة أو منكفىء على جثة أو متطلع الى آلة براقة يعدها ويشحذها ليصب على الأرض وساكنيها عذابا غليظا .

لقد سما علما ، وهبط حسا ، وارتفع مادة وسقط روحا ، وشمخ فاتحا لقوى الطبيعة ، وهوى كانسان له وجدان وضمير وإيمان .

لقد فقد توازنه بين علمه المادى الصاعد ،وجهله الروحى الهابط فأصبح أحول البصر ، لا يستقيم له ميزان ، أعرج الساق ، لا يثبت على صراط ، ومن هنا كان سوط العذاب الذى يلهب ظهره ، وكان الخطر الذى يتربص بحضارته ووجوده .

لقد فقد الانسان روحه يوم أن أضاع إيمانه ، وفقد سعادته يوم أن ربطها بقوة المادة وغفل عن قوة الله .

لقد أسلم زمامه للمتفجرات ، ولم يلق بعنانه الى الرسالات والمثاليات ، فحكمته المتفجرات ؛ بل أوشكت أن تطوى صحفه .

وأحس الانسان العظيم بالفراغ الهائل فى آفاق روحه ، والتباين الكبير بين ألوان حياته ، فأخذ يستعيض عن الحقيقة بالخيال وعن الأصل بالصورة ، فراح يملأ جنبات الأرض بدور العبادة وأماكن الطاعة ، يزخرفها ويوشيها ويصعد بأجنحتها سموقا وشموخا ، ويجعل منها قلاعا وصروحا ، ففى كل بقعة من بقاع عالمناتقوم مساجد وكنائس ، ومعابد وبيع تتلى فيها كلمات الله ، وتمجد رسله ... ويضىء جوانبها الكلم الطيب ، ويعبق فيها أريج الدعوات الخلقية وصيحات المثالية والمناجاة المنغمة الصاعدة إلى الله .

ولعل كوكبنا فى سبحه الطويل فى الفضاء الكونى لم يشهد من قبل مجموعة هائلة من أماكن العبادة كما يشهد اليوم ، ولم يستمع إلى كلمات حلوة منغمة مجلوة تدعو إلى الايمان كما يستمع اليوم .

ولكن هل يستطيع الانسان – مع كل هذا – أن يزعم أن السيار الأرضى فى حاضره تهيمن عليه رسالات الأديان ، وتحكم فى قضاياه كلمات الله ؟!

إنه الزيف والخداع إذا توهمنا ، أو أوهمنا أنفسنا بأننا فى عصر من عصور الايمان أو من عصور الأديان .

لقد نفت حضارتنا الإيمان عن واقع حياتنا ، واحتفظت به للتراث وللذكرى ! كما تحتفظ بالآثار والمتاحف ... أشياء للعرض والجمال الفنى ، أو للبلاغة اللفظية وطراوة اللحن وجمال النغم .

لقد أفلت العملاق الأرضى من قبضة الأديان ، أفلت فى عنف وفى جموح ؛ بل فى تعمد واصرار ، وسار بعيدا عن أنوارها وهداها ، بعيدا عما تذكره به من سيادة الله وهيمنته وجبروته ، وكلماته القاضية النافذة .

لقد دخل الانسان العظيم ، وهو فى أوج حضارته الهائلة ، فى عصر جاهلي تموج رحابه بالأصنام ، أصنام المادة المتحكمة ، والشهوات القاهرة والعلوم المنتصرة ، الى آخر ما فى ساحاتنا من نصب وآلهة .

لقد امتلأ الانسان بالغرور الأرعن ، غرور السيادة ذات البأس الشديد ، والجاه العريض ، فأقام من عقله ربا يسبح بحمده ، ويحرق البخور فى معابده ، واتخذ من هواه ، إلها يناجيه ويتبتل فى محاريبه .

لقد اندفع الانسان العملاق ، يعربد بين قوى الطبيعة ، وكلما كشف عن سر من أسرارها ، زاد جبروته ، وعظم تأليهه لنفسه وعبادته لمعارفه ، التى تحكمت فى قوى المادة ، وفضت أسرارها ، وامتطتها ذلولا مسخرة لأمرها .

إننا فى عصر الجبابرة الضخام الهولة ! الذين لا يؤمنون أن فوق أيديهم يدا باطشة ! وفوق معارفهم قوة قاهرة ، وأنهم فى أسر مهيمن عليم ، إن يشأ يذهبهم ، ويأت بخلق جديد .

فى عصر يقول عليه بملء فيه فى غير حياء ولا خفاء :

« لقد آمن الانسان فى الماضى ، يوم كان ضعيفا ... يوم كان شيئا ضئيلا تافها بين عناصر المادة ، أما اليوم ، وهو القوى القادر ، سيد العناصر فليس ثمة حاجة إلى قوة غامضة غير مرئية فى معاهد العلم التجريبى ، وغير ملموسة فى معامل العلم الآلي ، ليس بحاجة إلى هذه القوة لتهيمن على شئونه ، وتدخل فى حياته ، وتفرض عليه ناموسها وشرعتها وآدابها » . فإذا خفف من كبريائه قليلا أو كثيرا قال فى سماحة العقلاء : «حياتنا لنا ، نحن أربابها وسادتها ، ولتلك القوى سويعات فى معابدنا ومحاريبنا ، وأشواق ووجدانيات نذكرها ، ونلقى لديها عزاء كلما هفا بنا الحنين إلى المجهول ، وإلى الغموض ، وإلى من عرشه على الماء »!

وفى أعقاب تلك الصيحة ، التى تعرف بصيحة العلم والعلماء ، تثب قارعة أشد جحودا وأكبر نكرا ... تأتى قارعة الشيوعية ، لتقول بأعرض الكلمات وأوضحها :

« لقد انتهت آلهة الأساطير ، وولت أديان الاستغلاليين ، وذهب أفيون الشعوب المخدر إلى غير رجعة ، ودخلنا فى عصر الاقتصاد، ورب الأرباب ، المتحكم فى رقاب العباد ، عصر الجماهير الزاحفة المتحررة الواعية ، التى لا تعرف كهنوتا ولا جبروتا ، وإنما تؤمن بلقمة الخبز ، ونداء الجسد ، والتطور المادى وتعاليم « كارل ماركس » .

وتمشى الحياة هنا وهناك ، تحت تلك الأعلام حتى تكاد أن تصبح هذه الحياة الجاحدة الملحدة ، فطرة وطبيعة ، وشيئا مألوفا معتادا لا غرابة فيه . ولا ثورة عليه .

والقارعة الكبرى أن الأديان قد سلمت بهذا وارتضته ، وتخلت عن مكانها ، وتركت مقعدها للغزاة الفاتحين .

فالمسيحية – وهى دين الجبابرة – دين العنصر الأبيض السيد ، قنعت بأن تكون أشواقا تمر بالانسان فى سويعات فارغة ، وعظات جميلة حبيبة ، تلقى على نغمات الأرغن ، أو على ألحان الموسيقى الناعمة الحالمة فى صبيحة الأحد من كل أسبوع ، أو مواكب فخمة مزركشة ، تتصدرها الأردية الدينية ، فى الأعياد والمناسبات الرسمية ، وهذا هو نصيب الله عندها ، وللانسان بعد ذلك ما تبقى !

والأديان الكبرى فى الشرق الأقصى ، البوذية والهندوكية والكنفوشسوسية تلك الأديان التى تهيمن على ما يقرب من نصف البشرية ، تكتسحها اليوم الشيوعية المادية الملحدة ، وتستسلم تلك الجماهير الهائلة فى يسر وبساطة للدين الجديد الذى يخطف بريقه الأبصار .

أما اليهودية قد شمرت عن ساقها لتواصل دورها التاريخى ، تجمع ذهب العالم وتتحكم فى اقتصادياته ، وتحتكر أسواقه وتشعل الحروب ، وتمد هؤلاء وهؤلاء ليذكو اللهيب وتكثر الضحايا وينعم صهيون بثمرات الدماء .

إن شعارها المقدس : ليذهب الجميع إلى الجحيم مادام شعب الله المختار يجلس على عرش المال ويشعل بأنامله مواقد الحروب ، ويمهد لحكومة صهيون العالمية .

٢

هل انتهت رسالة الإسلام ؟

وبقى الاسلام .

وهو ليس أكثر من هذه الأديان أتباعا ، وليس أبناؤه سادة الحياة ، ولا جبابرة هذا الكوكب ! .

ولكنه وحده تتصاعد منه صيحات الايمان والبقاء ، ويراوده وحده ، الأمل فى النضال فى سبيل الله ، وتخايله الأحلام فى أن يعود كما بدأ : رسالة للدين والدنيا ، وهدى ورحمة وسلاما للعالمين .

ولست أزعم أن المسلمين - بوضعهم الحالى - شيء فى الميزان . ولست أدعى أنهم على الجادة ، وأن كتاب الله بينهم منار ينبثق منه الشعاع الذى يهيمن على حياتهم ، ويقضى بينهم ، ويوجه قواهم إلى ما يحب ويرضى .

ولكن فى الاسلام أشياء من مقومات البقاء ليست فى غيره ، إنه لا يزال - كدين - قوة صامدة مرت به كل عوامل الفناء فلم تنل منه ؛ بل لعله قوة صاعدة ، متفتحة للحياة ، أشد ما يكون التفتح كمالا واستعدادا .

إن روح الاسلام - رغم كل الضربات التاريخية الهائلة - لم ينطفىء نورها من نفوس المسلمين ، لقد توارت واحتجبت ، ولكن شعاعها لا يزال يلمع فى الظلمات ويتسلل هنا وهناك هاديا وداعيا .

وآية ذلك أن شعوبا فى أوربا ، وشعوبا فى آسيا ، قد استسلمت للشيوعية فى غير فتح أو حرب ، ولكن ليس بين هذه الشعوب ، شعب واحد من شعوب الاسلام .

هذه واحدة .

وثانية : أن الالحاد الفكرى والوجودية الانحلالية يتقاسمان المجتمعات الاوروبية ، ويشيعان فيها سخرية مريرة من كل شيء ينتسب الى الأخلاق ، أو يمت بسبب إلى رسالات السماء .

ولم يستطع الالحاد ، أن يكون له بين المسلمين رسالة ، ولم تستطع الوجودية أن ترفع لها بينهم لواء .

وثالثة : أن كل النهضات والحركات الفكرية فى اوربا ، حينما نشدت الاصلاح وتطلعت إليه ، نشدته فى كل شيء ، ورسمته فى كل أفق ، إلا فى ميدان مسيحيتها .

شهدت أوربا الحركات النازية والفاشستية ، والشيوعية والاشتراكية ، ولم تشهد حركة دينية قط ، تلبس ثوب الحياة ، وتزعم أنها رسالة للإصلاح والتجديد والقوة . لقد لجأت أوربا إلى هذه المذاهب ، لتملأ فراغ حياتها ، لأنها تعلم أن مسيحيتها ليست رسالة للدنيا ، وأن قلب شعوبها لم يعد ينبض علي موسيقاها .

الشعوب غير الاسلامية فى آسيا حينما نشدت التحرر من الاستعمار الأوروبى ، لجأت إلى الشيوعية واعتصمت بها ، واتخذتها عدتها للتحرر ودرعها للنصر ، ووسيلتها للقوة والاصلاح .

أما العالم الإسلامى - وفى كل بقعة من بقاعه وثبة للحرية ، وحركة للنضال ، ودفعة للاصلاح - فلم يشعر قط بحاجته إلى قوة من خارج معتقداته ، ولم يلتمس أبدا ، نجدة من غير إيمانه وقرآنه .

فكل حركة ، وكل وثبة ، وكل نهضة فى رحابه ، إنما قامت على عقيدته الدينية ، أو تقنعت بها ، وتدثرت ببريقها .

وتلك دلالات ناطقة على احساس المسلمين بدينهم ، وإيمانهم بأنه وحده ملاذهم وأملهم حين تدعو الأحداث الى النضال والوثوب .

ورابعة : لا يستطيع دين عالمى أن يزعم لنفسه أنه نظام اجتماعى وخلقى ، واقتصادى ، وتشريعى ، ودستور كامل شامل لكل ما يضطرب فيه الناس من شئون الحياة كما يدعى الاسلام ، وكما يثبت قرآنه ، وكما طبق ونفذ فى ماضيه .

وخامسة : لم يدع أتباع دين من الأديان العالمية - الكتابية وغير الكتابية - أن لديهم فى دينهم تشريعات وأنظمة حضارية ، وقوى مادية وروحية ، كفيلة بانقاذ هذه الحضارة من إلحادها وفجورها كما يدعى الاسلام

فالاسلام بلا ريب هو القوة الايمانية الربانية الباقية فى هذا الكوكب ، ومن هنا كان ايمان أتباعه - رغم ضعفهم ووهنهم ، وفقدهم لبأس دينهم وروحه العالية - بأنهم وحدهم يملكون إنقاذ العالم من عذاب غليظ ، توقد لهبه الحضارة القائمة .

إنهم ليؤمنون بأنهم خلاصة الأديان السماوية كافة ، وأنهم أمناء الله على رسالاته وكلماته ، وشهداؤه على الناس ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... »

وانهم يوم يعودون الى دينهم من جديد لا ينقذون أنفسهم فحسب ، بل ينقذون الانسانية كافة ، ويحيون دين الله الذى ارتضى لعباده .

وهم من ربهم على موعد وعهد وميثاق ، أن يهبهم النصر من لدنه غلابا قويا ، وأن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، وأن يزكى قواهم ويسدد خطاهم يوم يعودون من جديد إلى مولاهم .

« وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ... »

وقد جرت سنة الله ، أنه كلما وهنت حضارة وانحلت عقيدتها وهبطت أخلاقها ، ظهرت حضارة من جديد ، فتية عزيزة لتأخذ بيديها زمام العالم ، وكلما أخذت الجاهلية فى السموق والشموخ ، ظهرت دعوات الله منقذة مؤمنة ، ترد الانسانية بأمر ربها الى محاريبه ومنائره .

ولن يتخلى الله عن عباده وهم أكرم خلقه ، ولن يترك خليقته على الأرض لهذا الضريم المتأجج ، والبغى السافر ، والالحاد الكافر .

« أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ... » « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

وأخيرا ... هل يملك الاسلام ، أن يلعب هذا الدور العالمى ؟ ... وهل فى طاقته وفى إمكانياته أن يهيمن على هذه الحضارة ليردها إلى ربها ؟

وهل له قوة تعينه على أن يقوم بدور الفارس المنقذ للإنسانية من قبضة الشياطين وصيحة الجاهلية ؟

بل هل يستطيع الاسلام أن ينفخ فى روح أبنائه فيبعثهم من مستنقعات الذل التى ألفوها ، ومن أعماق الهاوية التى يصطرعون فيها ؟ ... هل فى طاقته أن يرسلهم - وهم شراذم متفرقة فى ذيل القافلة العالمية - قـوة موحدة ، تمسك بالزمام ، وتخطو إلى الأمام ؟

قد يبدو ذلك - فى منطق الذين لا يرجون أيام الله - شيئا مستحيلا ، لا يليق بتفكير العقلاء ، ولكنه فى منطق الإيمان ، بل وفى منطق الواقع التاريخى شىء أقرب مما يظن أكثر الناس تفاؤلا .

فالعالم الإسلامى فى حاضره ليس أقل فى إمكانياته وطاقاته ، ولا فى عزته وعَدده وعُدده من روسيا فى سنة ١٩١٧ يوم أن كانت نهبا مقسما بين الغول الألمانى الزاحف والفقر المذل المهيمن والجهل الخانق المطبق والانحلال السيد المتحكم والفوضى التى لا حد لآفاقها ولا نهاية لتهاويلها.

ومع هذا استطاعت روسيا فى خلال ربع قرن أن تكون دولة عالمية لها سطوتها وقوتها ، بل ومعها شعوب عالمية تدور فى فلكها ، وتأتمر بأمرها .

الإسلام بقرآنه ، وسننه ، ومبادئه ، ونظمه وشرائعه ، وآدابه ومثالياته ، ليس أقل قوة وإلهاما وجاذبية وإشراقا ، من إنجيل « كارل ماركس » وصيحات « لينين » . وليس أقل إيجابية وفاعلية من الدعوة الشيوعية الحمراء ، التى استطاعت فى خلال ربع قرن ، أن تكون مذهبا عالميا قائما بنفسه ، عزيزا غلابا زاحفا ، ومؤثرا فى النظم الدولية التي تجاوره ، وتشاركه فى الحياة .

لقد وجدت الشيوعية رجالا يؤمنون بها ... وجدت حواريين وسدنة يبذلون دماءهم فى سبيلها ، ويقدمون حياتها على حياتهم ، رجالا حملوا راياتها فأوردوها ساحات النصر ورفعوها فوق هامات الشعوب .

ووجدت روسيا الممزقة الذليلة المتأخرة فكرة اعتنقتها فجددت روحها ، وألهمت قلبها ، وأيقظت أحلامها ، ووحدت مثلها العليا فإذا بالضعف قوة وبالفرقة وحدة ، وبالذل عزة ، وبالجمود وثبة .

لقد نشأ من التقاء الفكر بالأمة ، تلك القوة العالمية التى بزغت جبارة عاتية ، رهبة لقوم ، وأملا يرتجى لآخرين .

لقد انتصر الباطل يوم وجد المؤمنين به ! ... ألا ينتصر دين الله يوم يجد رجالا ؟ !! ...

٣٠
شبهات حول الاسلام

ثم تأتي بعد ذلك شبهات حول الاسلام ، وهى شبهات تثور وتغلى وتندفع فى أقوال الشباب ولحون الشيوخ .

شبهات تسمعها فيما يتجادل فيه الناس بأقلامهم وألسنتهم وفيما يتحاورون به فى مجالسهم وطرقاتهم . شبهات عنيفة جامحة ، ترددها الرأسمالية حينا ، ويبعثها دعاة الشيوعية أحيانا ، ويثيرها الاستعمار دائما ، وفى شراكهم وفى عنانهم ينساق جانب ضخم من الأمة الاسلامية .

وفى طليعة تلك الشبهات صيحة بأن العودة إلى الاسلام هى بعث لتشريع الصحراء ، وعودة إلى حياة البداوة ، وإنه لا يجوز فى منطق العقلاء ، أن نحبس الطاقة الإنسانية المتطورة ، فى عقائد ونظم وقيم كانت ملائمة لسكان الجزيرة العربية وما حولها قبل أربعة عشر قرنا : أى قبل أن تتسع الدنيا ، وتسمو معارف الناس ، وتشرق أنوار تلك الحضارة .

ثم ما هو موقف الاسلام من تلك الحضارة ، بثقافاتها وفنونها ومعارفها ، وما منحت البشرية من مصانع ومعامل ، وبنوك وشركات ، وحريات للقول ، وحريات للعقائد ، ومساواة طبقية ، وعدالة اجتماعية ؟! ... وما هو موقفه من الفنون الجميلة ، وهى ثمرة مباركة من ثمرات الحضارة القائمة ، من تصوير ونحت وتمثيل وسينما ومسارح ومراقص وأغانى وموسيقا ؟ .

وهل تعود المرأة إلى حياة الحريم ، رقيقا تضرب عليها الحجب ، وترخى عليها السجف ؟!

وهل نسلم الحكم إلى رجال الدين ، ليعودوا بنا إلى جاهلية الحكومات المقدسة ، وإلى الحاكم المطلق ، ولى النعم وظل الإله فى الأرض ؟ ! .

وما هو موقفنا من الشيوعية ؟ ! ... وهل نملك نظاما اقتصاديا أكمل من نظامها ، وأرضى للجماهير مما تملك ؟ ... هل عندنا تحرير طبقى كما حققت الشيوعية لأربابها ؟ ... أليس من الخير أن نهرع إلى الدين الجديد القائم القوى نلتمس لديه عونا وعدلا ، بدلا من أن نضرب فى الظلمات ونسبح وراء الماضى البعيد .

وهل دولة القرآن هى الدولة المثالية التى تمنح العالم أمنه وسلامه ، وتحميه من الذئاب التى تتواثب حوله ، والمتفجرات التى يخنق دخانهـــا حياته ؟ ... وهل فى طاقة الاسلام أن يهب الدنيا حضارة أزهى من هذه الحضارة الضاحكة ؟ ... وهل يتمتع الناس تحت لوائه بما يتمتعون به اليوم من مناعم ومباهج وترف كريم وعلم فاتح منتصر ؟ .

وماذا نفعل بالأقليات غير الإسلامية التى تعيش بيننا ؟ ! وماذا نفعل لو تألبت علينا أوربا وأعلنتها حربا مقدسة ... حربا صليبية جديدة ، بكل ما فى الحرب الدينية من عنف وبطش وتدمير ؟ !

ثم ما للأديان والتشريع والحياة ؟ ... إن الأديان كتب مقدسة للخير والبركة ! ... وفضائل خلقية تتعلق بالسلوك الخاص ! ... وأشواق قلبية لمن ينشد العزاء لدى المجهول ! ... ثم لا شأن لها بعد ذلك بتصريف شئون الحياة والبت فى قضاياها .

وتأتى بعد ذلك شبهات أخرى ! :

ما هو الاسلام ؟ !

هل هو الذى نشاهده مطبقا فى بعض البقاع الصحراوية ، حيث تتجلى الفوارق الاجتماعية الهائلة بين الحاكمين والمحكومين ! ! وحيث لا نرى سموا ولا ارتفاعا فى المقاييس الخلقية والعمرانية والاجتماعية والمدنية ؟ .

أم هو الذى نشاهده فى طوائف المتصوفة وأذكارهم ومواكبهم ، وما تحتوى عليه من دراويش ومجاذيب من مخلفات الانسانية الجاهلة ؟ ! !

أم هو الذى نراه فى طوائف انتسبت إلى السنة ، ونادت بها ثم قبعت داخل قماتم لا تتصل بالنور ، ولا تتعرف إليه ، واكتفت من الحياة المتحركة الصاعدة بمظاهر شكلية لا تتعدى الزى والهيئة ، والجمود على بعض تقاليد ليست من الحياة ولا من الدين ؟ .

أم هو الذى نراه واضحا على سمات المتزمتين المتعصبين الذين يريدون أن يضربوا على وجه المرأة بالأقنعة وعلى الفنون بالحجر وعلى الحضـــارة بالموت ؟ .

شبهات مجنحة فى وجه الاسلام ، وفى وجه الدعاة له .. شبهات تعالت وسمقت فكانت أسوارا مدرعة تحجب عن المسلمين حقيقة قرآنهم ، وحقيقة رسالتهم .

وبكلمة واحدة ... ليس هذا هو الاسلام ، وإن تعالت تلك الشبهات وإن سمقت تلك الأسوار ، فالاسلام ليس ملكا لفرد ولا لجماعة ولا لأمة .. إن الاسلام كتاب كريم مطهر محفوظ ، لا يزول ولا يتغير ولا يدنو منه تحريف ولا يتطاول إليه عبث .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكم خبير » .

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ، ورحمة وبشرى للمسلمين » .

هذا الكتاب الربانى الكريم هو الإسلام ، وفى أعقابه وعلى أثره سيرة رسوله العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، وسنته وأحكامه وتبيانه للناس .

يقول الصادق الأمين .

« أتيتكم بالمحجة البيضاء . ليلها كنهارها ، وتركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله » .

ومن كتاب الله وعلى هداه ، ومن سنة رسوله وعلى نورها ، ومن واقع الحياة الاسلامية الصادقة ، ومن روح الفكرة الإسلامية المتطورة نقدم هذا الكتاب ، عارضين للإسلام من جديد ، وما جديده إلا قديمه ... محجة بيضاء وحنيفية سمحة ، وحياة سامقة طاهرة ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ودينه الذى ارتضى لعباده . ليحكم بين الناس بالقسط ويبعثهم على الصراط المستقيم .

الإسلام كعقيدة تعبدية وقانون تشريعى ونظام اقتصادى وفلسفة للحكم ورسالة للأخلاق وعدالة اجتماعية عالية .

كدستور شامل لكل ما فى الحياة ، دستور كامل تتسع آفاقه لكل ما تتطور إليه المجتمعات الانسانية ، والثقافات العلمية والألوان الحضارية ، أيا كانت زمانا ومكانا .

الاسلام الذى جاء كما قال البطل الإسلامى « زهرة بن حويه » ، لـ « رستم » قائد الفرس :

« ... ليخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ،.ومن جور الحكام إلى عدالة القرآن ، ومن ضيق الجهل إلى سعة الإيمان ، وأن الناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم » .

.. الاسلام الذى حرر الفرد ضميرا ووجدانا وقولا وعملا وعقيدة فى غير استهتار أو نزوات . وحرر الجماعات من رق الفوارق وسموم الحقد ، فى غير صراع ولا شهوات ، وحرر المحكومين من قبضة الحاكمين إلا بالعدل والحق ، فلا طاعة فى معصية ولا استجابة فى باطل ، وحرر الأمم من شهوة الاستعمار ، فلا عدوان ولا قتال للتملك والاستعلاء .

فان بغت أمة على أمة :

« فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » .

وحرر كل شيء ، سواء أكان ماديا أم روحيا بكلمة واحدة هى ميزان السموات والأرض ، وهى صلات الناس ، وهى عدالة الخلق ، وهى عقيدة الدنيا :

« لا إله إلا الله »

فلا خوف من طاغية ، ولا رعب من ظالم ، ولا نفاق لزلفى ، ولا خديعة لربح ، ولا جزع لمصاب ، ولا تمرد لشهوة ، لأن كل هذا وما يجرى فى عنانه ينافى كلمة التوحيد ... كلمة الحرية ... كلمة العدالة ... « لا إله إلا الله » .

.. الاسلام الذى جعل المال مال الله ، وعباد الله الأغنياء فيه مستخلفين ، لخيرهم ولخير الناس ، فلا احتكار للأرزاق،ولا ملكية تقول : أنا حرة التصرف فيما أملك . فالمال ليس مالها ، وإنما هى موظفة فيه للخير العام ، فان انحرفت فالمال مال الجماعة ، وان اكتنزت وتضخمت ، لاحقتها القوانين ، ولاحقتها حقوق المحرومين والعاطلين والغارمين ، لأن الله لا يحب أن يكون المال دولة بين الأغنياء .

والأرض لمن يفلحها ، لمن يزرعها بنفسه ، فإن لم يفعل ثلاث سنوات فقد غطل مرفقا عاما ، ووجب أن تنزع منه ، وتعطى دون مقابل لمن يزرعها.

الاسلام الذى فرض لكل انسان بيتا ، وزوجة ، وعملا ، يتكفل أجره بحاجاته على السعة ، من كساء وغذاء ودواء ، من غير ضيق ولا عسر ، فان لم يجد فعلى بيت المال أن يقوم به وبأسرته ، حتى تدبر الدولة له عملا ، فإن الحاكم مسئول عن أقوات الرعية .

الاسلام الذى فرض لكل جاهل معلما يعلمه ، ولكل أعمى قائدا يأخذ بيده ، وأمر بأن تكون المكتبات فى الحدائق العامة للناس جميعا ، حتى ينعم الشعب بصحة الجسد ، وصحة العقل .

الإسلام الذى جعل فريضة مقررة فى بيت المال لكل مولود يولد فى الإسلام ، ويمشى الأجر مع حياة الطفل صعودا ، حتى يبلغ أشده ويأخذ حظه من التعليم أو الصناعة ، أو التجارة ، أو الجندية .

الإسلام الذي حدد وظيفة الحاكم فجعله راعيا يسوس الناس لخيرهم ولإقامة شريعة ربهم ، وهو بعد كأحدهم ، لا يجوز له أن يكون له فى مطعمه وملبسه ومركبه أكبر مما يطيق أواسط الناس ، وجعل له على المسلمين الطاعة والنصيحة والعون مادام على الصراط السوى فإن انحرف فكتاب اللـه الفيصل ، والأمر شورى ، والحقوق قضاء ، وإلا فالصيحة الاسلامية الحرة : « لورأينا فيك اعوجاجا ، لقومناه بحد سيوفنا » .

فى غير بغى ولا عدوان ، والسيوف هنا هى إرادة الكثرة .

الإسلام الذى يدور تشريعه مع الحياة ، ومع الصالح العام ، فى غير ضيق ولا حرج ولا تعنت ولا جمود ، فيقول قرآنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ويقول رسوله « لا ضرر ولا ضرار » .

فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله « كما يقول الامام الطوفى » .

وحيثما وجد الضرر وقفت الحدود – سدا للذرائع – كما يقول المالكية .

والله جل جلاله يحب لعباده الرحمة واليسر والسعة ، ويكره أن يصيبهم الضيق والضرر والشدة ، ولقد سن لهم الشرائع لتحقق لهم ما يحب ويرضى ، فشرائع الله تدور مع الخير واليسر « أينما وليا وجهيهما » كما يقول ابن القيم ، رحمة الله على عائشة إذ تقول : « ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما » .

الإسلام الذى يحب العزة ، ويكره الذل ، ويجعل الخير فى اليد العليا ويقدس يد العامل ، لأنها يد كادحة صانعة ، حتى ليأمر الرسول بتقبيلها ويقول : « إنها ليد يحبها الله » .

ويجعل من يهضم حقها أو يؤخر أجرها خصيما لله ، كما يكره أن يرى إنسانا فارغا من عمل الدنيا ، أو عمل الآخرة ، إن الفراغ حليف الشيطان .

الإسلام الذى وحد البشرية كافة ، فلا ألوان ، ولا جنسيات ، ولا عصبيات بين الناس ، بل الجميع سواسية ، لا تفاضل إلا بالتقوي ، وليست التقوى عبادة فحسب ، بل إن العمل الصالح فى الدنيا ... العمل الصالح الذى ينفع الناس ويدفعهم خطوات فى طريق العلم أو فى طريق الرفاهية لهو أكبر التقوى .

الاسلام الذى يرقب صدور الناس وقلوبهم ، كما يرقب أعمالهم وأفكارهم . ثم لا ينظر إلى وجوههم وأموالهم ، لأنها ليست شيئا فى موازين الخير والإيمان .

الاسلام الحضارى الرءوف الرحيم بكل ذى كبد حى حتى لتدخل امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، ويدخل الجنة رجل رأى كلبا ظامئا فى الصحراء فسقاه ، فغفر الله له ، فأدخله جناته .

الاسلام الذى نهى عن القسوة أيا كان موضعها ، حتى لينهى عن المثلة بالكلب العقور .

الاسلام الذى جهله أتباعه فنكثوا عهد الله ، وتخلوا عن رسالتهم العالمية ، وأفسحوا الطريق للجاهلية ، وأطفأوا أنوارا أراد الله لها أن تضىء ، وأغلقوا أبوابا للخير ، كانت هدى ورحمة للعالمين .

* * *

ونحن بهذا الكتاب نحاول أن نقيم للتشريع القرآنى نظاما سامقا ، مقارنا بكل التشريعات العالمية ، ونظاما اقتصاديا كاملا مقارنا بكل الأنظمة الدولية ، ونظاما لسياسة الحكم مقارنا بكل الأنظمة التى تهيمن على عالمنا ، ونظاما حضاريا اجتماعيا علميا متطورا ، له فكرته عن الحياة والعلم والمدنية وله رسالته فى العدالة الاجتماعية ، والأنظمة الطبقية ، والحريات فردية وجماعية .

وبذلك نسهم فى تمزيق الحجب التى تحول بين المسلمين وبين فجرهم المرتقب ، ونقدم ذخيرة للوعى الاسلامى الصاعد ، ونضع لبنات فى بناء القاعدة الاسلامية التى تجذب إلى قطبها البناة والدعاة ، وندفع الفكر الدينى المتطور ، ليجرى مع التطورات الحضارية العاملة فى الحياة .

فإن وفقنا فانما التوفيق من الله ، وإن عجزنا عن الوفاء بما يبلغ بنا الغاية فحسبنا أن نكون أدلاء فى الركب ، وحداة فى القافلة ، بل حسبنا أن نثير فى القلب الاسلامى تشوقا وأملا ، وأن نضع فى طريقه الذى يخنقه الضباب مصباحا يرشد إلى كلمات الله .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال : إننى من المسلمين » ؟ !

٤
الاسلام وحضارة الغد

أصدرت المطابع الأوربية كتابا باسم : « الحساب الأخير » تحدث فيه مؤلفه « جوستاف يونج » عن الحساب الأخير الذى اقترب . . الحساب الأخير الذى سيتولى القيام به العالم الاسلامى ضد أوروبا الاستعمارية ، والصهيونية التى تحاكيها وتمشى فى ركابها .

وخلاصته أن العالم الإسلامى قد أفلت من قبضة الموت ! ... الموت الذى أعده ونسق أكفانه الاستعمار الأوربى ، وأن العالم الاسلامى قد ابتدأت العافية تدب فى أوصاله ، وأنه يسرع الخطا الى الشباب ، الى القوة من جديد ليصفى حسابه مع الاستعمار والصهيونية ، وهو حساب عسير رهيب ، ولهذا يسميه مؤلف الكتاب « الحساب الأخير » .

وتحت عنوان : « الصناعات الفنية والخطيئة » نشر الوجودى المسيحى « جبريل مرسل » بحثا قال فيه :

« إن حرب اللاوياثانات - هو حيوان أسطورى هائل - قد أصابها من الشمول ما جعلها بمثابة جريمة عامة ضد الحياة .

وإن القنبلة الذرية قد ارتفعت بالتهديد بالفناء الى الكوكب الأرضى كافة ؟ ! ... أجل لا يزال ثمة احتجاج ينطلق فى استحياء هنا وهناك باسم الشفقة على الحياة ، لكن الصناعة الفنية التى لا ترحم ، يرى أصحابها الصفوة أن هذه الشفقة على الحياة صارت أمرا تتضاءل أهميته يوما بعد يوم ، حتى ليمكن إهماله ، ولهذا فقد دخلنا فعلا - آمنا بذلك أو لم نؤمن - ما دامت الانسانية أصبحت على أهبة الانتحار ، نقول : إننا دخلنا فعلا فى عصر نشورى .

هذا من حيث المظهر الخارجى ، ومن حيث الباطن ، ان كنا ممن يحتملون من غير تسليم بذلك ، سماع صرخة العدالة من حناجر البائسين الذين احتوشت عليهم المصانع الحاشدة ، فأوقعتهم فى مضايق مشابكها . هناك نستشعر لمس خطر الخلاص يقبل علينا من أمم أخرى خلف أسوار الحياة الأوربية .

ونشرت المجلة الفرنسية « الله حى » مقالا قالت فيه « بينما نشاهد أنه قد أنشىء حديثا فى باريس لجنة مسيحية للتفاهم بين فرنسا والاسلام فى نفس الوقت الذى تدأب فيه أقلية من الزعماء الاستعماريين فى أوربا وأمريكا على معاملة الـ ٤٠٠ مليون مسلم الذين فى العالم ، معاملة المنحطين بينما يحدث هذا كله ، يحك فى صدورنا الشعور بأن الانسان الكامل ، لن يكون هذا الانسان الآلى الذى توجده الهندسة الصناعية المغرورة التى يهيىء أسبابها ، التقدم الفزيائى الكيميائى ، بل إنه سينبثق من الأوساط الانسانية متخذا صوت قاض ، قد ألجىء الى النطق بالحكم الفاصـل .

وللفيلسوف الألمانى الكبير شبلنجر كتاب باسم « أفول الغرب » قرر فيه أن الحضارة الأوربية طغت فيها المادة على الروح ، وهذا بداية النهاية لها ، رغم ما تخدع به البصر ، من التقدم العمرانى والمادى .

ثم يقول : « وما مرحلة الحضارة الحالية الا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى ، فهى سائرة بخطى واسعة الى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة ،تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله».

ثم يقول : « إن الحضارة دورات فلكية ، تغرب هنا لتشرق هناك ، وان حضارة جديدة أوشكت على الشروق فى أروع صورة ، هى حضارة الاسلام الذى يملك اليوم أقوى روحانية عالمية نقية » .

والمتتبع للمكتبة الأوربية ، يرى سيلا من الكتب المتلاحقة ، تبكى حضارة أوربا الغارقة فى اللهب المنبعث من مصانعها ومعاملها ، وترثى قلبها الذى أوشك على الهمود ، بعد أن جحد وألحد ، وابتعد عن رب الحياة وخالقها .

وفى الوقت نفسه ، تتحدث هذه الكتب عن الاسلام فى حسرة ومرارة ، الاسلام الذى أوشك أن يصفى حسابه مع الاستعمار ، حسابه الأخير الحاسم ، كما يقول « جوستاف يونج » .

الاسلام الذى سينبثق من أوساطه الانسان الكامل ، هاتفا بصوت قاض رهيب ، ناطقا بالحكم الفاصل كما تقول المجلة الفرنسية « الله حى » .

الاسلام الذى أوشكت حضارته على الشروق ، لأنه يملك وحده ، أعظم القوى الروحية النقية المنقذة كما يقول شبلنجر .

ذلك هو الغد الذى ينتظر الاسلام ، وتلك هى نظرة المفكرين الأوربيين إلى قوته وروحانيته ووثبته العالمية القادمة .

وليس معنى استشراف العالم الينا ، وترقبه لإشراقنا المنقذ ، أن يطيش الميزان فى أيدينا ، فنظن أننا حقا بدأنا الخطى الجبارة الى الغاية الكبرى .

ان من يرقب نهضتنا ، ويتنبأ بغدنا ، إنما يرصد الأفق الاسلامى الأعلى ، فيلمس الطاقات الروحية الهائلة المنبثقة من لحن قرآننا ، ويحس وهج البأس الشديد المدخر فى عقيدتنا .

ولقد انفصل ما بيننا وبين الاسلام من عهد وميثاق ، وبعد ما بيننا وبين حقائقه من روابط وصلات ، بل لقد انقلب الاسلام العظيم مسخا مشوها فى أيدينا ، فأصبح العملاق السيد عبدا ذليلا .

يقول العلامة « ليوبولد فايس »[1] إن الحياة الاسلامية فى الواقع تظهر على كل حال فى أيامنا الحاضرة بعيدة جدا عن الامكانيات المثلى التى تقدمها التعاليم الدينية فى الاسلام . من ذلك مثلا ، أن كل ما كان فى الاسلام تقدما وحيوية ، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا ، وكل ما كان فى الاسلام من قبل ، كرما وايثارا ، أصبح اليوم بين المسلمين ضيقا فى النظر ، وحبا للحياة الهينة .

ثم يقول«أن ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين ، وذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئا فشيئا ، يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية ، فنتج من هذا أن الاسلام ظل بعد ذلك موجودا ، ولكنه كان جسدا بلا روح,ثم أن العنصر الذى خلق قوة العالم الاسلامى من قبل ، هو المسئول عن ضعف المسلمين ؟... فإن المجتمع الاسلامى بنى منذ أوله على أسس دينية ، وضعف هذا الاساس ، قاد بالضرورة ، إلى ضعف البناء الثقافى فيه ، وربما كان سببا لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهما لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العلمية ، ازددت رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقا تاما على الحياة الحقيقية » .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ١١ .

وهذا السؤال الذى يراود هذا الرجل الأوربى الذى هدى الله قلبه للإسلام هو السؤال الطائر الحائر اليوم فى أفق العالم الإسلامى .

لماذا هجر المسلمون دينهم ؟ ! ولماذا نفوا كتاب الله بعيدا عن حياتهم؟ ولماذا نبذوا أنظمة القرآن وشرائعه عن أن تكون حكما بينهم ونورا يأخذ بأيديهم كما أخذ بأيدى المؤمنين من قبل ؟ !

إن الوعى الإسلامى اليوم فى يقظة متحركة ، فقد اجتاز العالم الاسلامى مرحلة الموت ، ولكنها يقظة مهتزة ، تتعسر فى كل خطوة بفجوات شق لحدها ، الجهل والضعف ، وتصطدم فى كل وثبة بعوائق شامخة كالأسوار أقامتها تقاليد جاهلية ، وعادات بدائية ، وظلال حضارة مادية شهوانية ، وتيار عام ، انحرف وطال انحرافه عن روح الاسلام وهداه .

إنها نهضة تشق طريقها فى الضباب والدخان ، وتتلمس السبل لاهثة الانفاس مخدورة الحواس ، لم تتبين بعد نجمها ، ولم تهتد إلى صراطها .

فكل مسلم بيننا يتحدث عن الاسلام ، وعن نهضته ، ويحلم بغده ، ويتمنى على الله الأمانى ، أن يسود ويهيمن وهو لا يفقه هذا الاسلام ولا يبذل جهدا صادقا فى نصرته .

وكل مسلم اليوم يتلو كتاب الله أو يستمع إلى آياته ، وهو يؤمن فى خشوع بأنها كلمات الله وهداه ، ويؤمن بأن الله قد حد حدودا ، وسن قانونا ، وشرع شريعة ، وإن كل ما سن وشرع لعباده ، فهو خير وهدى ونور ورحمة للعالمين .

يؤمن بكل هذا قولا ، ويقسم عليه تأكيدا ، ولكنه إذا دعى الى التطبيق أو طلب منه أن يعمل لعودة الاسلام كاملا بدستوره وتشريعه ونظمه ومثله ، أذهلته المفاجأة ، بل أغضبته ، لأنها ستحمله رسالة الكفاح والنضال ، وهو يريد السلام غير ذى شوكة ، يريده هينا لينا رخوا لا جهاد فيه ولا عناء .

انها لمفاجأة كبرى لم تمر يوما بخاطره ، ولم تعش لحظة فى خياله ، لأنه امتلأ عقلا وقلبا ووجدانا بما تلقنه الحضارة القائمة كل يوم وكل ساعة ، من أنها قد منحته من لدنها نظاما وعدالة اجتماعية ، وديمقراطية سياسية ، هى أسمى ما عرف البشر،وأعلى ما شهدت الحياة .

ولأنه قد امتلأ عقلا وقلبا ووجدانا ، بما يقذف فى تفكيره كل يوم وكل ساعة من الأقلام والألسن ، وغير الأقلام والألسن من أدوات التعبير والإبانة ، من أن الأديان حسب المرء منها عبادات وأخلاقيات وسلوك فردى .

فإذا صلى وزكى وحج وصام ، وسبح الله وذكره آلافا وآلافا ، فهو عبد مؤمن تقى نقى ، له جنات عرضها السموات والأرض ، وحور عين يملأن الآفاق

فاذا تسامى ايمانه فحسبه وحسب دينه منه ، أن ينكر بقلبه ، ويخضع بعمله . والخيرة كما يقولون ، فيما اختار الله .

هذا الفهم الخاطىء أضر بالاسلام من الكفر به ، لأنه اهدار لروح الاسلام ، ولأنه تمزيق بشع لكلمات الله ، وإيمان بآيات وكفران بآيات ، وعصيان صريح سافر لله ولرسوله .

فمن لم يحكم بما أنزل الله فقد كفر بكتاب الله ، وفسق بعقيدة الايمان ، واستبدل الأدنى بالذى هو خير ، هذا هو حكم القرآن .

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

والاسلام إما أن يؤخذ وحدة كاملة ، بعباداته وتشريعاته ، ومثله وآفاقه ، وحدة ربانية لا تتجزأ ولا يمسسها باطل ، ولا يدنو منها لغوب ، وإما أن يترك كله ، حتى لا يصاب بالشلل والتشويه والجمود .

فمن أقام الصلاة وأبطل الجهاد ، فقد مزق الاسلام ومات ميتة جاهلية ، وعاش على شعبة من نفاق . هكذا علمنا رسول الله ، وبهذا نادى القرآن .

الزكاة فريضة ، والحج فريضة ، وكفاح الغاصب فريضة مقدسة ، وكلمة الحق فريضة مقررة .فلا زكاة لمن استكان لمستعمر ، ولا حج لمن خنع لطاغية ، ولا تقوى لمن رأى حدود الله تنتهك ولم يقل فيها قولا ، ولم يرق فيها جهدا . فسياسة الحكم ، وفنون الاقتصاد ، وحقوق الافراد والجماعات فى القضاء والقصاص ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومكارم الأخلاق ، والفضائل النفسية والعدالة الاجتماعية على اختلاف ضروبها وألوانها ، والحريات بكل آفاقها ومعارجها ، أوامر اسلامية قرآنية من حاد عنها فقد بطلت صلاته وبطل حجه وصيامه .

« ... ومن لم يدع قول الزور وشهادة الباطل ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه ... » .

ومن عجب أننا اذا قلنا لمسلم مثلا : لا تصل ... ثار كالزوبعة ، وغضب كالعاصفة ، وظن أن السماء قد دمدمت بالغضب ، وأن الأرض قد تفجرت باللهب ، ولكنه يرى الدنيا سلاما وأمنا وابتساما وحدود اللـــه معطلة ، وشرائعه مهدرة ، وفرائضه ومثله منبوذة مقهورة .

أى فرق بين فريضة الصلاة وشريعة الله ، ألم يعتبر أبو بكر وصحابة رسول الله منع الزكاة ردة كافرة تسل فيها السيوف وتستباح فيها الدماء ، وتقدم معركتها على كل معركة فى تاريخ الاسلام .

يوم يفقه المسلم هذه المعانى ويوم يدرك أن العبادة لا تنفصل عن التشريع ، وأن الاسلام لا يقوم بشق واحد ، ولا يحيا مفصول القلب عن الرأس ، يومئذ يفرح المسلمون بنصر الله ، ويومئذ تعود للدنيا راية الايمان والاسلام والسلام .

وصلوات الله على رسولنا ؛ فقد كانت سنته إذا عاد مريضا أن يقول :

« اللهم اشف عبدك ، يشهد لك صلاة ، أو ينكأ لك عدوا » .

وتلك رسالة الاسلام : عبادة لله ، ومساهمة فى الحياة .

إن الاسلام ليس بالأمانى ، ولكنه الجهاد الذى لا يهدأ ، والعمل الذى لا يفتر ، إنه طاعة متصلة ، وعزة قائمة ، وكلمة لله حاكمة .

فإن أردنا أن نعود إلى الإسلام مؤمنين به كما أنزله الله : عبادة وتشريعا وعملا للدين والدنيا ، وسلاما وسعادة للعالمين فإن إرادة الله معنا ، ولا غالب لنا يومئذ .

وإن قنعنا بقسمة الاسلام إلى عبادات وتشريعات ، وأخذنا منه أهون الجانبين على أنفسنا ، وقنعنا بغير ذات الشوكة نصيبا ، وقلنا فى كل مسألة إسلامية تدعو إلى الكفاح كما قال عصاة اليهود لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون » .

أو بتعبير مسلمى اليوم : « إن للدين ربا يحميه » وانتظرنا أن يأتى الله فى ظلل من الغمام والملائكة ، ليد فعوا عنا ما جنت أيدينا ، فليس لنا من دنيانا إلا تلك الحياة الذليلة الخانعة ، المجللة بالخزى ، المكللة بغضب الله وليس لنا أن نتمنى على ربنا الأمانى الكذاب .

« واتل عليهم نبأ الذى أتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ... » .

ولقد رأى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، رجلا يعبث بالحصى ويقول :

« اللهم زوجنى الحور العين فقال الرسول : بئس الخاطب أنت . أتخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى ؟ ! »

غفر الله لهذا الأعرابى الساذج الأبله . فلقد ورث المسلمون اليوم عقليته وفتور همته وغفلته ، فكلهم اليوم هذا الأعرابى الحالم .. ولبئس ما يفعلون .

يعبثون ويحلمون بالعزة والقوة والحرية ، ويطقطقون بالمسابح ، بينما تضرب بلادهم بالمدافع ، وتطأ هاماتهم حوافر الكافرين ، ويحسبون أنهم عبدوا الله فأحسنوا العبادة ، وأدوا رسالة الاسلام كما جاء بها رسوله ، وآن لهم أن يظفروا بملك الدنيا وبالحور العين يوم القيامة .

لم يبق من الإسلام إلا العبث بالحصى ، وأحلام اليقظة ، ثم لصوق بالأرض ، ولصوق بالتراب ، وأن يتمنى الكسالى الأذلة ، على الله الأمانى.

إن الاسلام ليس دين الكسالى الأذلاء ، ولا دين المسبحين بالحصى ، الذين يحلمون بحور النساء ، ولا دين العجزة الذين لا يدفعون ظلما ، ولا يحمون راية ، ولا يزجون خيلا فى سبيل الله .

ان الاسلام أخلاق ، ومثاليات ، وعبادات ، ونظم ، ومبادىء وتشريعات ، ولكنه من قبل هذا وذاك قوة ذات بأس وصولة ، قوة تعلو بها كلمة الله ، وتصان بها الأخلاق والعبادات ، وتعيش تحت ظلالها الأنظمة والتشريعات ، قوة إذا زالت زالت العبادات ، وضاعت الأخلاقيات ، واختفت التشريعات . وعلت كلمة الجاهلية ... وصلوات الله على رسولنا العظيم الذى هتف فى وجه الدنيا : « أنا نبى الرحمة ... أنا نبى الملحمة ... أنا الضحوك القتال » .

إنه صلوات الله عليه لنبى الرحمة بكل ما فى الرحمة من مثاليات ، ولكنه إذا جد الجد ، أو خدش الحق فهو نبى الملحمة حتى تعلو كلمة الايمان .

إنه الضحوك العطوف ، السمح الكريم ، الرحيم ، حتى إذا أوقد الظلم ناره ، أو اعتدى المعتدون على حدوده ، فهو القتال شديد البأس ، يقـــول « على » رضوان الله عليه : « كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس واحمرت الحدق ، لذنا برسول الله ، فما يكون منا أحد أقرب إلى العدو منه » .

وصلوات الله على الصادق الأمين إذ يقول :

« بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبد الله لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى » .

روى أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى سننه عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق تداعى الأكلة على قصعتها . فقال قائل : أو من قلة يومئذ يا رسول الله ؟ ... قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ... ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ . قال : حب الدنيا وكراهة الموت »

الأمم من أقطارها من كل أفق تتداعى على المسلمين بالأنيـاب والمخالب ، مفترسين نهمين إلى المأدبة الذليلة ، إلى الطعام الدسم الهين ، وما هذا الطعام السائغ اللين إلا لحومنا وبلادنا .

صورة صادقة كاملة ، للتحالف العالمى ضد الاسلام ، التحالف العالمى الذى مزق حريتنا واستعبد بلادنا ، وتألب على قضايانا فى مجامع الشعوب ومجالس الأمم .

صورة فيها بلاغة النبوة ، وفيها صدق المرسلين .

وعجب المسلمون الأولون أولو البأس والعزة من أن يذل المسلمون ولو أطبقت عليهم الأمم من أقطارها ! ! فقال قائل : أمن قلة يصاب المسلمون يا رسول الله . قال الصادق الأمين : إن المسلمين يومئذ كثير ، ولكنها كثرة كغثاء السيل . صورة رسمها نبى ، بل أكبر الأنبياء ، صورة أربعمائة مليون مسلم يموجون من المحيط إلى المحيط ، لا يغلبون من قلة ، ولكنهم غثاء كغثاء السيل .

ولك أن تتصور الغثاء ، تلك الرغوة الهينة التافهة السابحة على وجه الماء ، والموج يضربها والرياح تمزقها ، لا تتماسك ولا تقاوم ، لأنها أذل من أن تكون شيئا يتماسك أو يتطلع إلى كفاح .

ثم توضع الألوان والظلال على الصورة المهينة ، ولينزعن الله من صدور عدونا المهابة منا ، ويقذف فى قلوبنا الوهن .

قال قائل من المسلمين الذين لا يعرفون الوهن ، لأنه ليس من لغتهم : وما الوهن يا رسول الله ؟ ... قال : حب الدنيا وكراهة الموت .

بكلمة واحدة حسم الرسول الموقف كله . كراهة الموت وحب الدنيا ، ذلك هو الفيصل بين ماضينا وحاضرنا ، وذلك هو الحكم فى موازين الضعف والقوة .

إننا اليوم المواد الخام أرضا وأناسا ، يشكلها السيد الذى يملكها كما يشاء ، ويسخرها كما يحب ، ويعدها لتكون وقودا لنار حربه ، وسلاحا فى وجه خصمه .

إنها لصورة ذليلة ، ولكن هذه الصورة لا ترسلنا إلى اليأس وإنما تدفعنا إلى العمل على الصراط المستقيم ، لقد رسمت الداء والدواء ، وبينت مسببات الضعف ، وملهمات القوة . واليأس من النصر ليس مـــن روح ديننا . إنه ضد كتابنا وضد ديننا ، فانه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، والله جل جلاله قد أعطانا وعدا ربانيا صادقا :

« إن تنصروا الله ينصركم » « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إننا لا نزال نملك وحدنا الاسلام ، ولا يزال كتاب الله بيننا ، ولا تزال سنة رسول الله ميراثنا ، وهذا وحده يجعلنا قوة عالمية ترتجى .

إن بيننا وبين النصر خطوة واحدة ... بيننا وبين العزة والقوة أن نمسك بكتاب الله ، وأن نعيد التحالف معه ، وأن نعود مسلمين من جديد .

يومئذ تتكرر المعجزة التى أرسلت نصف مليون عربى كانوا هم كل سكان الجزيرة العربية فى عهد الرسالة ، أرسلتهم فإذا بهم يرسمون بسيوفهم حدود الأرض وينيرون بكتابهم آفاق الحياة .

ان الاسلام هو السلاح السحرى السرى ، السلاح الذى تفوق طاقاته كل أسلحة الهول التى أعدتها الجاهلية ، إنه لقوة اذا تفجرت فى القلوب لا تصد دفعاتها قوة فى الأرض .

يقول أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حينما سئل عن معجزة الفتح الكبرى :

« ما انتصرنا بعدد ولا عدة ، وإنما بشىء وقر فى الصدور من هذا الدين »

إننا غثاء كغثاء السيل بدون عقيدة ، ولكننا بعقيدتنا أصلب القوى العالمية . إننا كالمصباح الذى انطفأ نوره فجأة ، والمصباح عامر بالزيت ينتظر النار التى تشعله ليغدو نورا وهاجا .

لقد ضرب علينا بالوهن : لأننا أحببنا الدنيا وكرهنا الموت . وضرب علينا بالذل لأننا عبثنا بالحصى وحلمنا بالحور العين ، وكتب علينا التأخر ، لأننا زعمنا الاسلام وأهملنا كتاب الله .

إننا نستطيع بضربة واحدة أن ندير محركات قوانا من جديد ، فبلادنا الاسلامية هى محور الأرض وقلب العالم ، ومواردنا هى التى تدير عجلات الحضارة ، وديننا - من وجهتيه الروحية والمادية - لا يزال - بالرغم من العقبات الهائلة التى خلفها تأخر المسلمين - أعظم قوة نهاضة عرفها البشر .

على هذا النور الاسلامى ترانا أوربا ، وتتنبأ بأننا خلفاء حضارتها ، وورثة قوتها .

٥

المسلمون على مفترق الطرق

منذ أربعة عشر قرنا وقف يهودى من علماء التوراة الربانيين على أحد آطام يثرب يرقب السماء ويرصد الآفاق ، منتظرا حدثا كونيا وعلامة بين الكواكب ، هى الفيصل بين الجاهلية وأيام الله .

وفى ذات مساء أخذ يصيح : طلع الليلة نجم أحمد ...نجم التوحيد ... نجم الخير والهدى للعالمين .

لقد كان الإسلام ممثلا فى رسوله نجما تترقبه الدنيا ، وتتطلع إليه البقية المؤمنة ، ومن جديد تتطلع الدنيا ، ويرقب المؤمنون نجم أحمد ... نجم الإسلام ... وسيعود النجم بإذن الله وأمره لينقذ الانسانية من الجاهلية القائمة كما أنقذها منذ أربعة عشر قرنا من الجاهلية الذاهبة .

وواجب كل مسلم أن يسهم فى تمزيق الحجب التى تخنق النجم وتحجبه عن الأبصار وتعوقه عن الاشراق ، وفريضة على كل مفكر فى أى بقعة من بقاع العالم الاسلامى أن يدخل المعركة فورا بكل قواه ضد الظلام ، وفى سبيل النور .

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى » .

فكل مسلم هو رسول إلى قومه ، وكل مؤمن هو خليفة لنبيه ، وكتاب الله بيننا هو شريعتنا ومحجتنا وهدانا ، وهو امام كل نهضاتنا .

روى الترمذى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ ... قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم » .

والنهضات اليوم لا ترتجل، وإنما تبنى لبنة بأيدى الصناع المهرة المدربين ، وتعد خطوطها العريضة فى رؤوس المفكرين ، وقلوب المؤمنين ، وعقول المشرعين ، وتنسج دروعها فى معامل العلماء وصحف الاجتماعيين وأندية الاقتصاديين .

ان النهضة الاسلامية يجب أن تخرج من نطاق الكلمات الجوفاء ، والصرخات الرعناء ، والعصبيات الحمقاء ، والدعوات المرتجلة ، والحماسات الجاهلة ، إلى ساحات التنظيم والاعداد والتنسيق الكامل والكفاءة العلمية والخبرة الفنية .

يجب أن تمسك بزمام العلم المؤمن ، والوعى اليقظ المتطور ، والخلق الرفيع الواقعى ، والقلب الخاشع الحى ، والحزم المتوثب المحدد ، والفداء الحكيم الصاعد إلى الله بغاياته وأهدافه ، حتى لا تنحرف أو تضل أو تتفرق بها السبل .

يجب أن ترتكز على بعث عقلى جديد ، يقوم على اكتشاف الاسلام من جديد بكل ما فيه من امكانيات وقوى وصلاحيات عالمية ، وأن يستضاء فى كل هذا بالمصدرين الأساسيين للاسلام : كتاب الله وسنة رسوله . كما توضع فى الميزان مناهج الحضارة الاسلامية فى عصورها الايمانية ، وما رسمته للمجتمعات البشرية . من نظم وتشريعات . وما حققته لأبنائها في ميادين العدالة الاجتماعية والقوة الاقتصادية ، والعظمة العلمية والكفاءة الحربية ، والمثاليات الأدبية والخلقية .

وأن تساهم الأقلام العالمية المستنيرة فى هذا البعث وتسانده بالدراسات المتلاحقة التى تعنى أول ما تعنى بتقديم دستور اسلامى ، أساسه الشورى والحرية والمساواة والعدالة الاسلامية الشامخة ، وتشريع قانونى من الأفق الاسلامى يمشى على قدميه حيا تشاهده الأعين وترى فيه جوابا واقناعا وعلاجا لكل ما تضطرب فيه من شئون حياتها ، وتعرض أنظمة اقتصادية اسلامية مدروسة محررة محددة ، تسامق الأنظمة الاقتصادية الدولية ، وتكفل اقامة مجتمع اسلامى عالمى على دعامات اقتصادية متفوقة ، أنظمة اقتصادية يقرها الوضع الحضارى ، ويقبلها المنطق الاقتصادى ، ويرضى عنها الايمان الاسلامى .

كما تعنى برسالة الاسلام الاجتماعية ، ونظمه التعليمية وموقفه من التشريعات العمالية والمجتمعات المهنية ، وما فرض من قداسات للحريات والعقائد وما قدم من حلول حاسمة لكل ما تحتاج اليه حياتنا المتشابكة ، وما يلابسنا من تيارات عالمية ، وما يحيط بنا من مشاكل دولية .

كما يجب أن نحدد موقفنا من هذه الحضارة المادية المنحلة ، وذات البريق العلمى الباهر والروح الجاهلى الملحد الفاجر .

هذه الحضارة التى تضاد الاسلام ، روحا وتقنينا ، وتخالفه صراحة فيما يتناول من شئون الحكم ، وفيما يرسم للمجتمعات من عادات وأخلاق ومثاليات .

والاسلام بناء كامل له أفقه الحضارى ، وله جهازه الثقافى ، وقانونه التشريعى ، ومجتمعاته التى تقوم على الاخلاق ، ومدارسه التى ترتكز على الروح والآداب . ومثالياته التى تبنى عليها الحياة ، وتصعيده لكل عمل من أعمال الدنيا الى الله .

وهو أعز من أن يفنى فى غيره ، وأكبر من أن يذوب فى ثقافة تجاوره ، ولقد أنزله الله دينا سيدا مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، وجعل من كل مؤمن به إماما للناس ، يقود مواكبهم للحق ، ويأخذ بأيديهم إلى كلمات الله .

إنه دين ورث النبوات والرسالات كافة ، وارتضاه الله أفقا لجامعة الرسل ، وعنوانا لكل كتاب مقدس ، فأى تنازل منه في ميادينه التشريعية والخلقية والتعبدية هو اهدار لكل الأديان ، وتفريط فى أمانة الله ، ومساندة للجاهلية .

ولكنه أيضا لا يعرف الجمود والتزمت والانفصال داخل الأسوار ، انه لدين يمشي بالحياة ولا يقف ، ويمتد مع الناس الى الخير ولا ينكص .

إنه رسالة للدنيا كما هو رسالة للأخرى ، رسالة للعلم والقوة وكل ما يعنيه على أن يكون القوة الأولى .

وعلى هذا الضوء نحدد موقفنا من الحضارة القائمة نأخذ منها مسببات القوة والبأس الشديد والعلم العريض ، ونعرض عن تحللها وعداوتها وجاهليتها الشهوانية الملحدة .

ان من مقومات نهضتنا أن ننتفع بالمعارف العالمية التى كسبها الانسان فى تطوره التاريخى ، وأن نضم الى قوتنا الذاتية تلك القوة التى تعمل فى حقل الحضارات المعاصرة ، وأن نقتبس من نظمها كل نافع لنا وكل معين على نهضتنا .

علينا أن ننتفع ببرامجها فى الاعداد والتنظيم والانتاج ، وأساليبها فى الدرس والتحصيل والابتكار ، وأن نأخذ من قوانينها العامة المنتقاة كل ما لايتعارض مع روح الاسلام .

كما يجب أن ندرك أننا فى عصر صناعي جبار ، ولا حياة لأمة لا تبنى نهضتها على بأس الحديد وطاقات المعادن ، وتفجرات خواصها ، ولا وجود لشعب ينطوى على نفسه داخل القماقم .

اننا لا نتشبه بأوربا ، ولا نذوب فى حضارتها ، ولكننا لا نجحد صولة ما وصلت اليه من قوى ، ولا عظمة ما ابتكرت من معارف ، ولا اشراق ما نظمت من فنون وبرامج .

وعلينا أيضا أن نحدد موقفنا ونحن نتناول الاسلام من جديد ، موقفنا مما ابتلى به الاسلام من طوائف ونحل ومذاهب مزقت وحدته وطمست أنواره وبددت قوته وطاقاته .

وما ابتلى به المسلمون ، من انحراف وضلال فى فهم الرسالة العامة للاسلام والروح الشاملة لعقيدته .

اننا بعث جديد للاسلام من جديد ؛ بكل ما فيه من تطور وتحرر ؛ وبكل ما اشتملت عليه آفاقه وانطوت عليه أجنحته .

اننا لا نعرف الاسلام مذاهب سياسية أو كلامية ، كما حاول الخوارج أو المعتزلة ، ولا نعرف الاسلام جدلا فقهيا ، وحوارا فلسفيا وعزلة صوفية ، ولا نعرفه ممزقا بين مبتدعة وسلفية .

اننا نؤمن بالاسلام القرآنى ، الاسلام ذى الأفق الشامل العام الحى المتطور ، الأفق الذى يسع التصوف ، كما يسع الفقه ، ويحتضن السياسة ، كما يتبنى الاقتصاد ، ويرضى عن المادة ، رضاءه عن الروح .

ان من أسرار ضعف النهضات الاسلامية التاريخية ، انها كلها جاءت حركات جانبية تتناول جزءا من الاسلام ، وتهمل أجزاء وتقبع فى زاوية حادة تدبر وجودها الايمانى بأسره حولها ، معرضة عن الزوايا الأخرى ؛ بل ومحاربة لها ، ومبددة لكل قواها في سبيل هذه الحرب الطائشة .

لقد شاهد المسلمون عبر التاريخ ، دعاة للإصلاح ، ونهضات للكفاح ، وصيحات للايمان ، ولكنها فشلت جميعها ، ورأينا مصرعها ، لأنها لم تكن متماسكة القوى ، متوازنة التفكير ينقصها الشمول الهادف .

كان منها الحركة السياسية التى تنادى بالسياسة وتهمل العبادات ، وكانت فيها الصيحة الدينية التى تجمد على التقوى ، ولا تعترف بالاقتصاد ، وكان بعضها روحانيا ، ينادى بالروحانية الاسلامية ، ويتنكر لما سواها ، وبعضها عقليا ، يحيل الاسلام فلسفة للحوار والجدل ، ويحيل العقيدة الى متشابهات وتفريعات .

هكذا فعل ابن تيمية ، الذى حصر كل دعوته الاصلاحية الانبعاثية فى الهجوم على زيارة القبور والتوسل بالصالحين ، وشفاعة الرسول ومشاهد أهل البيت وشطحات الصوفية .

ومن بعده جمال الدين الأفغانى ومدرسته ، وأحمد خان وعصبته ، ومحمد إقبال وأنصاره ، لقد جعلوا الاسلام سياسة فحسب ، وأهملوه اجتماعا واقتصادا وتشريعا وعدالة اجتماعية ، وحرية مثالية .

ومن قبلهم ومن بعدهم ، وعلى اليمين وعلى الشمال طوائف متلاحقة متعاقبة من المتصوفة ، صبوا قواهم الفارغة ، ووجهوا جماهيرهم الضخمة إلى تيار واحد ، وهو تيار الروحية ، ولم يرفعوا أعلامهم فى غير ميادينها ، ولم يدفعوا جماهيرهم إلى غير ساحاتها .

ان هؤلاء وهؤلاء وأضرابهم ، وأشباههم لم يقوموا بشريعة الله ولم يفقهوا كتابه ولم يستنيروا بسيرة رسوله ولم يتبينوا رسالة الاسلام وأهدافه .

فالاسلام ليس تصوفا ولا سياسة ولا اقتصادا ولا اجتماعا ، ولا عبادة فحسب ، انه كل هؤلاء جميعا ، ومن سائر هذه الفروع تتكون القاعدة الكبرى وينبثق الأفق الأعلى .

ان معجزة الاسلام - وهى معجزة المعجزات - أنه أفق عالمى يمشى مع الفطرة الانسانية للناس كافة ، ورسالة عامة ارتفعت على الزمان والمكان لتكون كفاء لحاجيات الانسان أيا كان هذا الانسان زمانا ومكانا .

أفق رحب وسع النفس البشرية بكل ما ركب فى هذه النفس من قوى .. ووسع القلب الانسانى بكل ما يحتوى عليه ويتطلع اليه . واتسع للعقول على اختلاف مواهبها ومداركها ونظرتها الى الحياة وتناولها لشئونها .

ورسالة عالمية تسوس الناس جميعا وتفصل فى قضاياهم وتبنى حياتهم وتهديهم الى خير السبل فى التشريع والتقنين ، وأكمل السياسات فى الحكم والتنظيم ، وأعلى المثاليات فى الأخلاق والاجتماع ، وأسمى المبادىء فى الاقتصاد والآداب ، ولا ينهض الاسلام الا مرتكزا على هذه الأنظمة كافة ولا يشب الا بقوى المسلمين عامة .

واننا إذ ننادى بعودة التشريع والسياسة والاقتصاد الى الأفق الاسلامى ، فانما نطالب بأن يستكمل هذا الأفق مقومات وجوده .ودعائم سموقه وأن ينبثق من هذا الالتقاء الروح الاسلامى الذى يطبع الحياة بطابعه فيعرف المسلم بسيماه . وتقرأ فى وجهه كلمات الله .

هذا الروح الذى نريده حيا مهيمنا فى التربية ، والتعليم والمعاملات ، كما نطالب به أخلاقا فى بيوتنا ، وايمانا فى تفكيرنا ، ونهجا فى واقع حياتنا وخطا عريضا فى مثلنا .

فإذا تكون لدينا هذا الروح ، واستند الى العقيدة الكاملة ، وأمده مجتمع صالح قوى متطور مسلح بوعى صناعى يمشى جنبا الى جنب مع الفتوحات العالمية الصناعية .

اذا اجتمع للمسلمين روح دينهم ، وشرائع قرآنهم ، وأخلاق نبيهم مع ثقافة العلم التجريبى ، وحضارة المصنع الأوربى ، أصبح للمسلمين ما لأوربا من صناعة الحديد وبأسه ، وخواص المعادن وقواها ، وأصبح لديهم ما ليس

لأوربا من عدالات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وروح ايمانى متصل بفاطر السموات والأرض ، وطاقات روحية ، تكبح عنان الشهوات ، وتعصم من النزوات ، وتطفىء هذا اللهيب المستعر بالحقد والخصومات .

وأنا أعلم أننا لا نملك تعويذة سحرية نطلقها فتعود الحياة الاسلامية فجأة الى مجتمعنا ، ولا نهيمن على طلسم خفى نرسله فاذا بالقوانين الاسلامية والشرائع القرآنية قائمة بيننا .

ولا أقول : اننا بأوضاعنا الحاضرة أصبحنا مهيئين لعودة هذه الحياة فجأة لتحملنا على أجنحتها البيضاء الى قمة الحياة البشرية .

لست أزعم هذا ولا ذاك ، وانما أنادى بضرورة العمل السريع لوضعنا فى مرحلة انتقال تعدنا للحياة الاسلامية الجديدة .

وعلينا أن نعد من الآن الرجال الذين يحملون أعباء التنفيذ لشرائعنا الجديدة . نعد المواطن الصالح ، والصانع المؤمن ، والموظف الأمين ، والعامل الفنى ، والحاكم التقى المقتدر ، والقاضى الفاقه لروح الاسلام ، وبجوار كل هذا : الدراسات العامة التى تضع بين أيدينا الأنظمة الكاملة لكل ما ننادى به وندعو اليه .

اننا اليوم على مفترق الطرق ... فإما أن نصل سريعا الى ربط وجودنا بعقيدتنا : شريعة واقتصادا وحكما وعبادة وأخلاقا ، فنصبح قوة عالمية لها حضارتها ورسالتها وبأسها القوى الغلاب المؤثر فى الحياة .

وإما أن نبقى القطيعة بيننا وبين الله ، وبيننا وبين الايمان ، وبيننا وبين كتابنا المقدس . ويومئذ ليس لنا من الحياة الا المكان الذليل فى المؤخرة من الركب العالمى ، وفى الذيل من هذه الحضارة ... حضارة الجاهلية الشهوانية الملحدة .

« وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به ... » .

٦

دولة القرآن

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ...)

هذه الآية الكبرى من سورة النور ، هى أفق الاسلام الأعلى ، وهى تاريخ المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم وغدهم ، وشرعة الله بيننا ، وحجته علينا الى قيام الساعة .

وهى الميثاق الأعظم ، والعهد القدسى ، الذى ارتضاه سبحانه ، ليكون الميزان القسط بينه جل جلاله وبين تلك الأمة التى اصطفاها لتكون « خير أمة أخرجت للناس » وزكاها وطهرها لدينه ، وأكمل عليها نعمته وأسبغ عليها عطاياه ظاهرة وباطنة .

فإن وفت بالميثاق ، وحفظت العهد ، وقامت بالايمان ، واستضاءت بشريعة الله ، وحكمت بكلماته واستظلت بقرآنه ونفذت حدوده وحملت راياته ، وعبدته عبادة لا شرك فيها : من هوى مطاع ونفاق ورياء ، ومن جبابرة وطغاة وأصنام الشهوات وآلهة الرغبات ، منحها جل جلاله تأييده القوى المنتصر ، وأسلمها زمام الأرض ، واستخلفها فى ملكه وعباده ، وأفاض عليها من أمنه وسلامه ، ومكن لها دينها مهيمنا سيدا .

فان جحدت وبدلت كلمات الله ونبذت شرائعه ، وأهدرت أحكامه وتعدت حدوده ، ورفعت لواء الجاهلية ، وأشركت فى عبادته هواها وشهواتها ، وما تخشى مما يدب على الأرض ، وما ترجوه ممن له سطوات وبأس ، ألبسها لباس الذل وأطلق عليها عواصف الرعب ، وتركها بين مخالب

نصعد الى الأفق الذى بزغت فى سماواته : أفق سورة النور ... سورة التشريع والتقنين وأحكام الله وصيحة الجهاد فى سبيله .

نزلت هذه الآية الكريمة والآيات التى سبقتها لتكشف الستار عن أدعياء الايمان الذين تقنعوا بالصلاة والصيام . وقالوا آمنا بالله ورسوله ، ثم وقفوا موقفا عجبا من التشريع الاسلامى . قد قسموا هذا التشريع المحكم إلى قسمين : فإن كانت الأحكام فى صالحهم تنادوا بها ، وإن كانت عليهم أعرضوا وابتعدوا ودندنوا بأنها قاسية مجحفة لا طاقة لهم بها ولا جلد لهم عليها .

ووقفوا من الجهاد موقفا مريضا رخوا ، فقد تخلوا عنه وتهربوا منه ولصقوا بالارض وأخلدوا اليها ، ثم اعتذروا عذر المنافقين : « لو دعانا الرسول لخرجنا » .

وصفعهم القرآن العظيم صفعات دوت فى التاريخ ، ولا تزال تدوى منذرة كل من أعرض عن شريعة الله وأحكامه وحدوده وجهاد فى سبيل الله .

واليك آيات النور من سورة النور :

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض ؟ ... أم ارتابوا ؟ ... أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ ... بل أولئك هم الظالمون * إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون * وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن ، قل لا تقسموا ، طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون * قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين * وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ... » الخ .

هذه هى مقدمات هذه الآية العظيمة ، وهذا هو جوها وظلالها ، وعلى هذا الضوء نفهم الايمان الذى يريده الله ، ونفهم العمل الصالح ، ونلمس

عبادة الله التى لا شرك فيها ، العبادة التى تهيىء المسلم لخلافة الارض وسيادة الحياة ... العبادة التى تقيم مع الله عهدا وميثاقا للنصر .

الذين يقولون : آمنا بالله وبرسوله ، ويكتفون من هذا الايمان بالعبادات ، فإذا دعوا الله ورسوله ليحكم بينهم تولوا وأعرضوا ، فما أولئك بالمؤمنين ، إن فى قلوبهم لمرضا وارتيابا وخوفا من أن يظلمهم الله ورسوله ، أى تظلمهم شرائع الله وحدوده ، فأولئك هم الظالمون .

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وأولئك المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون » .

ومن هنا تتحدد معانى التقوى : ان من يتق الله ويخشه ، هو من ينفذ شرائع الله ولا يرتاب فى عدالتها ، ولا يرهبها خوف الجور والشدة . هو من يسمع ويطيع فى ايمان وثقة ، إذا دعى الى الحكم الاسلامى والحدود الاسلامية والنظم القرآنية التى هى عدالة الله فى أرضه وحق العباد فى دينه وهديه .

المنافقون المرتابون ينتحلون الأعذار أبدا ، ان فى قلوبهم لمرضا ، وفى أعصابهم لوهنا ورهقا ، وفى أفئدتهم لرعبا وجزعا ، ومع هذا يقسمون كاذبين لو أمرهم رسول الله بالخروج للجهاد لخرجوا ؟ ... قل لا تقسموا : طاعة معروفة .

طاعة معروفة ، تعبير قرآنى موجز معجز . طاعة ذليلة جبانة لا تحتمل جهادا ولا تطيق كفاحا ، وطاعة رخوة هينة تقواها زائفة عاجزة ، لا تكلف صاحبها الا ركعات فى صلاة ، وامساكا عن طعام فى صوم ، ولا تريق له دما فى جهاد ، ولا تعرضه لحد من حدود الله . يقوم بواجباته كما يقوم بنصرته .

أرأيت هذا الايمان ... انه الايمان الهش الذى لا ينتصر . وإنه التقوى المغرضة التى لا تعبد الله عبادة خالصة ، وانما تخشى معه العباد والشهوات فهى شرك صراح .

تقوى تهرب من الأفق الأعلى فلا ترضى بحكم الله وشرائعه خشية أن تحيف تلك الشرائع ، أو تقسو أو تتطلب جهادا وكفاحا .

هؤلاء الاتقياء المزيفون .. أدعياء لقطاء ... لا ينتسبون إلى الاسلام ... عليهم ما حملوا من أوزار ... ليسوا من الله ولا من رسوله ولا من المؤمنين فى شيء ، وليس لهم من وعد الله بالنصر نصيب .

إن المؤمنين حقا الذين بذل لهم ربهم وعدا وعهدا ، علامتهم وسيمتهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا : سمعنا وأطعنا ، وإذا دعوا إلى الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، نفروا مسرعين فرحين .

هؤلاء هم الأتقياء البررة ، عبدوا الله على المنشط والمكره ، على المهين والقوى . اتقوه فى شرائعه وعبدوه فى حدوده وأطاعوه فى فرائضه وسننه ، أولئك لهم الخلافة فى الأرض والأمن والسلام ، والدين الذى ارتضى متحكم سيد مهيمن .

وعد الله قائم للمؤمنين الذين يقيمون حدود الله وينفذون شرائعه ، ويقومون بالجهاد ويعبدون الله لا يشركون معه عبدا من عباده أو هوى من أهواء الشهوات والنزوات .

هذا هو التفصيل . ان عدنا إلى حقائق هذه الآية أشرق علينا وعد الله بالنصر والتمكين والخلافة ، والطريق واضح والايمان معروف ، وكتاب الله هو المحجة البيضاء والنور الهادى الى سواء السبيل .

« لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » .

ان كتاب الله ليناديا أن نخرج من الظلمات ، وأن نقبل علي النور ، وأن نرتضى رضوان الله فى شريعته وحدوده وأنظمته ، لأنها وحدها التى تهدينا سبل السلام ، وتقيم حياتنا على الصراط المستقيم ، ولأنها وحدها هى العبادة التي لا تشرك مع الله أحدا ، انها الطاعة العالية والجهاد الأكبر ، الذى يستنزل وعد الله من فوق سبع سموات بالنصر لنا والتمكين لديننا .

ان أعجب العجب فى حياة العالم الاسلامى ، لهو هذا الإعراض الأعمى عن كتاب الله وشرائعه وحدوده ونوره ، واستبدال الأدنى بالذى هو خير ، وتتبعه لخطوات الشياطين ، وانغماره فى ظلمات الجاهلين .

هل نسى المسلمون قرآنهم ؟ ... هل جهلوه ؟ ! ... هل اختفى من أفقهم ؟ ... هل أبهمت كلماته وغامت لحونه ؟ ...

ان آى القرآن اليوم لتحملها الأجنحة الكهربائية إلى كل بقعة فى الكوكب الأرضى ، وتدخل بها على الناس بيوتهم وأنديتهم ، وتتسلل مع الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، إلى مخادعهم وفرشهم ، تقرع آذانهم أينما كانوا ، وتصافح وجوههم حيثما اتجهوا وصاروا .

وما استمع المسلمون الى قرآنهم ، وما جودوا ألفاظه ، ورققوا ألحانه وأوقفوا علي حفظه الهبات والخيرات كما يفعلون فى حاضرهم .

وبيننا بعد ذلك مآذن عالية تردد صيحة الاسلام ، ومعاهد شامخة البنيان تتخصص فى الايمان ، ومساجد يخطئها الحصر تدوى بذكر الرحمن .

ومع هذا فما جهل المسلمون الأولون قرآنهم كما جهله مسلمو اليوم وهم فى غمار هذا الدوى ، وما نبذوا دينهم كما ينبذ الآن ويقهر ، وما أهملت شرائعه كما تهدر الآن و تهمل .

كأنما القرآن رسالة لغيرنا ، كأنما الاسلام دين لسوانا ، وكأنما هذا النور المبين طلاسم وأحاجى ومبهمات لا نفقه لها لحنا ولا نستبين منها هدى .

وإلا هل يعقل أن يستمع المسلمون إلى كلمات الله مصبح اليوم وممساه وعصره وضحاه ، مبينة مضيئة هاتفة بأحكامه وشرائعه وسننه وآدابه ورسالاته فلا تحرك قلوبهم ، ولا تثير أحاسيسهم ، ولا تقوي إيمانهم ، بل لا تدفعهم إلى الانتفاضة الهائلة والعودة السريعة إلى سبل السلام التى تخرجهم من الظلمات إلى النور وتهديهم صراطا مستقيما ؟ !

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

وأى غفلة أكبر من أن نمزق هذا النور الالهى ، ونحطم هذا الصراط الرباني . ونعرض عن وعد الله وميثاقه وعهده لنا ، ونجعل من أنفسنا حكما على كلماته وشرائعه ، نأخذ منها ما يوافق هوانا وننبذ ما يثقل على شهواتنا وعزائمنا .

لقد قنعنا من الاسلام العظيم بتسبيحات وصلوات وعبادات لا روح فيها ولا حياة ، أما حكم الله فى سياسة الدولة وشرائعها ، وحدوده وفرائضه وما أضاء فى سنن الاجتماع ونظم الاقتصاد ومثاليات الاخلاق ، وما قرر من

حقوق وواجبات للفرد والمجتمع والدولة والحياة ، فشيء في القرآن ذكره ، وليس على المسلم اليوم حكمه ! !

انها لطاعة معروفة ، طاعة من وصفهم القرآن بالخزى فى الحياة الدنيا والعذاب فى الآخرة .

« ... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ! ... فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ... » .

لم يعد المسلمون اليوم يرجون لله وقارا ، ولا يخشون له عذابا ، ولا يقيمون لكتابه ميزانا ، فقد أضلهم الشيطان ولقنهم فلسفة عجبا تسمعها فى لحونهم خسيسة ذليلة كافرة .

ففريق منهم يؤمنون بقرآنهم عقيدة ربانية للعبادة والتشريع والحكم ، فاذا ناداهم القرآن بالوفاء بهذا الايمان قامت فلسفة الشيطان تريق حولهم السحر وتضرب على أعينهم بالوهم وعلى آذانهم بالوقر ، وعلى عقولهم بالباطل .

انهم لفى حرج من أمرهم ، وفى ضعف من أنفسهم ، وفى ضيق من عجزهم ، وفى ذلة أمام بأس خصومهم ، ولا طاقة لهم بأن يلقوا بأيديهم الى التهلكة ، وان كل فرد منهم ليسعه ما يسع الناس من صمت واستكانة . ثم حسبهم بعد ذلك – أفرادا وجماعات وشعوبا – حسبهم من قرآنهم ، وحسبهم من ايمانهم ، وحسبهم من عقيدتهم ، صيام أيام معدودات وصلوات وتسبيحات ، ومواكب لها طبول وزمور تزجى الى عرفات .

انها لطاعة معروفة ، لا تحمل بأسا ولا تتكلف جهدا ولا تعين على حق ولا تنصر كلمات الله . وإنها لتعبدات لا تغنى عنهم من الحق شيئا ، ولا تزيل عن كواهلهم حكم الاسلام عليهم :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ؛ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ؛ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ... »

وفريق ثان مثقف متحضر متحرر ، يمرق من أحكام الله ومن شرائعه مروق السهم ، وحجته وآيته تعللات بالحضارة القائمة وتصوراتها وآدابها

ونظمها وما يسرت للناس من أرزاق وما أقامت لهم من فنون وما أبدعت من مؤسسات واقتصاديات ونظم وتشريعات تضيق بالاسلام ويضيق الاسلام بها ولا سبيل لحياتهما معا كما زعموا .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

وفريق ثالث جهل الاسلام وامتلأت رأسه بالنظريات الأوربية التى فصلت دولتها عن دينها ، فهم لا يتصورون أبدا دينا سماويا حاكما أو مشرعا أو منظما للحياة وموجها لمواكبها .

وهم يتخيلون أن معنى الدولة الاسلامية ، أن تثب الذقون واللحى ، ويثب المتزمتون والمتعصبون إلى مناصب الدولة ومقاعد الحكم ، فيحيلوا الدنيا الى جاهلية بدائية تنطفىء فيها مصابيح الحضارة الباسمة المشرقة الفاتحة المنتصرة .

ثم تتطور هذه الدولة الى خلافة مقدسة وحاكم هو ظل الله على الأرض ، ومن ثم ، تسل السيوف المجاهدة لتغزو العالم ، وتغرقه فى الدماء

ومعنى سيادة التشريع الاسلامى - فى أذهانهم - أن تمتلىء الطرقات بالأيدى المقطوعة ، والأجسام المرجومة ، والمشانق المنصوبة ، حتى أن بعضهم فى حوار معى فى صحيفة سيارة قال بالنص :

« ان الاسلام انبثق فى مجتمع وثنى بدائى ظالم ، فلم يكن معقولا أن يكلف الذين اعتنقوا الدعوة الناشئة أن يخضعوا لجاهلية هذا المجتمع أو يخنعوا لعدوانه ، ومن ثم وجب أن يكون لهم تشريع ينظم أحوالهم ، وأن يؤذن لهم برد العدوان ، ولم يكن معقولا أن يطفر التشريع عن ظروف ذلك المجتمع طفرة شاسعة بحيث يمكن أن يصلح لعصرنا الحاضر»(1) .

يقول هذا القول مسلمون فى صحيفة اسلامية تصدر فى أمة اسلامية . حاكمين على الاسلام بأنه دين جاء تشريعه لغاية واحدة ، هى أن لا يخضع الإسلام الناشىء لحكم الجاهلية التى جاء بها أهلها ، وأن يحمى أتباعه من الأجواء التى تحيط بهم .

---

١ - من مقال فى الجمهور المصرى الصادر بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٥٢ بتوقيع الأساتذة : أحمد قاسم جودة ، ومحمد زكى سويدان ، ولويس دوس ، يهاجمون فيه دعوتى الى سيادة التشريع الإسلامى . ...

وهذا التشريع الذى جاء به الاسلام تشريع يلائم البيئة البدائية ولا يسمو عن مقتضياتها ؛ بل ليس فى طاقته أن يسمو ليكون صالحا لبيئات أرقى وحضارات أعظم من تلك البيئة البدائية الجاهلة ، أو بمعنى أوضح : أن الاسلام لا يصلح ولا يليق بعصرنا وحضارتنا نحن أبناء القرن العشرين .

ولماذا لا يسمو هذا السمو الذى يؤهله للحياة بجوار الحضارة الأوربية ؟ لأنه لم يبح الزنا ، وحرم الخمر والربا ، وقطع يد السارق ؛ وهم لهذا لا يريدون بالتشريع الأوربى الراقى الحضارى بديلا .

« ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ؟ » .

وفريق رابع يزعم أن المسلمين - كأمم وشعوب - فى مرحلة ضعف ووهن وفقدان للعزة والسطوة ، وأنهم لهذا لا يستطيعون أن يتحرروا فى قوانينهم وشرائعهم بحكم صلاتهم بالعالم القوى الذى لن يسمح لهم بحرياتهم التشريعية ، ولقد لقنهم الشيطان شبهة عجيبة ؛ إذ أوحى اليهم أنهم اليوم أشبه بمسلمى مكة ، يتخطفهم الناس وتحيط بهم العداوات ،والمسلمون فى مكة لم تكن لهم شرائع حاكمة ولا حدود نافذة ، وإنما بدأت الشريعة تسود وتنفذ يوم انتقل الاسلام الى المدينة وأصبحت له قوة تحميه وصولة تدفع عنه .

وغاب عن هؤلاء المتفيقهين أن شرائع الاسلام وحدوده ونظمه الحاكمة والآيات القرآنية الدالة عليها الآمرة بها لم توجد فى مكة ولم تنزل بها ، وإنما نزلت هذه الآيات فى المدينة حينما تكونت الأمة الاسلامية .

فكيف ينفذ المسلمون فى مكة شريعة لم تكن قد نزلت عليهم بعد ؟ ! .. وكيف يمكن المقارنة بين هذا العهد المكى وعصرنا ؟ ... هل يمكن أن ندعى أن القرآن اليوم قد خلا من آيات الأحكام والحدود والشرائع ؟ .

وهل لدى هؤلاء المفتين شهادة ربانية تجيز لهم تعطيل حدود الله واهدار شرائعه ، أو وصية نبوية سرية بتقسيم القرآن إلى قسمين : قسم تعبدى نؤمن به ونقتدى بتعاليمه ونحافظ على آياته ، وقسم تشريعى نلغيه ونهمله ونعرض عنه ونستبدله بشرائع الأوروبيين وأنظمة الغربيين ؟ !! .

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون » .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

« ... إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » .

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... »

« وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ؛ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » .

آيات هى النور المبين لا يدنو منها لغو ولا يمسها باطل ولا تأخذ بأجنحتها تعللات المنافقين ، ولا تطفىء أنوارها دعاوى العابدين الطائعين أصحاب الطاعة المعروفة التى حدثنا القرآن الكريم عنها .

آيات ناطقة بأن الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده وأتم نعمته عليهم به هو دين ودولة ، وحكم ، وشريعة ، ومنهج ، ورسالة ، وأن من لا يحكم بما أنزل الله فقد مرق من الاسلام وبرىء من الايمان وعصى الله ورسوله وأطفأ نورا ربانيا وأشعل مواقيد الجاهلية .

ان الحكومة الاسلامية القائمة بأمر الله المنفذة لشرائعه الحاملة لرسالته المدافعة عن فكرته المستظلة بلوائه القائمة بأحكامه : هى عنوان الاسلام ، وهى سمته ، وهى روحه وجوهره ، وهى عدل الله بين عباده ، وهى التقوى التعبدية السامية ، والطاعة العلية التى لا يرضى الله عن سواها .

ولا حياة للإسلام ولا وزن لتعبداته ، اذا لم تقم بين المسلمين تلك الحكومة ، لأن الله جل جلاله لم يرسل رسوله الأكبر بتشريعات العبادة فحسب ، بل أرسله بالنظام الأكبر الشامل المنظم للحياة كافة ، حتى تكون الحياة البشرية جديرة بالانسان الذى اصطفاه الله ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له الكون كله أرضه وسمواته .

وهل يمكن لرسالة عامة للدين والدنيا أن تقوم فى ظل أنظمة وقوانين وشرائع تضاد الفكرة الأساسية لتلك الرسالة وتتنافر مع ما أمرت وفرضت وسنت ؟ ! !

وهل يجوز أن يحرم الله شيئا فنحله ، ويقرر حدودا فنهملها ، ويفرض شرائع فننبذها ، ثم نزعم بعد ذلك أننا مسلمون ، وأننا أمة القرآن ، وأننا على الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟ ! !

وهل نرجو من الله نصرا ومن لدنه تأييدا ونحن ننابذه العداوة ونبارزه الخصومة وننازله ونقارعه قانونا بقانون وفريضة بفريضة ؟ ! !

إن تحطيم فكرة الحكم الاسلامى ، هو تحطيم كامل لكل مقدسات الاسلام ، وانهيار شامل لحياتنا ورسالتنا كمسلمين لنا كتاب ولنا شريعة ولنا عقيدة .

ان الاسلام وحدة متماسكة وأنظمة يؤيد بعضها بعضا وعقائد متساندة ترتكز كل عقيدة على أخواتها ، وانتزاع أى لبنة من هذا الصرح الشامخ يزلزل أسسه ويحطم بنيانه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما يوصى بالعرى المتماسكة ، ولقد حذرنا موقفنا اليوم فى الحديث الصحيح : « .. لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة ، فأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن الصلاة .. »

وهو حديث يلقى أشعته علينا ليجردنا من الزيف الذى نعيش فيه ، فلا وجود للصلاة اذا نقض الحكم الاسلامى ، ولا بقاء لأية عبادة ولا معنى لها إذا فقد العالم الاسلامى شخصيته المميزة ودولته القائمة وشريعته الحاكمة .

إن التشريع فى كل أمة هو روحها وقلبها ومكون فكرتها ، ومحدد أخلاقها ومنظم شئونها والمهيمن على توجيهاتها .

والحكم فى كل شعب هو مظهر السيادة ومجلى القوة للفكرة التى يمثلها الشعب ، وللعقيدة التى يدين بها ، وللغاية التى يحيا من أجلها .

ولن تتكون الأمة الاسلامية ، ولن تقوم رسالة القرآن الكاملة الا إذا وجدت الحكومة الاسلامية التى تستظل بالقرآن وتحمل اللواء الذى رفعه المؤمنون فى بدر فى وجه الجاهلية العالمية كافة أيا كان مكانها من هذا الكوكب .

ان الصيحة التي تنادي بأن شريعة الله التي ارتضاها لعباده وفرضها لا تلائم الحضارة ولا تتمشى مع التطور البشرى وتضيق بحاجيات الحياة للإنسان المتعلم الراقى ، لهى صيحة من صميم الجاهلية التى تحارب الاسلام وتتربص به الدوائر .

وإذا كانت شرائع الاسلام فاسدة فعباداته كذلك ، وحتى لو سلمت العبادات ففساد الجزء يهدم الكل ، وظهور العجز فى مادة يزيل القداسة والربانية عن المجموع .

والصيحة الثانية من صيحات الجاهلية التى تعيش بيننا وينتسب أربابها الى الاسلام : ان المجتمع الاسلامى الضعيف الواهن المتشابك المصالح مع الدول القوية غير الاسلامية ، لا يمكن ولا يتسنى له أن يطبق الاسلام شريعة ونظاما ومنهاجا ؛ خوفا من الصدمات الخارجية وإشفاقا من البلبلة الداخلية ورعبا من النكسة الاقتصادية .

وهى صيحة أكبر مقتا عند الله ، وإن بدت أهون من سابقتهاوأنعم ملمسا وأقرب الى الاسلام ، لأنها صيحة تسلم فى غير حياء بأنها تخشى الناس أعظم مما تخشى الله .

« الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولأنها ارتضت الأمم غير الاسلامية حكما مطاعا فى عقيدتها تستأذنها وتأخذ رأيها قبل أن تطيع ربها ، ولأنها فكرت فقدرت أن شريعة الله شرها أكبر من خيرها وإثمها أكبر من نفعها .

هل شرع الله أيها المتعالمون الحكماء ما فيه الضرر بعباده ؟ ! !

وهل شرع الله أيها السادة الفضلاء شرا يحدث نكرا وتصدعا وانهيارا ؟ !

اذا كان ما تقولونه حقا فلماذا نبقى مسلمين ؟ ! لماذا لا ننبذ هذا الدين الذى لا تنبت حقوله إلا الشر والضر ؟ ! !

وإذا كان هذا الدين لا يصلح للحياة ولا يؤدى للمجتمع رسالة ولا يقدم للأمة قانونا سليما وصراطا مستقيما أيبقى بعد ذلك دينا مقدسا ؟ ! !

إما أن نكون مؤمنين بهذا الدين معتقدين من أعماق قلوبنا وبكل قطرة من دمائنا ،أنه دين كامل صالح ، تمطر سمواته الخير وتنبت أرضه الفضيلة ، فننادى به فى عزة المؤمنين ، ونعرضه على أعين الناس فى يقين الواثقين ، ونطبقه على حياتنا فى طاعة المتعبدين ، وإما أن يكون فى قلوبنا شك وريبة من صلاحيته .. فلنكن رجالا إذا لم نكن مؤمنين ، ولنعلن على الناس أن الاسلام قد انتهى ، لقد كان دينا للبدائيين ولم يعد صالحا للمتحضرين ، ولنبحث لنا عن دين سواه ، أو نرقى درجة فى سلم المدنية فنعتنق الالحاد ونبرأ من الرسالات .

أليس هذا هو المنطق الصريح ؟ ! ... إما أن نكون مسلمين أو لا مسلمين ، فنريح هذا الدين ونريح أنفسنا ونفهم مكاننا من هذه الحياة ونحدد رسالتنا بين الأمم .

سيقول السفهاء من الناس : ما هذا الكلام المدوى المزلزل ؟ ... وسيقول النائمون المخدرون ما هذا الجرس العالي المنذر ؟... وسيقول غير هؤلاء وهؤلاء من أخدان النعام الذين وضعوا رؤوسهم فى الرمال وعاشوا فى الظلام ، ورضوا به واطمأنوا اليه : ما هذا النور الفضاح الذى يريد بعثنا من الرمال لنواجه هذه القسوة والصرامة ، ولنواجه تبعات جساما كنا فى غنى عنها وفى راحة منها ؟ .

ليست الحياة موطنا للجبناء ، ولا مكانا للعيون المغلقة ، والعقول المخدرة ، والنفوس الهائمة فى غير هدى .

يجب أن نحدد موقفنا فورا ، فان كنا لا نزال متمسكين بالاسلام مؤمنين برسالاته ، فلنقلب صحفنا ولنخلع أثوابنا ، ولنغير أفكارنا ، ولنجدد قلوبنا وعقائدنا ، ولننبذ تلك الفلسفة التى ضللتنا ، ولنعرض عن تلك الحياة التى خدعتنا ، ولنعد الى أفق الاسلام ، نستضىء بكواكبه ونسترشد بشموسه ، ونتخلق بآدابه ونحكم بشرائعه ونتقلد عزته وصولته وبأسه .

يجب أن نؤمن أولا وقبل كل شىء ، بأن الاسلام ليس مدنية بين المدنيات فيها النافع والضار ، وليس ثمرة لآراء البشر وجهودهم ، فيه الخطأ والصواب ، بل هو شريعة فرضها الله يوم فرض الايمان به ليعمل بها عباده لخيرهم وسعادتهم وعزتهم .

شريعة لم تكن للجزيرة العربية ولا لصدر الاسلام ولا للبدو الضاربين فى الصحراء ؛ بل هى صالحة لتعمل بها الشعوب صعودا فى معارج النور فى كل زمان ومكان .

وحكم موازينه فى يد الله ، وهى يد عادلة قائمة بالقسط لا تظلم ولا تجور ، بل تهدى الى الخير ... الى صراط الحميد المجيد .

وأن ندرك أن الذين يثيرون فى وجه الحكم الاسلامى والشريعة القرآنية غبار التشكيك وعواصف الريب ، انما يخادعون الله ويخادعون الاسلام ويمكرون بالمسلمين .

انهم يقولون : كيف تعيش أمة فى هذا العصر بنظام اقتصادى يحرم الربا ؟ ! ...وكيف يحيا شعب يحرم نصفه اللطيف من الضرب فى الأرض والسعى فى مناكبها ؟ ، .. وكيف نقيم حدودا علي جرائم الاخلاق ؟ ! ... وكيف نؤسس حكما على شريعة لا تعرف لها نظاما ولا دستورا ، ولا تقنينا مفصل المناهج محدد الموارد ؟ ... هل نلغى القوانين المدنية ثم نوزع نسخا من القرآن الكريم على المجالس التشريعية والأجهزة الحكومية ؟ ! ! .

كل هذه الريب وما يماثلها وما يتقدم عليها وما يتأخر ، دعاوى موحى بها ، ولا ثقل لها فى موازين الحقائق .

انهم يثيرون مسائل فرعية عاشت ونبتت وسمقت وتأصلت تحت ظل حضارة وحياة وأنظمة غير اسلامية .

ولا يمكن أن نطالب نظاما ما بحلول جزئية لمشكلات لم ينشئها هو ولم يسهم فى حياتها ؛ وإنما نشأت وقامت تحت ولاية نظام آخر مختلف فى طبيعته وفكرته وطريقته .

فلنطبق أولا هذا النظام كاملا ، ثم ننظر . هل تبقى هذه المشكلات أم تزول ؟ ... ان الاسلام نظام كامل متكامل تترابط أجزاؤه وتتساند وتؤيد أنظمته بعضها بعضا ، وتهيىء قوانينه جوانب الحياة للفكرة الكلية الشاملة .

وبتلك القوانين المتحدة ، والأنظمة المتناسقة ، والقواعد المتساندة ، تصل المجموعة كلها إلى غايتها فى يسر وكمال ... الى الأفق الأعلى للرسالة .

العبادات تمهد للأخلاق ، والأخلاق تهيىء للتشريع ، والتشريع يمكن للدولة ، والدولة تيسر الحياة للعبادات والأخلاق والتشريع .

قبل أن نقيم الحدود يجب أن نوجد المجتمع الصالح الذى يكوّن الخلق الاسلامى ، ونوجد الفرد المطمئن الى أرزاقه تحت ألوية النظم الاقتصادية الاسلامية التى تتكفل بالفرد مسكنا وملبسا وتعليما ودواء وعملا .

وقبل أن نحرم الربا يجب أن نوجد الجمعيات التعاونية وبنوك التكافل الاجتماعى ، ونهيىء جو المودة والأخوة والعون الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين به .

وقبل أن نطالب المرأة بأن تخفى من كرامتها وجسدها ما أمر الله أن يصان ولا يبتذل ؛ يجب أن نمهد لها جو الأسرة الاسلامية الكريمة المتحابة المتماسكة المتعاونة ، ونصنع لها وسطا خلقيا سليما من أمراض النفوس ونزوات الشهوات وبريقها ، مجتمعا يحض على الزواج وييسر سبله ، ويعين عليه ، وهكذا تترابط الأنظمة وتتساند فتصل متعاونة متجاوبة متكافلة الى أفقها الأعلى وغايتها التى رسمها الله لها .

إذا زالت علل مجتمعاتنا تحت لواء الحكم الاسلامى والشرائع القرآنية زالت علامات الاستفهام وصيحات التشكيك وعواصف الريب التى تتناثر فى أفواه الذين لا يعلمون من الاسلام الا رسومه واسمه .

إن الاسلام ليس قانونا وتشريعا وحكما وعبادة فحسب ؛ انه لأفق للأخلاق ورسالة للروح ، ودعوة للخير والحب والاخاء والتعاون .

انه دين يصبغ كل حركات الأفراد ويطبع أعمالهم بالطابع الالهى ، إنه ليصعد كل عمل من أعمال الدنيا الى الله ، وبذلك يكون الاسلام رسالة عالمية يحمل فكرة عالمية لخير الحياة كافة .

فاذا كانت السياسة فى الاسلام يجب أن تنبثق كلياتها من عقيدته ، فالهدف من ذلك أن تخرج من ضيق الخداع والنفاق والأذى ، الى سعة الأخلاق والأمانة والخير ، وأن تخضع لمبدأ أخلاقى ينفى عنها الظلم والعدوان والاغتصاب .

وإذا كان الاقتصاد فى الاسلام يجب أن يوضع فى الأفق الاسلامى ؛ فان الغرض من هذا الترابط ، أن يكون رحمة بين الناس ومعاونة بين العباد ، وأن يبنى على خلق ومرحمة ، لا على افتراس وجشع ونهم واحتكار وافساد فى الأرض .

والحدود والعقوبات فى الاسلام لم توضع لتكون شهوة للانتقام أو هدفا للعنف ، أو قسوة بالناس ، وانما نظمت وشرعت لخير الحياة وخير الناس .

« ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ... » .

ان الجريمة فى نظر الاسلام عدوان على المجتمع ، فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن انتهك عرضا فقد جرح النظام العام وأهدر كرامته .

لقد قامت الشريعة الاسلامية لتكون شريعة عالمية ، وأسسها ترتكز صراحة على مصالح العباد ، فلا ضرر فيها ولا ضرار ولا حرج ولا ضيق ؛ فان قواعدها وكلياتها لتدور مع المصلحة ، فأينما وجدت فثم شرع الله كما يقول فقهاء المالكية (١) .

ولهذا سمى المسلمون منذ فجر توحيدهم التشريع الاسلامى بالسياسة الشرعية ، ومنطق السياسة هو المرونة والمصالح المرسلة والتطور الحضارى ومراعاة العرف والمكان والزمان وقلوب الناس .

---

(١) يقول الامام عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور ...

٧

حكومة اسلامية لا حكومة دينية

للأقلام التى تهاجم الاسلام ؛ وللأقلام التى يحركها الاستعمار ، وللأقلام التى يحتضنها التبشير ، دعاوى عريضة مغرضة حول حكومة الاسلام .

فهم يصورونها تصويرا مسيحيا أوربيا ، ويلبسونها أثواب الدولة الإلهية ... مملكة الرب التى يمارس فيها السلطات أشخاص مقدسون يزعمون أن لهم حقا إلهيا ! !

والاسلام لا يعرف هذا اللون من الحكم والسلطان ، فليس فى المجتمع الاسلامى التوحيدى الشورى مكان لوكلاء الرب الذين يعبرون عن مشيئته وينطقون بآرائه . انها لحكومة جاهلية صنمية ، والاسلام جاء أول ما جاء ليحطم الأصنام بشرا كانوا أم أحجارا .

وليس فى الاسلام قداسة الا لكلمات الله تنبثق منها شرائعه وفرائضه ورسالاته ، لها وحدها الحكم واليها التحاكم وليس لبشر عليها سلطان ، بل لا يعرف الاسلام ما يسمى برجل الدين المحترف ، وليس فى صدارته هيئة « أكليروس » مقدسة تهب الناس جنة الله ان رضيت ، وتقذف بهم إلى جحيمه إن غضبت ! ! وبالتالى لا يعرف الحكومات الدينية بالمعنى الذى عرفته أوربا وذاقت من هوله ألوانا تمتلىء بها حقائب التاريخ .

ولقد حدث فى بعض العصور الاسلامية أن وثب إلى الحكم طغاة مغتصبون ، أو أباطرة من ملوك الوراثة ، أداروا شراعهم الى الطاغوت ، وتقنعوا كذبا بقداسة الدين ، وجعلوا من أنفسهم ظلا لله سبحانه على الأرض .

هؤلاء الجبارون يبرأ منهم الاسلام ويبرأ منهم الحكم الإسلامى ؛ فالحاكم فى الاسلام هو رجل ارتضاه المسلمون لدينهم ودنياهم رضاء حرا منتخبا ؛ ليقيم حدود الله بينهم ، ويحفظ أمنهم ويعلى كلمتهم ويكفل لهم حرياتهم كما يكفل أرزاقهم وحاجياتهم على اختلاف ألوانها وضروبها .

والحكم الإسلامي أساسه الشورى ، وقاعدته الكبرى كتاب الله وسنة رسوله وما يجمع عليه المسلمون ، فاجماعهم قانون وكلمتهم دستور في ظل المثالية الاسلامية .

وشريعة الله لا ضرر فيها ولا ضرار ، ولا ضيق ولا عسر ، فقد جاءت لتكون عدل الله بين عباده ، ولتكون خيرا ويسرا للناس كافة ، وهي لهذا تدور على قواعد مرنة تبعا لمصلحة الأمة ، فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله ، وحيثما وجد الضرر وثبت قواعد التشريع الاسلامية المرنة العالمية الزمان والمكان لتجد لها في سد الذرائع أو المصالح المرسلة ما ينقذها من هذا الضرر ، وما يفتح لها من الرحمة أبوابا وأبوابا .

بل ان معنى الحكم الاسلامي أن يختفي فورا هذا الكهنوت الزائف الذي يتزعم الجماهير ، وتتوارى تلك المواكب التي يتواثب فيها المجاذيب والدراويش ، وتذهب إلى غير رجعة تلك العادات الوثنية المبتدعة التي تخنق مجتمعاتنا وتقيد شعوبنا بقيود الضعف والوهن والرجعية والجمود .

ان الحكم الاسلامي هو حكم الاحرار ، حكم الحريات المقدسة التي تنطلق فيها الملكات وتتحرر الطاقات ويتكون المجتمع الصالح خلقا واجتماعا ، وتشرق المثاليات عدالة ومساواة ، وتنهض العزائم المؤمنة التي تصعد بأعمالها الدنيوية قبل الدينية الى الله .

وفي الحكم الاسلامي معنى العالمية ، فهو حكم لا يستند الى عصبيات أو قوميات تضمر البغضاء والحقد لغيرها ؛ بل هي دولة تبنى على الخلق والروح والفكرة الانسانية العادلة التي تستهدف السلام العام .

يقول الاستاذ توفيق الحكيم (١) :

« فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة - والدنيا الصحيحة تمهد لآخرة صحيحة - فان الاسلام - بلا مراء - هو دين الصحة في كل شيء ؛ فهو دين ذو صوت جهير في الدعوة الى صحة الجسد والعقل وصحة العقيدة .

ولئن كان ماضي هذا الدين السليم مجيدا ، فان مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه

(١) تحت شمس الفكر ص ٢٩

من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء ، وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ، فان الدين المثالى هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الاسلام شريعة وهى لا تعرف رجال الدين ، ولا تقر وجود اناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكتنزون ، ومن الدين مهنة تدر الرزق ، وتعطى متاع الدنيا ؟ ؟ ...إن أولئك الذين يجعلون من الدين سلما للدنيا - لا الدنيا سلما للدين - قد طردهم الاسلام بعيدا عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس ، لا احتراف فيه ولا احتكار .

ان رجال الدين فى الاسلام اناس لا سلطان لهم على أحد ، ولاينقطعون للدين احترافا وارتزاقا كما ينقطع أمثالهم فى الديانات الأخرى ؛ بل يعيشون كما يعيش الناس ، يفتحون الحوانيت ، ويؤسسون المتاجر ، ويحترفون الحرف العاملة الصانعة ، هكذا كان الأئمة الكبار أبو حنيفة ، والشافعى ، ومالك ابن أنس .

انه لدين البساطة والسماحة والصراحة ، دين يحترم الكفاءات لا القداسات ، ويضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح ، سواء ارتدى أزياء الكهنوت أو تجرد منها .

ولقد أعجبتنى كلمات لممثل أمة اسلامية ناهضة ، هو سيادة السيد « تميز الدين خان » رئيس الجمعية التأسيسية بالباكستان فى المؤتمر الصحفى الذى عقده للصحفيين المصريين قال :

« إنه وإن كانت الباكستان بلادا إسلامية تريد وضع دستورها على أساس الدين الحنيف ، إلا أنها دولة عصرية حديثة ، لا يتولى الحكم فيها رجال الدين ، ولكنها ترى أن فى تعاليم هذا الدين وفى السير على نهجه ما يؤكد نبل الفرصة وحسن المقصد ؛ لأن الاسلام دين ودولة » .

وكلمات السيد « تميز » ترسم السياسة العليا لفكرة الحكومة فى الاسلام ، وتوضح فى صراحة وجلاء الفرق الدقيق بين الحكومة الاسلامية والحكومة الدينية ، وهو الفرق الذى تقنع به المغرضون لينالوا من جلال الحكم الاسلامى .

وهذا الفرق الدقيق بين الحكومة الاسلامية والحكومة الدينية مفخرة من مفاخر الاسلام ، ومعجزة من معجزاته الباهرة الغالية ، وشيء تميز به الاسلام عن سائر الأديان العالمية .

الاسلام « دين و دولة » ، تلك هي كلمة الحق ، وذلك هو الفيصل بين فنون الحكم وفرائض الدين .

دين يستمد منه التشريع والالهام ، وتقوم على مبادئه القوانين والأنظمة ، والحكم الأعلى فيما يختص بتفسيره وتقنينه اجماع رجال الدين من الأئمة الحفظة الثقات الذين تخصصوا لهذا وأعدوا له .

وحكومة يشرف عليها رجال السياسة والدبلوماسية والخبراء المهرة فى فنون الحكم والادارة والقيادة ، الدهاة العباقرة أصحاب الفهم الواسع فى مشاكل العالم وأنظمته وحكوماته ومناوراته .

وكما أن لفنون المال والاقتصاد رجالا ، ولشئون الحرب والقتال أبطالا ، ولكل فن من الفنون أهله وأصحابه ؛ كذلك للحكم والادارة والقيادة رجال ورجال .

وليس معنى هذا أن تنحرف الأمة عن الدين أو تعرض بوجهها عنه ، بل معناه وضع كل شيء في موضعه ، لكل اختصاصه ولكل مكانه .

وبهذا انتفت صفة القداسة عن الحكومات واستطاعت الشعوب أن تحاسبها وتراقبها ، ولم تستطع الحكومات أن تستبد أو تغطى باسم الدين ، بل احتكمت إلى الدين دائما ، وأصبح الدين هو الأعلى وهو المقدس الكريم ، لا رجال الدين وأصحاب القوة والنفوذ .

حتى أن « عمر بن الخطاب » الحاكم القوى العملاق ليقف على المنبر – وهو الخليفة المنتصر الفاتح – فيقول :

« ... من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه » .

فيقوم له رجل من العامة فيصرخ فى وجهه .

« والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا ؟ ... »

فيهتف عمر : « إياى تعنى ؟ ... » ثلاثا – ويردد الرجل – ثلاثا – : « أجل ... اياك أعنى » .

ذلك هو الاسلام ... ديمقراطية وسماحة ، لا عصبية ولا قداسة ، كل رجل في مكانه وكل رجل حسب مواهبه ، وكل لما أعد له لا بما قرأ وحفظ .

يقول « عمرو بن العاص » :

« منذ أسلمت أنا وخالد بن الوليد لم يقدم علينا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أحدا من أصحابه » .

ولم يكن عمرو ، ولم يكن خالد أتقى المسلمين ولا أعلمهم بدين الله ؛ وإنما كانا من أدهى المسلمين وأبصرهم بفنون القيادة وأساليب النضال والفتح، حتى اننا لنرى الرسول صلوات الله وسلامه عليه - حينما أرسل أصحابه في سرية « الساحل » وفيها الصديق وعمر بن الخطاب - جعل عمرو بن العاص أميرا على السرية ، وصدقت فراسة الرسول في دهاء عمرو وفطنته الحربية ، فقد أراد أصحابه ذات ليلة أن يوقدوا نارا بالليل ، فقال: « من أوقد نارا ألقيته فيها » فلما رجعوا إلى الرسول اشتكى أبو بكر وعمر بن الخطاب من موقف عمرو ومن قولته العظيمة ، فلما سأله الرسول قال: « يا رسول الله خفت أن يوقدوا نارا ونحن في أرض العدو ، فتدل النار علينا » فأقره الرسول على عمله ، وقال عمر بن الخطاب :

« لقد غاب عنا ما رأى ، ولله در عمرو » .

ونرى الصديق الخليفة الأول حينما ولي الخلافة يرسل خالد بن الوليد إلى سائر الميادين قائدا وزعيما ، وتخفق رايات خالد منتصرة ظافرة ، وتتصاعد الصيحات بجوارها ، صيحات المتزمتين ضد خالد وتصرفاته ، ومواقفه . فيصرخ أبو بكر الصديق :

« إنه لسيف من سيوف الله . وليس لأحد منكم سيفه ولا خبرته ، بل ليس لأحد منكم وثباته وفتكاته » .

وحينما أوغل أبو عبيدة بن الجراح - التقي النقي ، أمين هذه الأمة المحمدية وحبيب رسول الله وصفيه ونجيه - في ميادين الشام وأحيط به ، كتب أبو بكر إلى أبي عبيدة الخطاب العظيم الخالد في صحف التاريخ :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له

وأطع ، وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، فأحببت أن أنسى به الروم وساوس الشيطان . أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

وفى هذه الرسالة معان تستوقف العقول وتبعث على التأمل والاكبار ، فالخليفة يكبر ابن الجراح إكبارا عظيما لمكانته من الدعوة الاسلامية ، حتى لقد رشحه للخلافة يوم السقيفة ، وهى ما هى من القيادة الاسلامية ، ولكنه يرى أن لخالد فطنة فى الحرب ولمحة عبقرية فى القتال ليست لأبى عبيدة . والملحمة ملحمة عسكرية يتفاضل فيها الناس بالبراعة والكفاءة الفنية لا بالتقوي والأسبقية الاسلامية .

فمصلحة الأمة الاسلامية إذن تحتم على الخليفة أن يرسل إلى موقف الخطر عبقرى العسكرية الاسلامية ؛ لا عبقرى التقوى والعبادة .

مصلحة الأمة الاسلامية إذن هى الفيصل فى الحكم ، والوظائف العامة ، يتولاها الأكفاء لا الأتقى ، على أن تسود الأنظمة الاسلامية فى التشريع والتقنين والاجتماع والاقتصاد والاخلاق .

ولقد عقد الامام ابن تيمية فصلا فى كتابه السياسة الشرعية [1] فى باب « قلة اجتماع الأمانة والقوة فى الناس » ... قال فيه :

« القوة والأمانة أساس الولاية ، ويختار الأمثل فالأمثل . فإذا تعين رجلان ، أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أكثرقوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضررا فيها . فيقدم فى إمارات الحروب الرجل القوى الشجاع ، وإن كان فيه فجور فيها - على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا ».

كما سأل رجل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو وأحدهما قوى فاجر ، والآخر صالح ضعيف . مع أيهما يغزو ؟ فقال : أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ... فيغزو مع القوى الفاجر. وقد قال النبى : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

---

(١) ص ١٤ .

فاذا لم يكن فاجرا كان أولى بامارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين إذا لم يسد مسده .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعمل خالدا منذ أسلم ، وقال : « إن خالدا سيف سله الله على المشركين »

مع أنه أحيانا كان يعمل ما ينكره النبى ، حتى أنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد » لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة ، ولم يكن يجوز ذلك ، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم [1] النبى وضمن أموالهم ، ومع هذا فما زال يقدمه فى إمارات الحرب ؛ لأنه كان الأصلح فى هذا الباب من غيره وإنما فعل ما فعل بنوع تأويل .

وكان أبو ذر ، أصلح منه فى الأمانة و الصدق . ومع هذا فقد قال له النبى صلى الله عليه وسلم لما طالب بولاية :

« يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك : ما أحب لنفسى ، لا تؤمر على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » رواه مسلم .

نهى أبا ذر عن الولاية و الامارة ؛ لأنه رآه ضعيفا ... مع أنه قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله :«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر».

وأمّر النبى صلى الله عليه وسلم مرة عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل – استعطافا لأقاربه الذين بعثهم اليهم – على من هم أفضل منه ، وأمّر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه . مع أنه كان معه من هو أفضل منه فى العلم والايمان . وإنما استعمل لمصلحة راجحة .

ثم يقول :

« وإن كانت الحاجة فى الولاية إلى الأمانة أشد ، قدم الأمين ... مثل حفظ الأموال ونحوها ، فأما استخراجها وحفظها ، فلا بد فيه من قوة وأمانة فيولى عليها شاب قوى يستخرجها بقوة ، وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته » .

---

(١) أى دفع الدية .

ويقدم فى ولاية القضاء الأعلم والأورع الأكفأ .فإن كان أحدهما أعلم والآخر أورع ، قدم الأورع فيما يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى ، والأعلم فيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه . ففى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل عند حلول الشهوات » .

وهكذا فى سائر الولايات .

هذا هو الأفق الاسلامى فى فهم رسالة الحكم ، وتلك هى سياسته ... حكم كفاءات ومواهب ، واستغلال للطاقات البشرية كافة على الوجه المحقق لمصالح الدولة العليا .

وبذلك تتحطم شبهات القداسة التى زعموا أنها تحيط بالدولة الاسلامية ، كما تتحطم الريب التى ضربوا نطاقها حول الحكومة الدينية التى يهيمن عليها رجل دين محترف لا يحمل من مؤهلات الحياة العليا العامة المضيئة إلا تقوى القلب ، وهى فضيلة ذاتية لا يتعدى أثرها ، ولا يمتد خارج محيط صاحبها ، فلا تحل مشاكل الناس ، ولا تأخذ بأيديهم بعزم وقوة إلى سداد الرأى وصواب الحكم وكمال السياسة وجلال التدبير والتنظيم ، إنها فضيلة مميزة ، تقدم صاحبها إذا استكمل شروط الكفاءة ، ولا تقوم وحدها بالدور الرئيسي فى الحياة ، ولا تكون فى الموازين كفاءة المواهب العالية .

فالحكم أمانة والأمانة يتولاها الأكفاء وينهض بها من هو أهل لها فى نطاق تخصصه وصلاحيته .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله » .

وبذلك أصبحت الكفاءة فى الاسلام قاعدة ، بل فريضة راجحة فى الأعمال العامة .

وكل عمل فى الإسلام لا ينتسب إلى الله وإلى الرسول فهو رد على مبتدعه ، لا تحسب على الإسلام أوزاره ، قال الصادق الأمين :

« من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

وطابع الاسلام الاكبر هو العزة ... عزة الفرد كوحدة ، وعزة المجموعة كفكرة ، وعزة الدولة كقوة ، ولا تطغى عزة على عزة ، ولا تجور قوة على

فكرة : فالمسلمون تتكافأ دماؤهم وحقوقهم كما تتكافأ واجباتهم وأعمالهم . يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

ولقد منح الاسلام أتباعه أوسع الحريات العالمية حينما كانت البشرية غير قادرة على إيصال الخير أو الشر ، إلا بقضاء الله وقدره ، وحينما دعا إلى كلمة الحق وجعلها جهادا أكبر وفريضة قدسية لها جلالها ومقامها من الإيمان ... وإنه كما يقول الرسول :

« ... لا ينسأ من أجل ، ولا يمنع من رزق أن تقف فى وجه الطغاة والجبارين بأمر الله ... » .

وزاد الاسلام على ذلك درجات ، فتسلل إلى القلوب بالتطهير والتزكية فحرر ضمير الفرد ووجدانه وشعوره تحريرا باطنيا كريما ، فلم يجعل فى قلب المسلم خشية أو رهبة أو رعبا من أحد من الناس ، بل لم يجعل فى قلبه نفاقا أو رياء أو زلفى لأية قوة فى الأرض مهما علا والتهب شرها ، وأنذر إنذارا رهيبا على لسان رسوله :

« إياكم والشرك الخفى ، قالوا : وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ ... قال : دقيق الرياء » .

ان العبودية والطاعة ، والخضوع والرهبة ، والزلفى والرجاء ، كل هذه المعنويات صفات صاعدة لا تخضع ولا ترهب ولا ترجو ولا تعبد ولا تطيع إلا فاطر السموات والأرض ، المهيمن القوى العزيز ، فالق الإصباح ومقدر الأرزاق ، المانح الوهاب المحيط بكل شىء ، وهو جل جلاله مع عباده أينما كانوا ، يعلم السر والنجوى ، ويحيط بخائنة الأعين وما تخفى الصدور .

والانذار الأكبر فى الإسلام ، هو لئلا تجعل لله ندا فيما ترجو وتخشى : يجىء أعرابى الى الرسول فيذكر له ، أنه يعبد خمسة من الآلهـة . فيقول له الرسول : « فمن ترجوه منهم لطعامك وشرابك وكسائك والأمر العظيم ؟ ... »

فيتول : الذى فى السماء ... فيقول له : « إياه فاعبد » .

ومن حديث بن عمر عن النبى صلوات الله وسلامه عليه ، أن رجلا قال له : ما شاء الله وشئت ... فغضب الرسول ، وقال : « أتجعلنى لك ندا » .

ويصم القرآن المسيحيين المنحرفين بوصمة الذل والعار الكبرى بقوله :
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

ويروى الامام أحمد والترمذى « أن عدى بن حاتم لما سمع النبى يقرأ هذه الآية قال : يا رسول الله انهم لم يعبدوهم ... فقال : بلى . انهم حرموا عليهم الحلال ، وحللوا لهم الحرام فذاك عبادتهم إياهم » .

التشريع لله وحده . فما يحل شيئا ولا يحرمه الا الله . فمن خضع لتشريع عبد فى الحلال والحرام والتشريع ، فقد أشرك مع الله عبدا ، وعبد مع الله بشرا .

فالحاكم فى الاسلام ، حاكم مقيد بالفكرة الاسلامية . انه راع لعباد الله ، يسوسهم بكلمات الله ، ويأخذ بأيديهم الى خير الدنيا وخير الآخرة ، وليس عليهم بجبار ولا طاغية،يطاع ما أطاع الله ، وترتفع فى وجهه الصيحة الاسلامية الخالدة إن حاد أو مال أو تقنع بالكبرياء أو تعالى بالسطوة .

وليس له من حقوق أو واجبات أكبر مما لأى فرد من الأمة الاسلامية الا بحق وقسط وصراط مستقيم . ان وظيفته الأولى الارشاد واطلاق الأنوار ورعاية حقوق العباد . حتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو من لا يقاس به سواه . يقول له ربه :

« ... فذكر ، انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ... » .

« ... نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ... » .

« ... فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... » .

« ... لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وروى الشيخان من حديث أبى سعيد الخدرى أن رجلا قال لرسول الله وقد رآه يعطى رجالا من المؤلفة قلوبهم :

« يا رسول الله ، اتق الله ! ! قال : ويلك ... ألست أحق أهل الأرض أن أتقى الله ؟ ! ! ثم ولى الرجل . فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ ... قال : لا تفعل . لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . قال رسول الله : انى لم أومر أن أنقب فى قلوب الناس ولا أشق بطونهم » .

ويمر الرسول بين صحابته يوم أحد يسوى صفوف القتال وبيده عصا قصيرة ، فيرى رجلا خارجا عن الصف فيغمزه فى بطنه قائلا : « استقم يا سواد » فيقول سواد : يا رسول الله آذيتنى ، وقد بعثك الله بالنصف ، أقدنى من نفسك . فيكشف الرسول عن بطنه ويقول : استقد يا سواد . فيحتضنه سواد ويقبله . ويقول : انما أردت وقد حضرنا هذا الموقف - أن يكون آخر شىء فى الدنيا أن يمس جلدى جلدك الشريف » .

ولقد فهم المسلمون منذ فجر دولتهم حقيقة الصلات بين الحاكم وجمهور الأمة . يقول أبو بكر الحاكم الأول بعد رسول الله غداة توليته للحكم :

« ...وليت عليكم ولست بخيركم . فان استقمت فأعينونى . واذا زغت فقومونى » ويقول عمر بن الخطاب « من رأى فىّ اعوجاجا فليقومه » .

ويقول عثمان بن عفان « أمرى لأمركم تبع » .

أبعد هذا تكون فى الاسلام قداسة لحاكم ، أو رهبة لحكومة ، أو جلال قدسى مطلق لامام ؟ ! .

لقد حرر الاسلام أتباعه من جبروت الجاهلية - قديمها وحديثها - وأطلقهم أعزة أقوياء كرماء من رق العبوديات العالمية ، وبهذا التحرر الكامل ، وبتلك العزة التى لا تخشى الا خالقها كون المسلمون أمة مهيمنة سيدة لم يشهد العالم لها مثيلا ، إيمانا وحرية وعدلا وأخلاقا .

وعلى هذا الضوء أقام المسلمون - لأول مرة فى التاريخ - حكومة مبرأة من الطغيان ، لا تميل بها الموازين ولا تجمح بها الأهواء ، حكومة اسلامية مدنية تعيش فى أفق الفكرة الاسلامية بروحها وقلبها ووجدانها . ولا تفنى فى شخصية الفرد الحاكم ، حتى لا ترتد إلى الجاهلية الوثنية التى جاء الاسلام لهدمها ومحو آثارها . وبذلك أصبح المسلمون كما وصفهم ربهم جل جلاله :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

يعبدون الله لا شريك له . ويضيئون مصابيح الخير ، ويدعون إلى الإسلام لأنفسهم وللعالمين .

٨

واجبات الحاكم فى الدولة الاسلامية

كل شيء فى الاسلام ينبثق من عقيدته ويتلون بفكرته العامة ، ولكنه لا يجمد ولا يقف ، بل يمتد ويتطور ويمشى مع الناس ومع الحياة فى لين ويسر وسماحة .

فالاسلام كدين عام للناس كافة.وكعقيدة ارتضاها الله ختاما لرسالاته. واصطفاها لتصنع على أعين الناس خير أمة أخرجت للناس . حينما جاءت أنظمته وشرائعه : إنما جاءت كليات عامة تصوغ روح الأشياء وتبدع ناموسها ، وتترك للناس التطبيق بما يلائم حياتهم ويحقق مصالحهم ويكفل سعادتهم وقوتهم . وتنطلق عقولهم حرة لتجول فى مرونة وسماحة مجتهدة مبتدعة منظمة متطورة .

والشريعة الاسلامية كائن حى دائم النماء لا يقف ولا يجمد . لأن الوقوف عن الحركة سنة الأموات ، والجمود طبيعة العاجزين .

والكلية الاسلامية فى الحكم : أنه عقد بين متعاقدين ... بين الحاكم والرعية ، وهو من قبيل التعاون على البر والتقوى : لأن الحياة الانسانية لا تقوم إلا بهذا التعاون ولا تستقيم إلا بهذا النظام .

والعقد أساسه الاختيار والرضا ، لا التعسف والاكراه ... إنه توكيل من المجموع للفرد الذى انتخبه هذا المجموع انتخابا شعبيا حرا ليكون راعيا لهم قائما بأماناتهم منفذا لشريعة الله بينهم ، موفرا للحياة السعيدة الحرة الكريمة لهم .

فالحاكم ليس شخصا مقدسا حاكما بأمره ، وليس وارثا لملك ، ولا مهيمنا على عقائد الناس وقلوبهم ، انه طرف فى عقد ليقوم بأعمال الوكالة باسم المجموع .

يقول الامام ابن حزم :

البيعة من قبيل التعاون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالمتتبع لأخبار الخلفاء الراشدين يجد أن البيعة كانت أساس الاختيار ، وأنها كانت العقد الذى يعقد بين الإمام والأمة ، وهو عقد موثق بالايمان يجعل على كلا الفريقين التزاما دقيقا يجب عليه تنفيذه والقيام بحقه ، ويلزم الامام باقامة

كتاب الله وسنة رسوله ، ويلزم الأمة بالسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، ما لم يكن عصيان لأمر الله ونهيه ، فان كان عصيان فلا سمع ولا طاعة .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »[1] .

ويرى الامام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » أن الحكم أمانة وأن آية الأمراء فى القرآن هى قوله تعالى :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم،فأن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

قال العلماء : « نزلت الآية الأولى فى ولاة الأمور . عليهم أن يؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، فإن خانوا الأمانة سلبت منهم الولاية .

ونزلت الآية الثانية فى الرعية ، عليهم أن يؤدوا أمانة الطاعة ، إلا أن يؤمروا بمعصية . فاذا أمروا بمعصية فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

والفيصل الحكم ، والميزان القسط ، بين الحاكم والرعية ، هو كتاب الله وسنة رسوله ، فاذا اختلف بين طرفى الأمانة ردوا الخلاف إلى الكتاب والسنة ليفصلا بينهما ، وعليهما السمع والطاعة » .

وعقد العلامة الماوردى فصلا قيما فى كتابه « الأحكام السلطانية » فى ما يجب على الحاكم حيال الأمة ملخصا لهذه الواجبات فى عشر قواعد كلية :

١ - المشاورة فى كل ما ليس فيه نص .

٢ - حفظ الدين على أموره المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة ، فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ؛ ليكون الدين محروسا من خلل،والأمة ممنوعة من زلل .

---

(١) ابن حزم : للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٢٤٨ .

٣ - تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود ، لتصان محارم الله من الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من الاتلاف والاستهلاك .

٤ - حماية الأمن وصيانة النظام .

٥ - تحصين الثغور وتقوية الجيوش .

٦ - جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير جور أو تعسف .

٧ - صرف الأرزاق للناس وتدبير الأموال لهم وحمايتهم من الأمراض والمجاعات .

٨ - استخدام الأكفاء وتقبل النصح من الأمناء .

٩ - نشر الدعوة الاسلامية وتبليغها .

١٠ - أن يباشر بنفسه أمور الناس ، وأن ينهض بسياسة الأمة ، ولا تشغله لذة أو عبادة عن مصالح الناس .

وهو دستور شامل لو نقلناه على لغة العصر ومصطلحاته لسامق ، بل لتفوق فى احاطته وشموله على ما احتوته الدساتير العالمية من واجبات الحاكمين والتزاماتهم .

ان واجب الحاكم الأول أن تبنى تصرفاته على الشورى ، والشورى كلية عامة فى الاسلام ، ينظمها المسلمون وينفذونها ، ويدورون بها مع الزمان والمكان والتطورات بما يلائم صور الحياة ومشاكلها وتقدمها ، وبذلك تنتفى صفة الأوتقراطية وصبغة الدكتاتورية المستبدة المعتصمة بقداستها وكفاءتها عن مبادىء الحكم الاسلامى ودستوره .

وعلى الحاكم أن يضع نصب عينيه أنه رأس نظام له عقيدة مقدسة . فعليه المحافظة على ناموس هذه العقيدة . فان زاغ مبتدع أو ألحد فاسق ، أو سعى بالفساد المغرمون بالشبهات والشائكات ، فيجب قبل عقابه وردعه ارشاده بالحسنى واقناعه بالحجة ، فإن لج وأبى واتبع خطوات الشياطين ، قام القانون لحماية العقيدة وصيانة النظام العام ليكون الدين كما يقول العلامة الماوردى : « محروسا من خلل والأمة ممنوعة من زلل » .

وهنا نلاحظ أن العقوبة لا تقع فجأة ، وأن القانون لا ينفذ بغتة ، بل لا بد من الارشاد والحجة أولا ، وهذه آية الآيات فى العدالة والسماحة

والاعتماد على نور الحجة وبرهان الفكرة ، حتى إذا وصل الأمر إلى مرتبة العناد ومقام الافساد ؛ جاء القانون بالحماية والنظام .

ولهذه العقيدة شرائع ونظم وحدود . جعل الله فى اقامتها حياة للناس وعدالة وأمنا وصيانة لأخلاقهم وأعراضهم وآدابهم ومجتمعاتهم . فعلى الحاكم تنفيذ هذه الشريعة الكريمة المضيئة ، واقامة هذه الحدود العادلة الرادعة ، لتصان محارم الله عن الانتهاك ، وتحفظ حقوق عباده من الاتلاف والاستهلاك ، فاذا تمت هذه السياسة الدينية وتنفس المجتمع نقاء هوائها ، واستمتع بعدالة شرائعها وقوة أنظمتها ؛ وجلال مبادئها الحرة الكريمة العادلة ، جاءت سياسة الحرب ؛ لصيانة الأمة الاسلامية من بغى الطغاة ووثبات الجبارين ، وهى ليست بسياسة عدوان أو طغيان أو مغامرات للفتح والاستعمار ؟ انها سياسة دفاعية وقوتها النامية للدفاع والحماية ، وصيانة الفكر والرسالة ، فواجب الحاكم تحت ظلالها ، تحصين الثغور وتقوية الجيوش ، بما يلائم الزمان والمكان ، وتطورات الحياة وقفزات الحضارات ، وفنون الآلات والاختراعات .

وفى أعقابها تأتى السياسة المالية « جباية الأموال » - نظام الضرائب — على ما أوجب الشرع نصا واجتهادا من غير جور ولا تعسف .

انها سياسة متطورة تقوم على الاجتهاد والمرونة ، الاجتهاد المرن الذى يبنى على الشورى ، فان كان الشارع قد حدد الزكاة والفيء والصدقات ؛ فان للحاكم أن يفرض من الضرائب ويسن من النظم ويبتكر من الفنون المالية ما توجبه الحاجة وما تقتضيه الاصلاحات ، كل زمان بلونه وخصائصه ، وكل مكان بمقوماته ونظمه ، والقاعدة العامة ألآ يكون جور ولا اجحاف ، ولا تعسف أو إرهاق .

هذا هو شطر السياسة المالية الأول .

أما شطرها الثانى ، فهو مصرف هذه الأموال فى الاسلام : مال الجماعة لخير الجماعة وليس ملكا للحاكمين ، وليس احتكارا لفريق دون فريق ، فيجب أن تصرف الأرزاق للناس من بيت مالهم ، كل بحسب حاجاته وحياته ، حتى لا يكون بينهم جائع بلا طعام ، أو عار بلا رداء ، أو شريد بلا مسكن أو مريض بلا دواء أو جاهل محروم من نور العلم والمعرفة .

ثم تأتى قاعدة عامة شاملة : أن لا يلى أمر الناس فى الوظائف الا

الأمناء الأكفاء ؛ لأن الحكم أمانة فى ذروته العليا ، وفيما يلى هذه الذروة هبوطا الى القاعدة .

والاسلام عقيدة ورسالة لخير الناس كافة ، فليس من البر ولا من الايمان أن يحبس هذا النور وأن يحد هذا الهدى ، وأن لا يبلغ للناس أيا كانوا زمانا ومكانا ؛ فعلى الحاكم الاسلامى أن يبلغ الدعوة وأن يقوم بالرسالة ، وأن يرسل شعاع هذا النور وخير هذا الهدى الى كل بقعة ، بالبرهان المشرق ، والحجة الواضحة والحكمة والموعظة الحسنة ،من غير عدوان أو بغى أوإكراه .

وعلى العلماء ، وعلى المصلحين أن يقوموا بفريضة النصيحة والجهر بكلمة الحق ، وعلى الحاكمين أن يستمعوا لهذه النصيحة وأن يعملوا بها .

وأمانة الحكم تقتضى أن يكون وقت الحاكم - ليله ونهاره - فى خدمة الناس ورعاية مصالحهم ، وأن لا تصرفه لذة من متاع الدنيا ،بل لا تصرفه حتى عبادة الله عن الواجب المقدس المقدم على سواه .

ولقد فهم المسلمون فى فجر تاريخهم حقائق الصلات بين الحاكم والمحكومين ، وانها صلة التعاقد الحر للتعاون على البر والتقوى ... صلة الأمانة المفروضة على الطرفين المقدس إبداؤها ... صلة الشورى التى لا ينهض حكم كريم بدونها ... صلة التحاكم الى كتاب الله وروح شريعته ليكون فيصلا وميزانا ، فأداروا حياتهم وكونوا دولتهم عليها .

يقول أبو بكر رضى الله عنه - هو أول حاكم فى الاسلام بعد الرسول - غداة توليته :

« انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فاعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرد عليه حقه ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، ألا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

دستور للحكم صريح واضح محدد المعانى ، وسع من سياسة الحكم ما لم تتسع له خطابات العرش الطويلة المملة ، فيه تصوير مبين لصفة الحاكم وعلاقاته برعيته ، فهو ليس خيرهم ولا امتياز له عليهم « إن أحسنت

فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » . ان الأمة هى مصدر السلطات ، وهى الرقيبة المهيمنة ، وهى التى تمسك بزمام الحاكم وتقوده ، وتقومه إن أخطأ وتعينه إن أحسن .

والعدالة الاسلامية لا تعرف ضعيفا ولا قويا فالناس سواسية تحت لوائها ، أقوى الناس لديها ضعيف له حق مهدر ، وأضعف الناس فى منطقها قوى مغتصب .

والحكم يبنى على مكارم الأخلاق ، وروح الاسلام : الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، ولا تشيع الفاحشة – أيا كان لونها – بين قوم إلا عمهم الله بالبلاء .

والجهاد فى سبيل الله على اختلاف ضروبه : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ... إلى كلمة حق فى وجه حاكم ظالم ... إلى حمل سلاح لحماية الدعوة والدفاع عن الأمة ، لا يتركه قوم إلا ضربهم الله بالذل وألبسهم رداء الخزى .

والطاعة مقيدة بالدستور الاسلامى ، فان وفى الحاكم بهذا الدستور سمع الناس وأطاعوا ، وان انحرف وجحد فلا طاعة فى المعصية .

رقابة حية يقظة من الأمة على راعيها وحاكمها ، رقابة كانت فى أيام الخلفاء مكونة من الرأى العام ، وهذا الرأى العام بلغة العصر ، هو الصحافة والنقابات والبرلمانات . وقد يكون فى غد الراديو أو التليفزيون أو ما تستحدثه العقول من ابتكارات واختراعات ، وما تبتدعه من نظم وتجمعات ، انها رقابة من الأمة على الصورة التى ترتضيها الأمة وتختارها وتؤمن بها ، وإنما القاعدة الكلية أن تظل الرقابة والهيمنة الشعبية حية يقظة حرة قائمة بواجباتها .

ومع هذه الرقابة الشعبية الحاسمة تقوم فى قلب المسلم رقابة الضمير ورقابة الايمان ورقابة التقوى ورقابة الخوف من الله ، وهى معنويات صاعدة مضيئة يتميز بها النظام الاسلامى عن الانظمة المدنية العالمية كافة .

يقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على منبر الرسول غداة توليته فيحدد واجباته حيال الأمة فيقول :

« ... ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ... لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ماأفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم

على إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ... ولكم على أن أزيد أعطائياتكم وأرزاقكم إن شاء الله ... ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال ... فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة في ما ولانى الله من أموركم ... أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ... » .

دستور محدد البنود ، وواجبات والتزامات وحقوق مشتركة بين الحاكم والشعب ، تشرق منها صور السياسات المالية والحربية والاجتماعية عالية مضيئة .

لا ضرائب تؤخذ من المال العام الذى هو مال المسلمين جميعا ، وفى طليعته فى هذا العهد الخراج والفىء ، إلا من وجهه العادل المشروع ، والمال الذى فى بيت مال المسلمين « وزارة المالية » لا يخرج منه دينار ولا درهم إلا بحق ورقابة وأمانة .

فاذا انتهت هذه السياسة المالية التى تحددت كلياتها ؛ أخذ بحق وصرف بحق ، جاءت السياسة الحربية ، وفى طليعتها سد الثغور ، وحماية الحدود والمحافظة على الجند ، فلا يقذف بهم فى تهلكة ولا تطول إقامتهم فى الثغور النائية ، وإذا خرجوا للجهاد فلتطمئن قلوبهم ، فالحاكم هو أب لكل أسرة ، وراعى الأبناء جميعا ، والتعبير بكلمة الأبوة تعبير شامل جامع لكل معانى المحبة والرعاية .

فاذا وضحت معالم هذه السياسات ، جاءت الروح الاسلامية مشرقة مضيئة لتأخذ مكانها الخالد ، وهى رابطة العقد فى كل ألوان السياسة الاسلامية : نصيحة بالتقوى ومكارم الأخلاق وضراعة إلى الناس أن يعينوا حاكمهم بالنصح والتوجيه ، ويأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر وأن يقدموا له آراءهم فى كل أمور الحكم ومشاكله وصوره ؛ لأن الحكم شورى وأمانة متبادلة وعقد موثق بالايمان .

الرقابة الشعبية والشورى العامة ، واليقظة الحية فى قلوب الجماهير التى لا تنام لها عين ، ولا يخفت لها صوت ؛ لأنها أساس الحكم الصالح وأمانة الاسلام بين المسلمين .

يخطب عمر الناس فيقول :

« ... ألا إنى والله ما أرسلت عمالى ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفسى بيده إذن لأنصفته ... » .

فوثب عمرو بن العاص فقال : « يا أمير المؤمنين ، أفرأيت ان كان رجل من المسلمين على رعية فأدب رعيته . انك لمقصه ؟ ! ... » .

فقال عمر : أى والله الذى نفس عمر بيده لأقصنه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ... » .

لمحات من عبقرية عمر ، وأضواء من عدالة الاسلام « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم » ان الاسلام عزة وكرامة ، والحدود قصاص للراعى والرعية ، وليس لحاكم أن يؤدب رعيته بالضرب ، فإن فعل فقد ظلم ووجب القصاص منه « ضربة بضربة » والحدود قصاص ، « ولا تمنعوا المسلمين حقوقهم فتكفروهم » ، فان الظلم يخرج الناس عن فطرتهم حتى ليدنيهم من الكفر ، فالحاكم إن ظلم أو اغتصب فقد تعدى حدود الله ، وأفسد فى الأرض ، وبغى فى الاسلام ، وحمل الناس على المروق من دينهم ، يوم لا يطمئنون الى عدالته وانصافه .

وتلك الحقوق المتكافلة بين الحاكم والمحكومين هى طابع الحكم الاسلامى وهى شعاره ومثاليته العالية .

يقف ابن الخطاب يودع أحد ولاته قبل سفره إلى إقليمه حاكما فيلقى عليه هذا السؤال الكبير والامتحان العظيم :

ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ ! .

فأجابه الوالى : أقطع يده .

فقال عمر : « واذن .. فان جاءنى منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك ! .. ان الله سبحانه استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإذا أعطيناهم هذه النعمة من الله أقمنا عليهم حدود الله كفاء شكرها » .

هذا هو دستور الحكم الاسلامى ووظيفته ، يسد جوع الناس ويستر عورتهم ويوفر لهم حرفتهم . وبلغة العصر لا يوجد فى الحكم الاسلامى جائع

أو عار أو عاطل ، فواجب الدولة الأول أن توفر لكل فرد من أبنائها طعامه وكساءه ، وأن تدبر له عملا دائما يحميه من البطالة ويقيه العوز والحاجة .

فإذا تمت تلك الرسالة - وهي أسمى ما تطمع فيه النظم الاقتصادية العالمية ، وأعلى ما يتطلع إليه الحاكم في كل زمان ومكان - وتمت نعمة الله على عباده بالحاكم العادل والرزق الوفير والعمل الكريم ؛ فإن العدوان على المجتمع بعد ذلك بجرائم الاخلاق أو جرائم الأعراض أو جرائم الدماء أو جرائم السلب والنهب ، إهدار لكرامة المجتمع واعتداء على أمنه وافساد لسلامته ، ومن ثم وجب أن تقوم حدود الله لتحمي المجتمع من هذا العدوان الوقح بالقصاص الرادع .

« ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » لأن في عقاب الفرد ، حياة لأمته وحفظا لصحتها الخلقية ، وبنيتها النفسية وأمنها العام .

ولهذا صور القرآن الكريم جريمة القتل تصويرا إنسانيا عالميا رائعا « من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا » .

لأنه اعتدى على أمن الناس جميعا وأخل بسلامهم جميعا ، وعرض الانسانية كافة للخطر والفوضى .

هذه هي واجبات الحاكم ، فإن أخل بها وجب عقابه . ولهذا قال عمر لحاكم الولاية :

« فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك »

فإذا كان الفرد تقطع يده لعدوانه على المجتمع بالسرقة والنهب والسلب فإن الحاكم أيضا إذا لم يوفر للناس طعامهم ، وإذا لم يكفل عملا لكل فرد ؛ فهو مفسد في الأرض ، وهو معتد أثيم مهدر لحقوق العباد خائن لأمانة الحكم ناقض للعهد ، ومن ثم وجب عقابه كما تعاقب رعيته .

تكافل تام في الاحسان والاساءة ، بين الحاكم والمحكومين ، وشرعة في الحكم تتضاءل أمام أنوارها كل فنون الحكم العالمية .

على الحاكم المسلم أن يكفل للناس الأرزاق والعمل ، فلا جوع مذل ولا بطالة مفسدة ، وإلا وجب عقابه تأديبا وإرهابا لغيره .

بل إن الحكم الاسلامي ليصعد فوق ذلك درجات ، فيوجب على بيت المال أن يدفع دين من يعجز عن الوفاء بدينه ما دام لم يستدن فيما حرم عليه ولو كان موفور الحاجيات اللازمة للحياة .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله :

« أن اقضوا عن الغارمين » .

فكتب إليه عامل العراق :

« انا نجد الرجل له المسكن وله الخدم وله الفرس وله الأثاث فى بيته ، وهو بعد ذلك مدين ... فكتب عمر :

« لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين (١) .

وتأتى على بلاد العرب سنة قاسية التهبت فيها الأرض ، ولم تجد فيها السماء بقطرة من ماء : فتقل الأرزاق وتختفى الأقوات ويجوع الناس فى عام « الرمادة » ...

ويرى عمر ما أصاب رعيته ، فآلي على نفسه ألا يذوق سمنا ولا لحما حتى يحيا الناس ! ... وظلت هذه القسوة سياسته على نفسه وبيته حتى اسود جلده كما يقول الطبرى ، ويسر من أكل الزيت ، ثم أخذت المجاعة تنقشع وظهرت بوادر الرخاء ، فجاءت إلى أسواق المدينة طلائع الزاد من لبن وسمن ، فيشترى غلام لعمر عكة من السمن ، ووطبا من لبن بأربعين درهما ، ويذهب إليه لينبئه ويقول له : إن الله أحله من يمينه . فلما علم ثمنها قال له : « أغليت وليس كل مسلم بقادر على هذا ، فتصدق بهما،فإنى أكره أن آكل اسرافا أو أذوق طعاما ليس فى بيت كل مسلم » . ثم قال : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم » .

تكافل تام بين الحاكم والشعب يمشى الى كل الآفاق ، ورباط جامع من التعاون الكريم والحب البار يصل ما بين الجماهير وقيادتهم . وبهذا الحب وبهذا الترابط تمشى الأمة الى غايتها العليا عزيزة قوية متماسكة .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز على رواية الامام مالك وصحبه ص ١٤٠ .

ويرسل على بن أبى طالب الى وليه على مصر ، يرشده ويرسم له الخط البيانى فى الهدى الاسلامى للسياسة الاقتصادية :

« أشعر قلبك الرحمة بالرعية والمحبة لهم والعطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممن له هوى فى رعيتك . فانك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عبدا لله كان الله خصيمه دون عباده » .

ثم يقول « تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله . فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا ، فان شكى الناس ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو غرقا اغتمر الأرض أو عطشا أجحف بها ؛ خففت عنهم بما ترجو أن تصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شىء خففت به المئونة عنهم ، فانما يؤتى خراج الأرض من أعواز أهلها » .

يردد على بن أبى طالب أيضا ألحان عمر ، لأنهم أخوان على شرعة واحدة ، ألحان المحبة فى أكمل صورها وأسمى ألوانها ، وهى ألحان لا تعرفها القوانين المدنية ، لأنها لا تتفجر إلا من القلوب المؤمنة المخبتة لربها ، والمتطلعة الى خالقها . القلوب التى تجافى الظلم وتحاربه وتبرأ منه ، لأن من ظلم عباد الله كان الله خصمه ... ليس الشعب فحسب . وانما خصيمه الأول والأكبر جبار السموات والأرضين ... وأين منه المهرب ؟ ! !

وفهم فى سياسة المال ونظم الضرائب ، لم تهتد إليه المدنية الأوربية إلا بعد عشرات القرون ومئات المحن والخطوب والانقلابات والثورات الدامية الغضوب ، وحينما اهتدت اليه علما وتجربة وفنا ، عجزت عن لمسه رحمة ومحبة وعدلا .

ويثب معاوية الى الحكم وثبا ، ويمتحن العالم الاسلامى بالدولة الأموية ، ولكن مصابيح الايمان فى القلوب لم تزل مضيئة ، والفهم لرسالة الحاكم وتبعاته وحقوق الرعية وواجباتها لم يزل عاليا مبينا .

يدخل أبو مسلم الخولانى على معاوية ليخاطبه باسم الجماهير بلغة الفطرة العربية وبلحن الفكرة الاسلامية قائلا :

« ... انما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها والقيام بحقوقها، فان أنت عنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها ، وفاك سيدها أجرك ، وان أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها وتمردت عليك صفوفها ... »

ويرسل عطاء الى فاطمة بنت عبد الملك زوج « عمر بن عبد العزيز » يطلب منها أن تخبره عن أحوال عمر ... فكتبت اليه :

« ... أن عمر رحمة الله عليه كان قد فرغ للمسلمين نفسه ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومــه بليلة ... الى أن أمسى مساء ، وقد فرغ من حوائج يومه فدعا بسراجه الذى كان من ماله فصلى ركعتين ثم أقعى واضعا رأسه على يديه تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد يتصدع قلبه لها وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائما فدنوت منه وقلت : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان ؟ ... قال : أجل فعليك بشأنك وخلينى وشأنى . فقلت : إنى أرجو أن أتعظ ، قال : إذن أخبرك ؟ ... إنى نظرت فوجدتنى قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلى عنهم وأن رسول الله حجيجى فيهم ، فخفت أن لا يقبل الله منى معذرة فيهم ، ولا تقوم لى مع رسول الله حجة ، فرحمت والله يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى ووجع لها قلبى ، فأنا كلما ازددت لها ذكرا ازددت منها خوفا ؛ فاتعظى إن شئت أو ذرى ... » .

نماذج اسلامية من الحاكمين لم تعرف الدنيا لهم أخدانا ... نماذج كونتهم العقيدة الربانية ، وخرجتهم جامعة القرآن ، حاكم اذا انتهى من أعمال الرعية ، استدعى مصباحه الخاص لا مصباح المسلمين ، حتى لا يستضىء بضوء من المال العام فى وقت فراغ واستجمام .

حاكم يصل ليله بنهاره فى الخدمة العامة ثم يتزلزل قلبه رهبة من الله ألا يكون قد قام بحق العباد قياما كاملا فيما ولاه الله من أمورهم ، حاكم يرى

أنه مسئول أمام الله وأمام عقيدته وأمام ضميره عن الفقير الجائع والغريب الضائع ، والأسير المقهور وذى العيال الكثير والمال القليل ، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض ، وكيف يهنأ بحياته وطمأنينته وهو يعلم أن الله سائله عن كل هذا ، وأن رسول الله حجيجه يوم الفزع الأكبر .

تلك الحساسية العالية تكونها العقائد الايمانية ولا تتسامى الى آفاقها الشرائع المدنية ولا تسامقها ، وهو فرق بين منهجين ، كفيل وحده بالترجيح والامتياز .

ثم مشت الحياة بالعالم الاسلامى فتسللت إلى محيطه عقائد البلاد التى ضمتها جوانحه وعاداتها وتقاليدها ، وخالطته الملل والنحل والمذاهب التى كانت تموج بها تلك البلاد .

وجاءت الدولة العباسية على كواهل أقوام فى خيالهم صور من الملكيات المقدسة التى هيمنت طويلا على فارس ، وظلال ارستقراطية متكبرة عالية طالما أظلت ما وراء النهر .

فأخذ الملك العباسى يتلون بهذه الألوان ويتشكل فى تلك الأردية ، فأخذت الملكية المنافقة المضللة تنجم وتتضخم وتنفخ فى هذا البوق وترسى قواعده وتنشر آدابه ونظمه .

وأخذ رجال الفكر - وهم سدنة الدعوة والارشاد ورجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحماة المصابيح الايمانية ومطلقو شعاعها فى قلوب الجماهير - يتخلون عن أماكنهم ، ويقبعون فى دورهم ، ويمسكون ألسنتهم عما أمر الله به . ويفنون وجودهم فى حوار طويل لا ينتهى حول القضاء والقدر ومرتكب الكبيرة ومنزلته بين المنزلتين وصفات الله جل جلاله وكيفيتها وصورها ، وهل هى معنويات تحال على الاستعارة والتشبيه ؟ ... أم هى كما وردت صفات وجوارح ليس كمثلها شىء ، ولا يجوز أن تتطاول اليها الاستعارة أو يدنو منها التشبيه ؟ ! ! .

وكانت النكبة الكبرى ، موقف رجال الفقه ، حماة التشريع ورجاله ، فقد بهرت أعينهم موائد الملوك وأرعب قلوبهم بطش الحاشية ، فأخذوا يتخلون عن رسالتهم شيئا فشيئا ويحيلون شريعة الله بنظمها السياسية العالية ، ومبادئها الاقتصادية السامية وتصوراتها الاجتماعية السامقة الى جدليات

وتفريعات يدور محورها الأكبر حول الجوانب التعبدية فى الاسلام ، يتحدثون لا عن روحها وأنوارها ، وإنما عن أشكالها وأثوابها ، فظهرت الموسوعات الضخمة التى تموج بالحديث الطويل الغث ، عن الحيض والنفاس ، وسنن الوضوء وصلاحية الماء ، ووسوسة المصلين وبيع الثمار على النخيل ، وشفعة الجار وعدد ركعات التراويح والخنثى وميراثها والفرق بين ما أسموه سنة وما أطلقوا عليه كلمة الواجب ، وما وصفوه بالمندوب إلى غير ذلك ، من مسميات ونعوت لا تحمل معنى ولا ترسل نورا ولا تهدى إلى خير .

لقد أقبل الفقهاء على الجوانب الأمينة التى لا ترهب حاكما ولا تغضب حاشية ولا تحمل صاحبها مسئولية الجهاد وقسوة الكفاح ، ولا تقدم للأمة زادا أو نورا يرشدها إلى سبل السلام ورضوان الله ، وأخذ الفقه يتحول شيئا فشيئا من قوة تشريعية حية نامية متطورة تنظم صلات الحاكم بالمحكومين ، وتقيم حدود الله وتنفذ شرائعه وتحفظ قلب العالم الاسلامى بما تقدمه اليه من نظم اجتماعية ومالية متطورة ومثاليات خلقية وأدبية صاعدة ، ومن دعوة الى الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وجهر بكلمات الحق فى وجه القوة أيا كان بأسها أو سطوتها ، إلى قوة تفنى نشاطها فى أبواب جانبية من حواشى الفقه وافتراضاته حتى لنرى عملاقا من عمالقة الفقه ، هو « أبو الحسن الأشعرى » يخطىء فى بدهيات السياسة الشرعية ، وبدهيات فلسفة الحكم ودستوره ! فيقرر أن البيعة من الأمة للامام بالولاية تتم ولو بفرد واحد (١) ، وبذلك يحطم هذا الامام الكبير ارادة الجماهير ، ويهدر رغباتها ويطفىء أكبر مصباح مضىء فى الأفق الاسلامى ... أفق الشورى وأمانة الحكم ، الذى يبنى عقده على البيعة العامة : أى الانتخاب العام المباشر .

وتبعا لهذا الموقف من الفقهاء ورجال الفكر والدعوة – وهم يمثلون فى العصور السابقة ما تمثله اليوم الصحافة والمجالس التشريعية – ابتدأت قوى الوعى فى الجماهير تتضاءل وتتوارى مختنقة بهذا الغبار ، غير مبصرة وقد انتشر هذا الضباب الحالك السواد .

---

(١) الخلافة والامامة العظمى : للسيد رشيد رضا ص ٢٠ .

ومس العالم الاسلامى داء الشعوب الماضية ، داء كل حضارة مترفة على قمتها ملكية مستبدة ، وأخذت مصابيح الحريات تنطفىء مصباحا فمصباحا ، والأجهزة التشريعية الاسلامية تتفكك جهازا فجهازا ، وحقت كلمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ... لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ... » .

وفى رواية البخارى عن أبى هريرة :

« لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ، فقال : ومن الناس إلا أولئك » .

ودخل المسلمون جحر الضب الضيق القاتل ، ولم يبق لهم ما يعصمهم من الزوال الا قوة عسكرية كانت تتضخم وتحيا بما يتدفق عليها من أمم خشنة باسلة ، كانت تقبل على الاسلام مؤمنة به فى موجات تاريخية دافقة ، وبقايا من وعى الجماهير تبزغ ثم تتوارى ، كما يحدثنا التاريخ عن هؤلاء الذين أفزعهم أمر العالم الاسلامى ، فاجتمعوا فى مؤتمرهم ، وأوفدوا الى المأمون رسولا يجابهه بكلمات الله وحقوق الشعوب وينظر فى موقفه منهما .

« روى يحيى بن أكثم أن المأمون جلس يوما للمناظرة فدخل عليه على ابن صالح الحاجب ، فقال : يا أمير المؤمنين رجل واقف عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ، ويطلب الدخول للمناظرة . فقال المأمون : ائذن له ،

فدخل عليه رجل عليه ثياب شمرها ، ونعله فى يده . فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فقال المأمون : وعليك السلام . فقال : أتأذن فى الدنو منك ؟ ... قال : آذن . فدنا . ثم قال له : اجلس ... فجلس . ثم قال : أتأذن فى كلامك ؟ ... فقال : تكلم لما تعلم أن لله فيه رضا . قال : أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته ، أبإجماع من المسلمين عليك ورضا عنك أم بالمغالبة ، لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ ... قال : لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى حمده المسلمون ، إما عن رضا وإما عن كره . فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضر من المسلمين فأعطوا ذلك إما

طائعين أو كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على هذا السبيل الذى مضى عليها . فلما صارت الى علمت انى احتاج الى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الاسلام ، وانتقصت أطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ولم يجاهد أحد فى سبيله ، ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ومجاهدا لعدوهم وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم الى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم عليه على الرضا به ، فأسلم الأمر اليه وأكون كرجل من المسلمين ، وأنت أيها الرجل رسول الى جماعة المسلمين فمتى اجتمعوا على رجل ورضوا به خرجت إليه من هذا الأمر ، فقال : السلام عليك ورحمة الله ، وقام ... فأمر المأمون على بن صالح بأن ينفذ فى طلبه من يعرف مقصده . ففعل ذلك ثم رجع وقال : وجهت يا أمير المؤمنين من تعقبه الى مسجد فيه خمسة عشر رجلا ، فقالوا له : لقيت الرجل ؟ ... فقال : نعم ، قالوا : فما قال لك ؟ ... قال : ما قال إلا خيرا . ذكر أنه ناظر فى أمر المسلمين الى أن تؤمن سبلهم ويقوم بالحج والجهاد فى سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا يعطل الأحكام ، فإذا رضى المسلمون برجل سلم الأمر إليه وخرج اليه منه . قالوا : ما نرى بهذا بأسا ، وافترقوا ».

وهى رواية تاريخية ترشد الى أن المسلمين مع بأس الضربات التاريخية التى عصفت بهم ، ومع ما أصيبت به الفكرة الاسلامية من جروح على أيدى الغاصبين للحكم الواثبين على الولايات بغير حق ، ومن ضعف وجمود على أيدى الفقهاء الجدليين ، لم تفارق الجماهير روح الاسلام ... روح الشورى واليقظة والفهم الصحيح لرسالة الحكم : حتى ليأتى رجل من عامة المسلمين فيقتحم على المأمون أريكة ملكه وصولة بأسه ، فيسأله عن هذا الكرسى الذى يجلس عليه ليحكم بين المسلمين ، هل أخذه بحقه ... ببيعة عامة ... برضا منهم ... أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم ؟ ! ! ! .

وكان المأمون صريحا : فأجاب بأنه ولى الحكم وراثة ومبايعة ، وأنه لو تخلى عنه لتفرقت كلمة المسلمين ، واضطرب حبل الاسلام وانتقصت أطرافه

وعمته الفتن ، فتتعطل حدود الله وتهمل شرائعه وتقف دعوته العامة ؛ لأن الناس لابد لهم من راع ، والأمة لا تقوم الا بقائد ، وإنه ليمسك بالزمام حتى يجتمع المسلمون على رجل سواه إن أحبوا واختاروا .

ويعود الرجل إلى صحبه الذين أوفدوه حاملا لهم رسالة المأمــون وحجته وترى تلك العصبة فى كلماته اقناعا أو ما يشبه الاقناع إن لم يكن تاما وشافيا فهو منطق الأمر الواقع ، وأهون الضررين وأخف الشرين .

وبفساد الحكام الاسلاميين وانحرافهم عن الشورى ، وابتعادهم عن روح الاسلام ، وبجمود الفقه وعدم تطوره وملاءمته للمجتمعات المتطورة المتحركة ، وبقعود رجال الدعوة والارشاد عن واجباتهم ؛ حدث الانهيار فى العالم الاسلامى ،وابتدأ يتخلى عن رسالته العالمية كقوة إيمانية تحمل رسالة ، وتبشر بدعوة وتقدم للإنسانية تشريعا ونظما وزادا وخيرا .

وأخذ يتوارى كقوة حربية منتصرة ، لها بأسها الشديد ، وكلمتها العالمية فى المجتمعات الدولية ؛ بل أخذت هذه الجامعة الضخمة الهائلة ، التى تحتل قلب الكوكب الأرضى ، ويمتد نفوذها وسلطانها الى أطرافه وتخومه ، تتحول الى قطع متناثرة وأمم ممزقة ، وشعوب خامدة ، جامدة خاملة .

وابتدأ المد الحضارى ينحسر عنها ليغمر أمما أخرى فى الجانب الغربى من هذا الكوكب ، أمما ما لبثت طويلا حتى وثبت على الشعب الضعيف المريض فورثته وابتلعته وأذلته ، وضربت على عينه بسحرها ، وعلى قلبه بشهواتها ، وعلى وجوده بقوتها .

ولن يعود مجد الاسلام ، ولن يبعث المسلمون كقوة عالمية الا يوم يعود الحكم الاسلامى بشرائعه وقواعده وحرياته ونظمه وما فيه من عدالة ومحبة ، وتكافل تام بين الحاكمين والمحكومين .

يوم يعود الحكم الاسلامى توجد الأمة الاسلامية ، وتقوم شريعة الله كاملة كما ارتضاها لعباده واصطفاها .

يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وتعود راية الايمان خافقة عالية ، تعود عزيزة منتصرة كما كانت ، يوم كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

وفى السنن أن أحمد بن حنبل كان يقول :

« لو كانت لى دعوة مستجابة لدعوت بها للسلطان »

ويقول الامام ابن القيم تعقيبا عليها :

« لأن السلطان لو صلح لصلح المسلمون » ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول :

«صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس ، الأمراء والفقهاء » .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ... قيل : يارسول الله ، وما إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » .

وكلمة الصادق الأمين ، ميزان صادق أمين ، فالحكم إذا فسد أشرفت الدنيا على الزوال ، لأن فساده كفيل بخراب الأرض

٩
سياسة الحكم فى الدولة الاسلامية

صلة الدين بالسياسة :

فى أذهان الناس أوهام ضخمة عن الحكومة الاسلامية ، وتهاويل غامضة مهتزة حول سياستها ومبادئها ونظمها .

أوهام أسهم فى تكوينها ضعف المسلمين وجمود الفقهاء وغموض التاريخ والبهرج المتلألىء الذى سحرت به أوربا أعيننا ؛ فلم نعد نبصر فى برقه رسالات الاسلام . وتهاويل نسج أعلامها ورسم آفاقها المتعصبون بجهالة ، والمستعمرون وتلاميذهم ، والمغرضون المحاربون للاسلام حربا تاريخية تقنعت بكل صورة وتوارت وراء كل لون .

وفى طليعة الأوهام والتهاويل صلة الدين بالسياسة وعلاقته بالحكم ، وموقفه من الحاكمين .

والعالم الاسلامى وهو يخطو اليوم علي البرزخ الفاصل بين الموت والحياة ، تحلق فى سماواته فكرتان متعارضتان فى عنف وجموح .

تنادى أولاهما بأن الاسلام « دين ودولة ورسالة وشريعة » وان السياسة التى تهيمن على أفقه يجب أن تكون سياسة دينية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معان ، وبكل ما يتبعها من قيام حكومة دينية وحكام دينيين .

وحجتها على ذلك ، منطق القرآن ومنهج السنة والتطبيق التاريخى فى صدر الاسلام ، وبرهان متلألىء ناطق بأن العالم الاسلامى ، لم تتمزق ألويته ولم تهدر مقدساته الا منذ انفصل الدين عن الدولة ، وتخلى التشريع عن التوجيه والقيادة .

وتهتف الثانية ، بأن الاسلام دين تعبدى ، ينظم صلات الانسان بفاطر السموات والأرض ، ورسالة أخلاق ومثاليات تأمر بالبر والتقوى ومكارم الأخلاق ، ثم يقف هديه عند هذه الحدود ، فلا شأن له بعد ذلك بسياسة الحكم ونظمه وفنونه ، وما يلزم له من كياسة ومرونة ودبلوماسية ، ولا علاقة له بالتشريع والمعاملات وما يضطرب فيه الناس من شئون الحياة ونظمها المتطورة المتأثرة بما يحيط بها وما يجاورها من حضارات وثقافات .

وحجتها أن الحكومة الدينية مؤسسات تاريخية انقضى عهدها ، فقد تقدمت المعارف البشرية خطوات ، وكسبت البشرية حريات واسعة الآفاق ، وفرضت الآلات والمجتمعات العمالية والتطورات الاقتصادية على الحياة ألوانا من النظم والقوانين لا تتسق مع التزمت الدينى ، والدكتاتوريات الشرعية المقدسة .

وفى حقائب التاريخ أكداس هائلة من جبروت هذه الحكومات وطغيانها وما صبته من عذاب غليظ على شعوبنا ، والمسلمون أنفسهم ذاقوا مرارة هذا اللون من الحكم المقنع بالقداسات ، اذا استثنينا عهد الراشدين من الخلفاء المهتدين ، ويرجع هذا الاستثناء الى كفاءات خاصة ومناسبات شاذة أحاطت بهؤلاء الراشدين ، وليس فى طاقة التاريخ أن يمنحنا دائما حاكما رشيدا ، أو يهيىء دائما مناسبات شاذة .

وكل فكرة من الفكرتين تتسم بالجموح والتطرف . وتنقصها الدقة العلمية والفهم الكامل اليقظ لرسالات الاسلام وهديه ، والتحديد الدقيق للصلات المقررة فى الاسلام بين الدين والدولة ، والروابط المتكافئة بين التشريع والحكم .

أما أن الاسلام « دين ودولة ورسالة وشريعة » فهذه بدهية من بدهيات الاسلام مهما حاول المحاولون التمزيق والتفتيت ومهما ساقوا من بهرج وزيفوا من ألحان .

فالقرآن الكريم تهتف آياته وتنادى بلسان عربى مبين ، بأن الاسلام « دين ودولة وتشريع وحكومة » ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه - بالمتواتر المتصل من الأحاديث والسير - لم يكن مرسلا بالأخلاق ومكارمها والعبادات وفرائضها فحسب ؛ بل كان صلوات الله وسلامه عليه ، مشرعا وقائدا وحاكما ومنفذا لحدود الله ، ومهيمنا على شئون الحكم ومقتضياته.

ولعل أوضح الخطوط الرئيسية فى الاسلام أنه دين تنظيم وتنسيق كأدق ما يكون التنظيم ، وأكمل ما يكون التنسيق . دين قيادة وتوجيه لكل شأن من شئون الحياة ، دق هذا الشأن أو تضخم سموقا وهبوطا ، حتى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليأمر أصحابه : إذا سافر ثلاثة فأكثر أن يؤمروا عليهم أحدهم ليقوم بأمرهم وينظم حياتهم وينسق تصرفاتهم .

دين وحدة وتكافل وتعاون ، فكل مسلم يجب أن يلزم جماعة المسلمين وأن يشترك برأيه وعقله فى انتخاب إمام لهم ، وفى نسج دروعهم ، وتزكية أرزاقهم ودفع العدوان عن بيضتهم ، ومن فارق الجماعة شبرا فمات ؛ مات ميتة جاهلية كما روت الكتب الصحاح .

وكل مسلم فى الأمة الاسلامية عليه تبعات وله واجبات ، كل راع وكل مسئول عن رعيته ، فالامام راع للأمة ، والأب راع لأبنائه ، والزوجة راعية على بيت زوجها ، والموظف راع على ما أسند اليه واستؤمن عليه .

« كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

ولقد أدار المسلمون وجودهم منذ فجر تاريخهم على أن دينهم رسالة وشريعة ونظام عام للحياة .

وعلى كل مسلم أن يؤمن بأن التشريع والحكم فريضتان اسلاميتان ، كما يؤمن بفرائض الصلاة والصيام وشهادة أن لا إله إلا الله ، فلن تتم الصلاة ، ولن تكون كلمة التوحيد إلا بحقها ، وتمام هذا وذاك بأن تنفذ شرائع الله ، وان يكون الحاكم رقيبا على تنفيذها .

ولكن ما علاقة الدين بالدولة ؟ وما مدى صلة الاسلام بالسياسة ؟ من هنا وقعت الفكرتان فى الخطأ ، ومن هنا نشأ الايهام التاريخى الذى تضخم فأنتج هذا الخلاف فى الفكرة والمنهج .

لقد جاء الاسلام دينا محكما للناس كافة ، فاتسعت آفاقه لكل الأجنحة المحلقة على اختلاف ألوانها وقواها ، وعلى اختلاف أجوائها وبيئاتها ، واشتملت قواعده على مرونة تدور مع الحياة ولا تقف ، وينبثق منها الهدى والخير ، لا يغيض لها نبع ، ولا يلتوي بها قصد .

دين ارتضاه الله ليكون الختام العاطر المضىء لجامعة الرسل ، ومهيمنا على الشرائع الالهية كافة ، فأودع سبحانه فيه خصائص الامتداد التاريخى ، وشأن الحركة المتطورة ، التى تدور مع مصالح الناس وتتمشى مع خطوهم الحضارى .

لهذا لم يشرع الاسلام لأتباعه نظما مفصلة للحكم وما يتعلق به من مناهج ادارية ومقومات سياسية ، ولو فعل الاسلام هذا لتناقض مع رسالته ، ولكان دينا اقليميا محدود الآفاق موقوت الحياة ، ولكان دينا ضيقا لا سعة فيه ولا رحمة ، يحجر على العقول أن تفكر فى أمور حياتها ، ويحجر على

الحياة أن تتطور وتتمشى مع الناس ، ويحكم على أتباعه بالعيش داخل قماقم لا ترى النور ولا تسهم في الوجود .

ومن هنا جاء الجانب التعبدي في الاسلام مفصلا محددا مبينا . لأن العبادات أوامر إلهية مطاعة لا شأن للعقول بها ولا رأى للناس فى طرائقها ونهجها ، وهى لا تتعلق بزمان ، ولا تخضع لمكان ولا تلين إلا لقاعدة واحدة : هى قاعدة الضرورة التى تهدد الحياة ، وهنا يأتى التيسير والتخفيف حينا ، والاباحة الكاملة أحيانا .

ولكنه جاء فى شئون الناس وما يتعلق بحياتهم - من معاملات وسياسات ونظم - بكليات عامة وخطوط عريضة ، وترك التفصيلات والجزئيات والفروع للعقول تبتدع وتفكر وتنظم شئون الحياة على ضوء المصالح العامة ، وبمقتضى التطور الزمنى والامتداد الحضارى . يقول الاستاذ خلاف فى كتابه « علم أصول الفقه » :

« ومن استقرأ آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية ؛ لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدى لا مجال للعقل فيه ، ولا يتطور مع البيئات . وأما العبادات والأحوال الشخصية ؛ من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية ، فأحكامه فيها قواعد عامة ومبادىء أساسية ، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا فى النادر ؛ لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح . فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادىء الأساسية ؛ ليكون ولاة الأمر فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم فى حدود أسس القرآن العامة من غير اصطدام بحكم جزئى » .

جاء الاسلام بقواعد عامة لسياسة الحكم ، قواعد تتسق ورسالته الخلقية والاجتماعية والايمانية ، فى طليعتها العدالة المطلقة التى لا تعرف التحيز ولا المفاضلة ؛ حتى فى نظرات الأعين الغاضبة أو الرحيمة ، وحركات الايدى المنذرة والمؤيدة .

أمر الاسلام الحاكم بأن يكون عادلا لا تنال من عدالته مؤثرات الحياة ، من هوى أو قربى أو مصلحة شخصية بل :

« ... لا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ... » .

فالعدل هو التقوى ، وهو شريعة الله وروح الكون .

أما تنظيم الوسائل التى تؤدى الى العدل وتكفل العدالة وتحقق الانصاف وتقيم الصراط من نظم التقاضى ووسائل التنفيذ ومناهج التنظيم ؛ فأمر متروك للناس والعقول والعرف والعادات والزمان المتحرك والحياة المتطورة .

ومن قواعد الاسلام الكلية فى الحكم ، أن الحكم شورى بين المسلمين ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، إخوة لأم وأب ، وأن الحاكم لا يصل الى الحكم بالغلبة أو الوراثة ، وانما بالانتخاب العام الذى عرفه المسلمون بالاصطلاح التاريخى : البيعة العامة .

أما طريقة الانتخاب ونظم المبايعة ونهج الشورى ، فللعقول أن تديره وتسوسه بما تشاء من وسائل ، وبما يتفق مع لون حياتها ويتسق مع ما وصل اليه ركب الحضارة العالمى .

ومن قواعد الاسلام الكلية أن الحاكم رقيب على تنفيذ شرائع الله وحدوده ، عامل على نشر الدعوة الاسلامية والمحافظة على جوهرها ورسالتها .

أما كيفية التنفيذ وطرائق المراقبة ووسائل نشر الدعوة ، فمتروك للاجتهاد والاستنباط ، وما يجتمع عليه رجال الفكر وأرباب العقول .

فالسياسة فى الاسلام على هذا الضوء المبين سياسة مدنية حرة التصرف ، حرة الاجتهاد فى نطاق عام متسع الآفاق مرن الجنبات ، من القواعد والكليات .

ووظيفة الحاكم الاسلامى بشقين : شق يتصل بالدين فى كلياته العامة وخطوطه الرئيسية . وشق - وهو الأكبر - يتصل بالحياة المدنية ويدور مع المصالح المرسلة ، ويتحرك مع التطور التاريخى .

والحكم من الوجهة الدينية : عدالة وشورى واشراف على تنفيذ شرائع الله وحدوده ، ومن الوجهة الدنيوية : حكم مدنى مستكمل للشروط المدنية كافة ... حكم مرن متطور يراعى العرف والعادة ، كما يراعى مصالح الناس المتحركة ، ولون الثقافات المحيطة به ، وطابع الحياة التى يدور فى فلكها .

فالاجتهاد والابتكار هما محور الحياة الاسلامية «السياسية والادارية» ومن هنا نفقه قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

« اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » رواه مسلم .

والحديث آية الآيات على حرية العقل الانسانى واجلاله واحترامه : بل لقد جعل تلك الحرية فريضة على العقول حتى تبدع وتنشىء ، وقد أمتها بالزاد الحى النابض بالقوة فى كل مرفق من مرافقها غير مقيد اليدين ولا مكبلهما بقيود التزمت وسلاسل الجمود ، وتزداد الحرية درجة فى السموق ؛ فيؤمنه الرسول أمانا علويا من خوف الخطأ إذا حسنت نيته ، فيجعله حتى فى خطئه مثابا ومأجورا .

يقول العلامة السيد محمد بيرم [1] .

« وكبار العلماء متفقون على أن ما يتعلق بالعبادات من أحكام الدين هو الذى لا يقبل التغيير بوجه ، أما ما يتعلق بالسياسة والادارة فليس كذلك . ولقد قرر الامام « أبو عقيل » : « أن للحكومة أن توسع مجال نظرها السياسى فيما ليس منصوصا عليه ، وأن لا تتوقف فيما لم تغين الشريعة حكمه ، ولقد أجمع العلماء على أنه حيثما وجدت طرق توصل الى الحق واقامة العدل فهناك حكم الله ، سواء كان مصدر ذلك نصوص الشرع أو معارف البشر ، وقد أمرنا الله سبحانه باتباع الطريق الأنجح ، ونهانا عن سلوك غير السبيل الأصلح » .

ويقول الامام القرافى [2] العلامة المالكى المجتهد :

« ان التوسعة على الحكام فى الأحكام السياسية ليس مخالفا للشرع : بل تشهد له القواعد » .

ومن جملتها أن الفساد قد كثر وانتشر بخلاف حاله فى العصر الأول ، ومقتضى ذلك اختلاف الأحكام - بحيث لا تخرج عن الشرع - ويوافق هذا قول عمر بن عبد العزيز :

« تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور » .

وكما يقرر العلامة الاسلامى الكبير عز الدين بن عبد السلام :

(١) الاسلام والاصلاح ١٧

(٢) مدارك الشريعة الاسلامية ص ١٦

«...تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات»
ثم يقول :

« ويتصرف المسلمون فى الأحكام على نهج المصالح ، فإذا أدركوا المصلحة فى العمل بالقول الضعيف ، أخذوا به وتركوا ما هو مشهور حيث كان مجردا عنها ، قال « أبو على المسنادى » .إذا جرى العمل بمن يقتدى به بما يخالف المشهور لمصلحة وسبب ، فيعمل بما يتفق مع المصلحة ، وإن كان مخالفا للمشهور » .

فالاجتهاد وحرية العقول ، والتمشى مع مصالح الناس ، هو القاعدة المقررة فى الاسلام لسياسة الحكم ووسائله ، أو كما يقول الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز :

« تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور » .

وكما يقرر العلامة الاسلامى الكبير عز الدين بن عبد السلام :

« تحدث للناس أحكام بقدر ما يحدثون من السياسات والمعاملات»، ويتصرف المسلمون فى هذه القضايا على نهج المصلحة العامة ، فأينما وجدت المصلحة العامة ، فثم سياسة الاسلام حكما وتشريعا .

فالحكم فى الاسلام يدور مع خير الناس ومع ما يكفل سعادتهم وقوتهم ، ولا تجمد تلك السياسة ، ولا يقف هذا النمو ؛ بل هو تابع للحاجة ، متطور مع الحضارة .

ولقد فهم المسلمون فى صدر الاسلام هذا ، وعرفوا أن لهم أن يأخذوا بما هو نافع لهم من مقومات الملك ، لأنه منوط بالمصلحة التى يقتضيها التيسير على المسلمين ، وتستلزمها حاجة الدولة ، فأخذوا أصول الحكومة الادارية عن الفرس – كتدوين الدواوين ، ومسح الأرض واحصائها ، ووضع الخراج عليها – واقتبسوا من كل الأمم التى فتحوها نظما ادارية واستفادوا بها ، وسياسات تنظيمية طبقت فكانت من مصادر قوتهم ومن دعائم وثبتهم ، كما فهموا أن كل اختلاف على مسائل الحكم ووسائله وسياساته يجب أن لا يزج باسم الدين فيه ، لأن هذا اللون من الاختلاف من شئون الناس ومن صناعة العقول ومن فطرة الحياة .

ولقد طبقوا فى صدر الاسلام هذا الفهم تطبيقا واسعا شاملا ، فقد اختلفوا فيما بينهم على الحكم وسياسته ونظمه ووسائله اختلافا دنيويا سياسيا غير ملون بعصبية الدين أو مقيدا بإيمانياته وتعبداته .

اختلف أبو بكر الصديق مع علي بن أبي طالب في شأن الخلافة ومكانة البيت النبوي منها وأحقية علي فيها .

واختلف أبو بكر وعمر بن الخطاب مع علي وأهل البيت جميعا في ميراث النبي الذي طالبت به السيدة فاطمة بنت النبي ومنعها أبو بكر وعمر منه .

واختلف أبو بكر مع ابن الخطاب في الأعطيات المقررة في بيت المال للمسلمين ، لقد أرادها الصديق على المساواة الكاملة بين المؤمنين جميعا ، ولم يرض عمر برأي الصديق وعارضه طوال خلافته .

فلما تولى الخلافة غير سياسة الحكم المالية من قواعدها ، وأعطى الناس مرتباتهم الشهرية حسب أسبقيتهم في الاسلام وقرابتهم من رسول الله.

واختلف أبو بكر مع عمر في أمر خالد بن الوليد في حروب الردة ، وقتله مالك بن نويرة وزواجه من زوجته ، فقد رأى أبو بكر أن خالدا اجتهد فأخطأ ، ولهذا دفع دية القتيل من بيت المال ؛ ورأى عمر أن خالدا قتل في غير شبهة وتزوج في شهوة ، فوجب القصاص منه .

واختلف عمر ومن معه مع فريق كبير من الصحابة في أمر الفيء ، فقد طالب المحاربون بأن تعطى أرض العراق والشام للجنود الذين فتحوها بسيوفهم تطبيقا للأمر القرآني بأن الأرض لهم ، ورأى عمر ومن معه أن من المصلحة العامة أن لا تقسم الأرض بين المقاتلين ؛ بل تبقى ملكا للدولة وتضم غلتها لبيت المال ، ولتكون قوة وعونا للمسلمين جميعا .

واختلف علي ومن معه ، مع عثمان بن عفان في أمر عبيد الله بن عمر عندما قتل الهرمزان ، لاعتقاده أنه المدبر لجريمة قتل أبيه الخليفة الشهيد فرأى علي ضرورة القصاص منه ، لأن البينة لم تقم ، ولأن القصاص من السلطان الحاكم الذي هو ولي الدم ، ورأى عثمان ومن معه أن عمر قد قتل بالأمس فكيف يقتل ابنه اليوم في قصاص استعجل فقام به ولم يتركه لولي الدم ولي الأمر ؟ ! .

وخالف عمر بن الخطاب فى سبيل المصالح العامة ما جرى عليه الرسول وما جرى عليه المسلمون فى عهد الصديق ، وما نص عليه القرآن فى أمر المال الذى يعطى للمؤلفة قلوبهم توددا لهم واستعانة .

وهكذا اختلف المسلمون فى كبرى المسائل التى تمس حياتهم السياسية بل والتشريعية أوثق مساس ، فما كفر بعضهم بعضا ، ولا جرح بعضهم بعضا ، ولا تقاذفوا بينهم بكلمات الفسق والكفر والمروق .

لقد علموا - وهم أعلم الناس بالاسلام - أن اختلافهم فى السياسة ، اقتضاه اختلاف العقول ، واختلاف طرائق الاجتهاد وفطر الناس وتطور الحياة ونموها ومقتضيات هذا التطور والنمو ، فلم يزجوا باسم الدين فى المعترك ، ولم يطلقوا صيحة مرعدة بالغضب فوارة بالدم باسم القرآن والايمان .

ثم توالت على المسلمين العصر ، ونشأت حكومات استبدادية ، وضعف أمر الاجتهاد ، وانطفأت مصابيح الحرية ، فنشأت فى الظلمات أوهام خاطئة حول علاقة الدين بالسياسة وصلاته بالحكم ، وكان هذا الخطأ فى الفهم والتطبيق كارثة المسلمين التاريخية .

لقد نشأ الحكم فى الاسلام ، ودارت سياسته على أن الخليفة هو رأس الدولة الاسلامية . المهيمن على شئونها الادارية و السياسية ، والمنفذ أيضا لشرائعها وحدودها ، فلما ضعف المسلمون اختلطت المهمتان : مهمة الحاكم كمنفذ للشرع ، ومهمته كحاكم ادارى ، وامتزجت بسبب ذلك السياسة بالدين ، امتزاجا أدى بالحكم الى الاستبداد والجمود ، ونشأت تبعا لذلك ، فكرة الخضوع المطلق للحاكم الديني الذى تجب له الطاعة .

وأعقب هذا أن العالم الاسلامى بدلا من أن تبزغ فيه أحزاب سياسية ، تتطور بحياة المسلمين الفكرية والعلمية ، وتقيم معارضة منيرة واعية فى وجه الحاكم ، بزغت فى أفقه فرق دينية متعصبة أججت فى محيط العالم الاسلامى نيران الحروب والفتن والثورات .

ولقد تطورت الأحزاب السياسية التى نشأت فى صدر الاسلام - على أساس اختلاف وجهات النظر السياسية والادارية والاجتماعية - بين قوم مجتهدين مستنبطين مجددين ، الى فرق دينية متطرفة متنابزة ، تقتات الحقد وتحترف الدسائس وتشيع بين صفوف المسلمين الاضطراب والفوضى .

انقلب حزب علي السياسي الذى كان يناصر البيت الهاشمي ، ويرى فى علي كفاءات ليست فى غيره الى فرقة دينية ضخمة ، عرفتها القرون الأولي باسم الشيعة ، ثم عرفها التطور التاريخي مقنعة بألوان وصور لا عداد لها .

وانقلب الحزب الجمهورى الذى نشأ فى البادية ونادى بأن الحكم فى ذروته العليا - الخلافة والامامة - حق مشاع بين المسلمين جميعا وليس لقريش خاصة ؛ إلي نحلة دينية حمل لواءها الفكرى المعتزلة وحمل علمها الحربى الخوارج بوثباتهم الحمراء الدامية .

وهكذا بزغت الفرق ونجمت النحل : من باطنية ومرجئة وقرامطة وغيرهم . وغرق العالم الاسلامى فى طوفان غضوب جامح من الجدل والحوار والثورات الدموية التي مزقت وحدته ، وأهدرت قوته ، وكانت السبب الأكبر فى أنهيار أممه وسقوط دوله وجمود مجتمعاته الشعبية وتخلفها وعزلتها عن تطورات المجتمعات العالمية .

ولا تزال تلك البلبلة الدينية تعيش بيننا ، وتنمو فى مجتمعاتنا ، وينجم من خلال سحبها السوداء قرن الشيطان .

لقد أساء المسلمون فهم صلة دينهم بالحياة فزجوا باسمه فى كل شأن من شئون وجودهم ، وأصبحوا يستفتونه فيما ليس من اختصاصه ، ويحملونه ما ليس من رسالته ، حتى ليحدثنا التاريخ عن جماعات كانت تقاوم التجديد الحربى فى الجيوش الاسلامية باسم الدين ، وتخاصم الصناعات بكلمة الايمان ، ويروى لنا أنباء فقهاء حاربوا كل إصلاح باسم التقوى ، وكل تطور للخير بلحن القرآن الكريم .

وصار من سنن المسلمين أنهم لا يقبلون جديدا أو تطورا أو اصلاحا الا إذا استفتوا فيه شهواتهم أو شهوات حكامهم ، ثم يزعم المفتون منهم والمتصدرون أنهم يستفتون الايمان والدين ، حتى لقد رأينا الآيات القرآنية يستشهد بها على الغرضين المتناقضين ، والأحاديث النبوية تستنبط مدلولاتها - على زعمهم - فتعطى الحجتين المتباينتين .

وأصبح الدين حرفة وصناعة ، وذهبت معانيه السامقة ، وانطفأت مصابيحه وخبت أنواره ، وأهملت مقدساته ، ولم يبق منه الا حوار باللفظ ، وتنطع باللحن ، وجمود وخمول وخمود ، وتعصب أعمى غليظ الجهل،غليظ المنطق،غليظ البينة .

وأعقب ذلك هوس مريب أعمى بالدين واسمه ، هوس تعبدى بالألفاظ والصيغ وصل الى حد الفتنة والاجرام ، وهوس يشكك فى كل شىء ، وينفر من كل شىء حتى انتهى الى وسوسة مقيتة تفوح منها رائحة الموتى .

وامتد هذا الهوس العجيب المريب الى العلوم الاسلامية ، حتى رأينا من يدرسها بألفاظ بعينها لا يرضى عنها بديلا ؛ لأنها من مقدسات الماضى وتراث السلف الصالح ، فأماتوا بهذا الجمود علوم الفقه والتفسير والحديث وهى مصابيح الاسلام الكبرى .

واستتبع هذا أن نفر فريق من رجال الفكر من هذا الهوس الدينى نفورا بلغ من عنفه وتمرده أن ابتعد أصحابه عن نطاق الدين الذى خالوه جمودا وتزمتا وقعودا فى القماقم ، وعبادة فى الشكليات ، ومنطقا لا يطابق الواقع ولا يمشى مع الحياة .

وكان ختام ذلك كله أن هان الدين فى النفوس ، واختلطت صوره فى العقول ، وبهتت معانيه فى القلوب .

لقد صبغوا كل شىء فى الدنيا بصبغة الدين ، فكان الجواب الطبيعى أن مرق كل شىء فى دنيا المسلمين من الدين .

ولكى نعيد الى الدين قداسته يجب أن نقضى على هذا الهوس المريب ولكى نقيم حكما اسلاميا يجب أن نحدد أوجه الالتقاء بين السياسة والدين وأوجه الاستقلال بينهما .

وبذلك نبعد الكهانة والقداسة عن دعاويهما ، ونحفظ للاسلام هيمنته على السياسة ، وللتشريع سيادته على التقنين ، وللحكم حريته واستقلاله واجتهاداته وتطوره مع المصالح العامة ، واستفاداته من الثقافات والحضارات البشرية فى ظل القواعد والكليات والمبادىء الاسلامية .

هذا هو الوهم الأول المحلق بأجنحة الغموض فى الأفق الاسلامى .

١٠
هل الخلافة فريضة اسلامية

والوهم الثاني الذي ورثناه من التاريخ البعيد ، وكبر في صدورنا حتى طمس كل الحقائق : هو الايمان بأن الحكم الاسلامي هو عودة الخلافة بنظامها ومبادئها وهيكلها التاريخي القديم ، باعتبار أن قيامها بين المسلمين فريضة مقدسة لا محيص عنها ولا حياة بدونها .

وهو تفكير وايمان مبعثه الجمود اللفظي ، والتعلق الغريب بكل قديم ضارب في أعماق الماضي ، ومحاولة لاضفاء الصبغة الدينية على صور الحياة وألوانها بحق وبغير حق .

لقد كان الاسلام صريحا مبين اللحن ، وهو يرسم الأفق العام للحياة الاسلامية ، فقرر فيما قرر ، أن من سنن الله في عباده ، أن لا تقوم دولة ولا تنهض أمة الا بحكومة عادلة ونظام محكم ، فواجب المسلمين أن لا يبيتوا ليلة إلا ولهم حكومة قائمة ، وعلى رأس هذه الحكومة إمام أو حاكم أعلى يسوس أمورهم بالعدل ، ويحكم بينهم بالشورى ، وينفذ بينهم شرائع الله .

هذه هي الكلية العامة ، وعلى المسلمين أن يطبقوا روح هذه الكلية بالصورة التي يرتضونها وبالاسم الذي يحبونه ، وبالتطور الملائم للتقدم البشري ، المتسق مع معارف الزمان والمكان وسنن العرف والعادة .

لقد قامت الخلافة في صدر الاسلام كنظام اقتضته ضرورة الحياة الاسلامية بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان في حياته المباركة ملء أبصار المسلمين وقلوبهم ، وحاكمهم وإمامهم ومشرعهم وقائد حربهم وقاضي أمورهم ، ومدبر سياستهم ، فلما لحق صلوات الله عليه وسلامه بالرفيق الأعلى ، صدم المسلمون وزلزلوا ، فقد انتقل الأمر إليهم فجأة ، ولم يكن للعرب قبل الاسلام حكومة منظمة ولا سياسة مرسومة ، وليست لهم عراقة في الفنون الادارية والشئون المالية .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة لم يتحدثا إلى المسلمين بنظام معين للحكم ينفذونه آليا ، ولم يرسما لهم طرائقه ووسائله .

وإنما تحدثنا - كما قلنا من قبل - عن الكليات والقواعد ... تحدثنا عن العدل والشورى ، وتركا للناس أن يديراهما على مقتضى المصالح العامة ، وتركا للعقول أن تدبر وتفكر وتبدع ، حتى لا تتعطل وظائف العقل ، وحتى لا تجمد شرائع الدين .

وعقد الأنصار اجتماعا سريعا فى سقيفة بنى ساعدة ، ونادوا بأن الحكم لهم ؛ لأنهم سيوف الاسلام وحماة فجره .

وهرع إليهم الحزب القرشى ، ممثلا فى أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح ، وبعد مداولات سريعة حاسمة اتفقت الكلمة على أبى بكر ؛ ليكون للمسلمين إماما .

لم نسمع فى هذا الاجتماع الحاسم كلمة من كلمات الخطباء دارت حول الاستشهاد بالقرآن أو السنة ، على ترجيح رأى على رأى ، وانما دارت الكلمات حول المنطق والمصلحة والحجة القائمة من واقع الحياة ، واختير أبو بكر لأنه كان كما قال عمر بن الخطاب : « صاحب رسول الله الأول ؛ وثانى اثنين اذ هما فى الغاز ، وأحب المسلمين الى قلوب المسلمين » .

وسمى المسلمون أبا بكر خليفة رسول الله ، وهو اسم أملته الظروف والملابسات ، وفرضه حب المسلمين ورغبتهم فى أن يربطوا حبالهم بحبل رسولهم .

ثم ولى الأمر عمر بن الخطاب فأخذ الصحابة يلقبونه بخليفة خليفة رسول الله ، فقال عمر : هذا أمر يطول ، وانما أنا رجل من المسلمين فأنا أميرهم ، وهكذا لقب عمر فى التاريخ بأمير المؤمنين .

فليست كلمة الخلافة اذن فريضة اسلامية أو ضرورة من ضرورات الحكم الاسلامى ، فليكن حاكم المسلمين ، أمير المؤمنين بلغة العصر الأول ، أو رئيس جمهوريتهم بلغة العصر الحاضر ، أو بأى اسم تبتكره نظم الغد اذا جاء الغد بألقاب ومسميات جديدة ، فالاسلام لا يعرف الألفاظ وانما يعرف المعانى ويحترم الجواهر .

لقد كانت الخلافة الأولى نظاما من أنظمة الحكم خلقته الضرورة وأوجده منطق الأمر الواقع نظاما سياسيا ارتضاه المسلمون ورأوه ملائما لحياتهم ،

مرافقا لبيئاتهم ، وليس على غيرهم أن يخضعوا له اذا تراءى لهم أن يغيروا من اسمه أو من وسائله وألوانه .

بقيت خديعة تاريخية أخرى ، فقد تواترت أحاديث نبوية ، روتها الكتب الصحاح بوجوب قيام امام المسلمين ، وبضرورة البيعة من المسلمين كافة لهذا الامام .

روى مسلم من حديث لابن عمر مرفوعا ، قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« من بات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

ولقد صرف رجال التاريخ هذا الحديث وإخوة له إلى معنى الخلافة وكلمة الخليفة واستنتجوا من ذلك فريضة الخلافة الدينية .

والحديث صريح فى أن المسلمين لا بد لوجودهم السياسى والدينى من حاكم يسوس أمرهم ، وينفذ حدود الله بينهم ، والحديث آية الآيات فى شورية الحكم شورية شعبية عامة ، فلا بد من انتخاب عام يسهم فيه كل مسلم برأيه وصوته : لأن البيعة هى اعطاء الرأى والصوت بالرضا والقبول .

ذلك هو الجوهر ، فلماذا نصر على صرف معانى الحديث الى الخليفة والخلافة . ولماذا لا نصرف هذا الحديث وإخوته الى الحاكم الاسلامى على الصورة التى تلائم حياتنا .

وأحاديث أخر رواها الثقات عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، تحدثت عن وحدة المسلمين العامة ، ولقد استغلت هذه الأحاديث أيضا فى تدعيم مكانة الخلافة بهيكلها التاريخى المكلل بالقداسة .

روى مسلم والنسائى من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من فارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عصبية ، يغضب لعصبة أو يدعو الى عصبة ، أو ينصر عصبة فقتل ، فقتلته جاهلية » .

المسلمون أمة واحدة ، هكذا يحب الله لعباده الذين ارتضى لهم الاسلام دينا ، وقوة المسلمين تنبثق من هذه الوحدة أو الجامعة ، فمن قاتل فى سبيل الله فقتاله تحت هذه الراية ، أما من قاتل عصبية لنصرة طائفة على طائفة ، أو لتمزيق شمل المسلمين ، أو لمأرب من مآرب النفس والهوى ، فقتاله

جاهلى ، وتتلته حين يقتل جاهلية ، ومن فارق الجماعة فقد أضر بالوحدة العامة وأوهن من قوى المسلمين فحياته ليست من الاسلام ، وإن مات فميتته جاهلية .

نظام محكم يكفل للأمة التى تدين به القوة والوحدة ، وعدم التمزق وتبديد القوى فى الخلافات الجاهلية والنزوات العصبية .

تلك هى الكلية العامة الواجبة الطاعة ، وذلك هو الخط العريض للوحدة الإسلامية ، ولكن النظم الخالدة تدور مع الزمان والمكان ، ولا تقف ولا تجمد ، فاذا جاءت ضرورة واقعية كونتها أحداث تاريخية - كموقفنا اليوم - فتمزقت وحدة المسلمين الى وحدات صغيرة تسمى دويلات ، واستقلت كل دويلة بشئونها ، أنصر مع هذا على قيام الخلافة العامة والخليفة الأعلى ونتجاهل الحقيقة الهائلة القائمة بيننا ؟ ! ! .

يقول السيد « صديق حسن خان بهادر » فى كتابه الروضة البدية (١)

« وأما بعد انتشار الاسلام واتساع رقعته وتباعد أطرافه . فمعلوم أنه قد صارت فى كل قطر الولاية الى إمام أو سلطان ، ولا ينفذ لبعضهم أمر ولا نهى فى غير قطره ، فلا بأس من تعدد الأئمة والسلاطين ، فان أهل الصين والهند لا يدرون بمن له الولاية فى أرض المغرب فضلا عن أن يتمكنوا من طاعته ، وهكذا العكس ، فاعرف هذا فانه المناسب للقواعد الشرعية ، والمطابق عليه الأدلة » .

إن المنطق الواضح السليم المتسق مع الاسلام ، هو أن حاكم المسلمين فى كل دولة اسلامية هو إمامهم وخليفتهم . ولا عبرة بالمسميات ما دام الحاكم منفذا لعدالة الاسلام ونظام الشورى ، وقائما على هدى شريعة الله ، ومحترما لحدودها .

ومن الكمال بعد ذلك ، ومن القوة والعزة والمنعة للمسلمين أن يسعوا الى الوحدة العامة بالصورة التى تلائم عصرهم وتتفق مع طبيعة حياتهم .

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، فى فصل : انقلاب الخلافة الى ملك :

---

(١) ص ٤١٣

« ان الخلافة كانت فى الصدر الأول الى آخر عهد على ، ثم صار الأمر الى الملك ، وبقيت معانى الخلافة ، وتحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغيير الا فى الوازع الدينى . كان الوازع دينيا ثم انقلب عصبية وسيفا ، وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباس ، الى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب الى غايتها » .

وابن خلدون هنا كالعهد به ، نفاذ بصر ودقة ملاحظة واستنباط حكيم ؛ فهو يتحدث عن معانى الخلافة تحت ظل الملك ، وأنها ظلت قائمة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق فى بعض العصور الأموية والعباسية ولم يتغير منها الا الوازع الدينى فى الملك ، كان فى الخلافة الأولى دينا ثم انقلب الى عصبية وسيف ، ثم تطورت السياسة فى أواخر العصر العباسى ، فذهب معانى الخلافة جملة ، ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا .

والاسلام لا يعرف الألفاظ وانما يعرف المعانى ، ونحن نريد الجواهر لا القوالب ، وإلا ... فهل يمكن أن نسمى الخلافة التركية فى عصورها الأخيرة مثلا ، خلافة إسلامية ... ؟

هل الخلافة لقريش خاصة ؟

ومن الأوهام التى حلقت وحومت حول نظام الحكم الاسلامى ، ما زيفه بعض الفقهاء المتزلفين للحاكمين من الأمويين والعباسيين ، فنادوا بأن الخلافة فريضة لقريش على المسلمين ، وصاغوا فى هذا المعنى حديثا نسبوه الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

والاسلام بروحه ومبادئه وتشريعاته يبرأ الى الله من هذه الارستقراطية الطبقية فهو دين يقوم أول ما يقوم على أن الناس أبناء آدم وحواء ..لإخوة لأب وأم ... لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... » .

وليست في الاسلام فوارق عنصرية ولا عصبية قبلية ولا تمايز بالألقاب ، ولا تفاخر بالأنساب ؛ فالعمل الصالح هو الفيصل والميزان .. يقول الرسول في خطبته الخالدة يوم عرفة :

« ... أيها الناس إن ربكم واحد ، وأباكم واحد ... كلكم لآدم وآدم من تراب ... أكرمكم عند الله أتقاكم ... ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ... ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ... ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ... »

هذا هو روح الاسلام ودستوره الذى لا يمارى فيه مسلم فقه الايمان أو ذاق قطرة من رحيقه .

والواقع التاريخي يكذب هذا الادعاء ، فبينما رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مسجى فى بيته بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى ، هرع المسلمون الى سقيفة الأنصار يتجادلون فى أمرهم السياسى الأكبر ، أمر القيادة والحكم ، فطالب حزب الأنصار بالولاية ورأوا أن لهم فيها حقا ومقاما . وأدلى حزب المهاجرين – ممثلا فى أبى بكر وعمر بن الخطاب وابن الجراح بحجته – فما رأينا المهاجرين استشهدوا بهذا الحديث ، وما سمعنا من أحد منهم اشارة أو ايماءة الى أفضلية مقررة لقريش على المسلمين ! ! ولو علم الأنصار هذا الحديث – وهم علماء الاسلام وحفاظه – ما تطلعوا إلى الحكم ، وما عصوا قول رسولهم الكريم .

وثار الخوارج – وهم حزب الجمهورية الاسلامية – على ملك قريش ، فما رأينا قريشا قرعتهم بهذا البيان النبوى الفاصل ، وأدار المعتزلة آراءهم فى الحكم على أن الخلافة لا تحتاج الى نسب أو عصبية (١) .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه – كما روى مسلم فى صحيحه عن يحيى بن حصين قال : – سمعت جدتى تحدث أنها سمعت رسول الله يخطب فى حجة الوداع وهو يقول :

« ... ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا... » .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ١٩١ – ١٩٢ .

وعمر بن الخطاب حينما حضرته الوفاة يتصفح وجوه الأئمة من قريش ثم يقول فى ألم :

« لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته الخلافة »

ومع هذا فقد مشى هذا الوهم الجاهلى الى التشريع ، فرأينا بعض الفقهاء - حينما عرضوا لشروط الكفاءة فى الزواج - يفضلون قريشا على سائر العرب ، ويجعلون أبناءها أكفاء لبعضهم ، ولا كفء لهم من غيرهم ، متناسين روح الاسلام وشرعه ، ورسول الله زوج زينب بنت عمته وهى فى الذروة من قريش - من زيد بن حارثة الذى كان عبدا رقيقا وأعتقه رسول الله .

وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله ايماءة أو اشارة الى أن أمر المسلمين لفرد أو لأفراد من أسرة معينة ، ودعاوى ابن خلدون فى أن الحكم يحتاج الي العصبية ، هى دعاوى جاهلية خالفه فيها التوفيق مع مكانته وفطنته .

فالحكم فى الاسلام انتخاب مقيد بقانون وتشريع ، وقوته مستمده من قوة هذه البيعة العامة لا من قوة العصبية القبلية ، وإلا لكان ملكا عضوضا ، وبنوتيم وبنوعدى - بطون الصديق وعمر - كانا من أضعف بطون قريش ، ولو كان الأمر بالعصبية لأخذه الهاشميون أو الأمويون منذ يومه الأول .

والقاعدة المقررة أن المسلمين سواسية ، لا فضل لعربي على عجمى الا بالتقوى والعمل الصالح ، وما يقدم لأمته من خير وما له عندها من حب ، والرسول يقول لبنى هاشم وهم أهل بيته وأولي رحمة :

« يا بنى هاشم ، لا يجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونني بالأنساب »

ويكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص :

« إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء » .

١١
الأمة مصدر السلطات

وبتلك القاعدة الاسلامية تقرر فى النظم الاسلامية أن السلطات كافة بيد الأمة ، فلا ميراث فى الحكم ولا عصبية فى السلطات ، ولا حقوق مقدسة لرجل أو مجموعة من الناس ، حتى ولو كانوا بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومن عجائب التاريخ الاسلامى ، أن المسلمين صرفوا أمر الخلافة منذ يومها الأول عن آل البيت حتى لا يصطبغ الحكم فى الاسلام بمسحة دينية .

ولقد اتفقت كلمة المشرعين الاسلاميين على أن الرئيس الأعلى فى الدولة ، إنما يستمد سلطانه وقوته من الأمة التى اختارته وبايعته ، ويعتمد فى بقاء هذا السلطان على ثقتهم به وقيامه بواجبات رسالته ، فان انحرف أو جمح أو حاد ، فالأمة التى ولته هى مصدر السلطات جميعا لها أن تنحيه عن مقامه وتستبدله بالذى هو خير منه .

جاء فى متن المواقف للعلامة العضد :

« وللأمة خلع الامام وعزله بسبب توجبه ، وإن أدى الأمر الى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » .

وقال شارحه السيد الجرجانى فى باب مسببات هذا العزل :

« مثل أن يوجد فيه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين ، فكما كان لهم نصبه واقامته ، لانتظامها واعلائها ، لهم عزله لإخلاله بشروطهم » .

ويقول الامام الرازى :

« إن الرياسة العامة هى حق الأمة التى لها أن تعزل الامام اذا رأت موجبا لذلك ، لأنها ولية الأمر أصلا ، وما هو الا وكيل عنها ؛ وللأصل تنحية الوكيل اذا رأى الخير فى هذه التنحية » .

وكما أن للمسلمين أن ينظموا طريقة الانتخاب وسبيل البيعة بما يلائم ظروف الزمان والمكان وتطورات الحياة ؛ كذلك لهم أن ينظموا طريقة عزله عند انحرافه بما شاءوا من قوانين ونظم فى دستورهم العام .

فسياسة الحكم فى الاسلام سياسة من قواعدها المرونة والتطور ، ومن أصولها أن للعقول أن تجتهد ، وللأمة أن تنظم وتشرع .

فاذا قررت الجماعة أمرا بالانتخاب والشورى ، فلا يجوز الشذوذ والانحراف عن جماعة المسلمين ، وبلغة العصر : يجب أن تخضع القلة لرأى الكثرة وأن تسير تحت لوائها فى سماحة ومحبة وتعاون كامل ، وعلى الكثرة أن تحترم رأى القلة ، وأن تفسح فى صدرها المكان الرحب لكل رأى ولكل معارضة .

فاذا كانت النظم الحديثة ترى أن المعارضة جزء من الحياة البرلمانية تؤدى وظيفتها بالمعاونة والمساهمة والنقد والتوجيه ، فان الاسلام يرى فى ذلك فريضة واجبة . حتى لنرى الرسول صلوات الله وسلامه عليه - وهو الامام المعصوم المؤيد بالوحى يقول دائما :

« ... أشيروا على أيها الناس ... » .

١٢
رسالة القضاء فى الاسلام

والقضاء فى الاسلام جزء لا يتجزأ من رسالة الحكم وسياسته ، فلا يستقيم حكم صالح إلا بقضاء صالح ، ولا تتم رسالة التشريع إلا برسالة القضاء .

وكما بنى الحكم والتشريع فى الاسلام على الاجتهاد والاستنباط ، وكما دارا مع مصالح الناس ، كذلك كان شأن القضاء ، وبذلك تتسق فكرة الاسلام العامة وتتحد فى التشريع والحكم والقضاء .

وعلى هذا الضوء أصبح نظام القضاء الاسلامى نسيج وحده بين أنظمة التقاضي العالمية ، فهو قضاء حر بأوسع معانى هذه الكلمة وبأضخم مدلولاتها .

فالقاضي المسلم لا سلطان عليه إلا سلطان الله سبحانه ، وهيمنة القانون على أحكامه هيمنة كاملة من الناحية الكلية ، فعلى القاضى أن لا تمرق أحكامه من أفق القواعد الاسلامية المقررة ، وهو بعد ذلك مطلق الحرية فى أحكامه ، يديرها حسب اجتهاده وايمانه ، ويمشى بها الى حيث يؤمن هو بالقسط المبين والعدل المستقيم .

فلا تقف حرفية القانون ولا مواده دون ضمير القاضى وإلهامه ، فاذا كان القاضى اليوم يرى نفسه فى أكثر من موقف ، محرجا بين حرفية القانون ومنطق مواده ، وبين ما يهديه اليه اجتهاده وإلهامه ، ثم يرى نفسه مجبرا على أن تتنزل أحكامه طبقا للقانون العام ، وإن صرخ قلبه وإلهامه ، فإن القاضي المسلم لم يكن ثمة قانون يملك أن يضعه فى مثل هذا الموقف الحائر ، بين حرفية القانون وبين ما تطمئن اليه القلوب .

ولقد حدث فى أكثر من موقف فى القضاء العالمى ، أن القاضى كان يحكم وهو يبكى ويتألم ، ولكنه لا يستطيع أن يخرج عن دائرة القانون المكتوب .

أما القضاء فى الاسلام ، فقد كان القاضى فيه حرا مجتهدا ، تتنزل أقضيته على كل قضية بجوها وحياتها وما يلابسها من مخففات الحكم أو مشدداته ، فاذا اجتهد القاضى فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر اجتهاده .

ولذلك اشترط فى الاسلام أن يكون القاضى من أصحاب العلم الاستقلالى الاجتهادى ، فوق احاطته بالعلوم المقررة .

فهو يستعين بمذاهب الاجتهاد فى الفقه الاسلامى كافة ، ثم له بعد ذلك أن يجتهد وأن يقيس وأن يستنبط ، وأن يدير أحكامه على العدل حيثما كان هديه ونوره .

ويرتبط النظام القضائى بعد ذلك رباطا لا ينفصم بالضمير الاسلامى ، والوجدان الايمانى ، والقانون الخلقى العام .

وبذلك أطلق الاسلام للمسلمين أوسع الحريات العالمية فى أجهزة القيادة العليا ، التى تهيمن على مصالح الناس وحياتهم : أجهزة الحكم والتشريع والقضاء .

فهى أجهزة حرة حية نامية مع الحياة ، دائرة مع الخير ، متمشية مع الصالح العام أينما وجد ، وهى حريات كفيلة بأن تصوغ خير الأمم ، وأسعد الشعوب ، وأقدرها على التطور والتجديد .

والقضاء فى الاسلام ، ينبع من العقيدة ، ويرتبط بالايمان ؛ ويتجه دائما الى الله جل جلاله ، ولهذا كانت له قدسيته فى القلوب والعقول . وإجلاله لدى المتحاكمين والمتخاصمين .

جاء رجلان يختصمان الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فى مواريث بينهما قد درست ، وليس بينهما بينة ، فقال الرسول :

« انكم تختصمون الى رسول الله . وأنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وانما أقضى بينكم على ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار ، يأتى بها اصطداما فى عنقه يوم القيامة » .

فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي ، فقال رسول الله :
« أما إذن فقوما فاذهبا فلتقسما ، ثم توخيا الحق ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه » .

ليس القضاء وحده هو الفيصل ، وانما فوق قضاء الأرض يد الله ، فليراجع كل من الخصمين ضميره – وليرقب يوم الفصل الأكبر حيث لا تخفى على القضاء الأعظم خافية .

ولهذا امتزج القضاء الاسلامي بخشية الله ، ورهبة عقابه ، وقام على العدل المطلق ، حتى ليأمر الرسول القاضي أن يسوى بين المتقاضيين ، فى نظرات الأعين وطلاقة الوجه ، وأن لا يحكم حتى يفسح فى عواطفه وقلبه وعدالته لكل من الخصمين بالقسط المستقيم ، حتى الجو النفسى يشترطه الاسلام للقاضين ، روى البخارى عن أبى بكرة ، قال : سمعت رسول الله يقول :

« لا يقضى حكم بين اثنين وهو غضبان » .

ولقد أجمل عمر بن الخطاب نظام القضاء الاسلامى فى كتاب له أرسله الى قضاته فى الولايات كمنشور عام .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ... سلام عليك ... أما بعد ...

فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيك عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال ،

وقس الأمور عند ذلك ، واعمد الى أشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه ، فاذا أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت القضاء عليه ، فان ذلك أجلى للعمى ، وأبلغ للعذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فان الله سبحانه تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق - ضيق الصدر - والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق ، يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ، فانه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ، ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس ، بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب الله عز وجل فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته والسلام (١) » .

وهذه الوثيقة التاريخية ترشد الى الفهم لوظيفة القضاء ، والفهم لحرية القاضى ، يبلغ كلاهما الذروة فى السموق والعدالة .

فهو يقول لقضاته :

« لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك ، أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ! » .

ثم يقول لهم :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم انظر الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك » .

وبذلك أطلق للقضاء حريات غير محددة فى الأجتهاد والفهم والاستنباط ، ومنحه سلطات غير مقيدة فى الرجوع فورا الى الحق ، اذا استبانت وجوهه عقب النطق بالحكم ، لأن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

فاذا استكمل القاضى مثله العليا من الفهم والعلم والعدل ، فقد بقى بعد ذلك ، أدب القضاء وأدب الاسلام .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٢٢. سنن الدارقطنى ، - اعجاز القرآن ص ١٧.

واياك وضيق الصدر والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فان الحق فى مواطن الحق يعظم به الأجر ، ويحسن به الذكر ومن تزين للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانه الله وأسقطه فى دنياه وأخراه .

ويكتب على بن أبى طالب إلى عامله فى مصر ، ينير له الطريق الى السياسة العليا فى اختيار القضاة وصفاتهم :

« ... ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراء ، ولا يستميله اغراء .

ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته الى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

وفى هذا البيان العظيم مواقف للعقول ، عند كلمات تتلألأ اشراقا ونورا ، فمن صفات القاضى أن لا تضيق به الأمور ، ولا تغضبه لجاجات الخصوم ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه .

ومن صفاته التأنى عند الشبهات ، والأخذ بالحجج ، والصبر الجميل حتى تتكشف البينات ، ثم لا يزدهيه بعد ذلك اطراء ولا يستميله اغراء .

واذا كانت هذه هى واجبات القاضى فان له بعد ذلك من الحقوق أعظمها ، من حقه أن يفسح له الحاكم فى البذل حتى تكون له مهابته وعفته وتقل حاجته الى الناس ، وأن يفسح له الحاكم مكانا عاليا جليلا لا يطمع فيه غيره مهما سما مقاما ونسبا .

وبهذا الاجلال العظيم لرسالة القضاء ، استطاع القضاة فى الاسلام أن يمسكوا بأيديهم ميزان القسط لا يميل ولا ينحرف ، ولا ينال من سلطانه سلطان ، مهما سمق قوة وبأسا .

يساوم عمر بن الخطاب خليفة المسلمين رجلا على فرس ، ثم يركبه ليختبره ، فيصاب الفرس بعطب أثناء جريانه ، فيرده عمر الى صاحبه فيأبى الرجل ، فيتحاكمان الى شريح القاضى ، ويستمع الى حجة كل منهما ثم يقول شريح :

« يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد ما أخذت » ، فيقول عمر : « نعم القضاء قضيت » .

ويرى على بن أبى طالب درعا له على يهودى ، فيقول : درعى ، وينكر اليهودى أن الدرع لعلى ، فيتحاكمان الى قاضى الكوفة . فيقول القاضى : يا أمير المؤمنين ، لا أكذبك ولكن ليس لك بينة : فالدرع لليهودى . فيولى على ضاحكا ، وهو يقول : أضاع قاضى المسلمين درع أمير المؤمنين.

ويعجب اليهودى لهذه المثالية . فيسرع وراء على قائلا : يا أمير المؤمنين . والله إنها لدرعك وجدتها يوم خيبر فأخذتها ، فهى لك . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فيقول على : إذن فالدرع لك هدية .

ويجلس الامام أبو يوسف للقضاء فيختصم اليه رجل مع الخليفة الهادي فى بستان له غصبه عمال الخليفة .

ويحضر الخليفة إلى ساحة القضاء ، ويرى أبو يوسف أن الحق للرجل ولكن للخليفة شهوده ، ويكبر على ضمير القاضى أن يضيع الحق . لأن حرفية القانون مع المعتدى . الذى يملك البينة الشاهدة ، فيلجأ الى براعة المخرج . فيقول فى صرامة :

« أن الخصم يا أمير المؤمنين يطلب أن تحلف له على أن شهودك صادقون » فيتراجع الهادى عن اليمين ، ويرد البستان إلى صاحبه .

وتتوغل جيوش المسلمين فى فارس وما وراء النهر . حتى تدخل مدينة سمرقند . فيرسل أهلها الى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين أن القائد الاسلامى قتيبة الباهلى ، الفاتح العظيم قد دخل مدينتهم غدرا ، فيرسل عمر الى والى خراسان يأمره بعرض هذه القضية على القاضى « جميع بن حاضر البلخى » فقضى القاضى بأعجب حكم فى التاريخ . قضى بإخراج الجيش الاسلامى من سمرقند ، لأنه دخل المدينة غدرا .

وهو حكم لم تعرفه الدنيا الا للقضاء الاسلامى ، عدالة سامقة شامخة لا تعرفها عدالة الأرض ؛ عدالة حق حتى فى ميادين الحروب والنضال .

وتتسع رقعة العالم الاسلامى ، وتمتد امتدادها التاريخى العظيم فيتخذ العباسيون نظما جديدة للقضاء ، تلائم الحياة المتطورة فى الامبراطورية الضخمة .

وفى طليعة ما ابتكروا وظيفة قاضى القضاة ، وهى أشبه بوظيفة وزير العدل ، وأول من لقب هذا اللقب هو أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم فى عهد هارون الرشيد . يقول المقريزى :

« فلما قام هارون الرشيد بالخلافة ، ولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم أحد أصحاب أبى حنيفة بعد سنة سبع ومائة فلم يقلد فى بلاد العراق وخراسان ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف ، وأصبح لقاضى القضاة من بعده الحق فى تعيين قضاة بغداد ، ثم امتد ذلك الى تعيين قضاة الأقاليـــــم » .

وامتد القضاء ، واتسع اختصاص القضاة ، فضم اليهم الشرطة والقصاص والحسبة ودار الضرب والمال ، فتركزت فى أيديهم كل القوى التى تهيمن على مصائر الدولة ، وتتصل بشئون الناس .

وارتفعت مرتباتهم تبعا لذلك ارتفاعا لا مثيل له فى الوظائف الأخرى ، حتى ان عبد الله عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، كان يتقاضى مائتى دينار على القضاء ، ومائتى دينار على القصاص ، ومثلها على بيت المال . كما كان عطاؤه مائتى دينار وجائزته كذلك !

ثم عرف النظام الاسلامى ديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا لا حد لسلطانها ، ويقول عنها ابن خلدون :

« وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء » .

وكان من اختصاصات هذا الديوان النظر فى أمر الولاة الذين استغلوا مناصبهم ، والقضاة الذين جاروا فى احكامهم ، وجباة الأموال إذا حادوا وكبار الرجال ، وأبناء الخلفاء ، إذا اغتالوا أموال الناس ، وليس عليهم شهود أو بينة .

وبذلك أصبح القضاء قوة عليا واسعة النفوذ ، واسعة الاختصاص تمد يدها وعدالتها إلى كل متمرد عليها ، أيا كان بأسه وسلطانه .

وغدا كل وال أو حاكم أو مشرف على شئون الدولة يشعر فى كل تصرفاته بأن عين القضاء تراقبه وتهيمن عليه ، وإنها لعين يقظى وإنها لقوة عادلة ، وإنها لسلطان يمسك بميزان القسط ، فلا ينحرف ولا يميل .

ويمشى التاريخ بالناس وبالحياة ، وتتوالى الضربات على الأنظمة الاسلامية ، فكانت أهولها الضربة التى فصلت بين المسلمين وبين قضائهم القرآني ، وباعدت بين المجتمعات الاسلامية والقوة التى تحفظ لها كرامتها وعزتها وإيمانها .

يقول القاضى أبو على محسن التنوخى فى كتابه « جامع التواريخ » :

« حدثنى أبو الحسين بن عباس قال : كان أول ما انحل من سياسة الملك فيما شاهدناه من أيام بنى العباس القضاء ، فان ابن الفرات وضع منه وأدخل فيه قوما بالمحبة لا علم ولا أبوة فيهم ، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت تتضع ويتقلدها كل من ليس لها بأهل » .

ثم يقول :

« وتلا ذلك اتضاع الخلافة وبلغت صورها الى ما نشاهد فانحلت دولة بنى العباس بانحلال القضاء » .

ضعفت الخلافة الاسلامية ، يوم ضاع القضاء الاسلامى ، وانحلت دولة الاسلام ، وانطفأت المصابيح التى ظلت متقدة تنير السبل الصاعدة بالمسلمين الى أفق العدالة القرآنية ، المصابيح التى كانت قائمة على جوانب الحكم الاسلامى ، تصونه وترعاه وتسدد خطاه .

١٣
الشورى فى الاسلام

جاء الاسلام لبناء عالم حر ، بأوسع معانى هذه الكلمة وأصدقها .

جاء ليحرر الانسان ضميرا وتفكيرا ، ووجدانا وشعورا ، من كل رهبة بشرية ، ومن كل قوة أرضية ، وتلك هى رسالته التوحيدية الايمانية .

فحرية الفرد فى الاسلام ، أوثق المعانى صلة بتوحيد الله ، وكل اهدار لهذه الحرية هو صيحة جاهلية وثنية ، وكل تنازل عن معنى من معانى الحرية هو شرك خفى أو جلى .

ومن هنا ارتبطت الحرية بالأخلاق ارتباطها بالايمان ، ذلك ارتفاع بالحرية وتقديس لها ، لا يطاوله ارتفاع فى التاريخ .

ومن هذا الأفق الحر ، أصبح الاجتماع قاعدة من قواعد التشريع فى الاسلام ، كما أصبح الاجتهاد قاعدة أخرى .

ومن هذا الأفق الحر ، بنى الحكم الاسلامى بكافة جزئياته على الشورى العامة .

فعلامة المسلمين وسمتهم التى تتلألأ فى قرآنهم كما تتلألأ فى تاريخهم ، أن أمرهم شورى بينهم – لا يستأثر به فرد ، ولا تنفرد به طائفة ، حتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو القمة الشامخة التى منحت العصمة – يأمره ربه جل جلاله بأن لا ينفرد بالرأى والأمر ، بل يجب أن يشاور المسلمين فى كل أمر من أمور الحياة ، وأن ينزل عند رأى الكثرة وإن خالف هذا الرأى ما يرى .

ولا جدال فى أن الرسول لم يكن ليشاور أصحابه فى أمور الدين وشئون الرسالة ، فتلك أمور الكلمة العليا فيها للوحى وأوامر الله سبحانه ، وإنما كانت المشورة فى أمور السياسة وشئون الحكم وقواعد الاجتماع والاقتصاد ، وفنون الحرب والقتال ، وكل ما يتعلق بالحياة المتحركة النامية .

يقول الامام ابن تيمية فى كتاب « السياسة الشرعية ... » :

إن الله أمر نبيه بالشورى لتكون شرعة ملزمة لمن بعده ، وقد جعلها الله صفة للمؤمنين فى قوله :

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ... » .

ولمكانة الشورى من الاسلام ، سميت سورة كاملة من القرآن العظيم باسمها « الشورى» . وعلمها الرسول للمسلمين ودربهم عليها . يقول أبو هريرة :

« لم يكن أحد أكثر مشورة من رسول الله » .

وضرب لهم المثل الأعلى بنزوله صلوات الله وسلامه عليه ، على رأى الكثرة في كل الأمور الدنيوية .

تترامى الأنباء بأن قريشا جمعت قوتها تغزو المدينة ، فيجمع الرسول صحابته ويطرح بينهم الأمر للتداول والتشاور ، ويدلى كل بحجته ويتحمس الشباب للخروج من المدينة لملاقاة العدو فى أحد ، ويعارض الرسول هذا الرأى ويدلى بحججه ، ولكنه رأى الشباب يجذب اليه الكثرة العددية ، فينزل الرسول على أمرهم ، حتى إذا لبس لأمة الحرب وتهيأ للخروج ، قال الناس بعضهم لبعض :

« لقد أكرهتم الرسول على الخروج وهو كاره له » ...

ويسعى اليه رجال منهم يقولون :

ان المسلمين على استعداد للنزول على رأيه ، فيقول مشرعا : « ما كان لنبى إذا لبس ملابس الحرب أن يخلعها حتى يقاتل »

وفي يوم بدر جاء الحباب بن المنذر ، وقد رأى رسول الله قد نزل بأصحابه أدنى ماء ، فقال :

« يا رسول الله . أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ ! » .

قال الرسول :

« بل الرأى والحرب والمكيدة » .

فقال : « يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ثم تغور ما وراءه» فقال النبى : « لقد أشرت بالرأى » وعمل به .

ويستشير الرسول أبا بكر ، وعمر فى أسرى بدر ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه لهما :

« لو اجتمعتما ما عصيتكما » .

وأخرج ابن مردويه عن على قال : سئل رسول الله عن العزم . أى فى قوله تعالى :

« وشاورهم فى الأمر ؛ فإذا عزمت فتوكل على الله ...» فقال « مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم » .

ويقول الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : « قد علم الله أن ما برسوله حاجة اليهم ، ولكن أراد أن يقتدى به من بعده » .

وأخرج ابن عدى والبيهقى بسند حسن عن ابن عباس . أن الآية لما نزلت قال رسول الله :

« أما أن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن جعلها الله رحمة لأمتى فمن استشار منهم لم يعدم راشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » .

والتعبير النبوى الكريم ، جميل مشرق مضىء « جعلها الله رحمة لأمتى » وليس فى طاقة قوة ديمقراطية أن تعبر عن الشورى تعبيرا أسمى من كلمة الرحمة ...

الرحمة الشاملة للأمة كافة .

وتمضى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على هذا المنهج من الحكم الدستورى ، لا يستأثر برأى ولا يستقل بفكرة ؛ بل يربى جيله وصحابته تربية حرة كريمة ، ويرسى قواعد سياسة مثالية ترتكز على قوى الشعب العقلية والقلبية والايمانية .

ومشى الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الصراط المستقيم الذى أضاءه الرسول .

ويروى الطبرى أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، قدما على أبى بكر فى رجال من رؤوس العرب ، فدخلوا على رجال من المهاجرين . فقالوا : إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الاسلام ، وليس فى أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله ، فان تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم

من وراءنا . فدخل المهاجرون والأنصار على أبى بكر فعرضوا عليه الذى عرضوه عليهم ، وقالوا : نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءهما حتى يرجع اليك أسامة وجيشه ويشتد أمرك ، فإنا اليوم قليل فى كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب ، قال أبو بكر : هل ترون غير ذلك ؟ ! فقالوا : لا . قال أبو بكر : وقد علمت أنه كان من عهد رسول الله اليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ولا نزل به كتاب عليم ، وأن الله لا يجمعكم على ضلالة ، وإنى أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشرته عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم .

أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن لا نرشو على الاسلام أحدا ، وأن تتأسوا برسول الله فتجاهدوا عدوه كما جاهدهم ، والله لو منعوا عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه ، فأتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيى ، فقالوا : نعم الرأى ، وعلى بركة الله »

وهى وثيقة تاريخية لها مقامها فى دستور الحكم الاسلامى ، فالخليفة الأول يقول للمسلمين : قد علمت أنه كان من عهد رسول الله اليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من الرسول أو حكم من القرآن ، وأن الأمة الاسلامية لا تجتمع على ضلالة ؛ لأن حكم الشورى الذى تسهم فيه العقول كافة بالرأى والنصيحة والتوجيه ، يعصم من التطرف والزلل . ثم يلخص أبو بكر الموقف فى كلمة حاسمة مضيئة : إنما أنا رجل منكم ، ولست أحكم جبارا وإنما أشير عليكم وتشيرون على ، فانظروا الآراء ومحصوها ، ثم أجمعوا على أرشدها .

والذين يزعمون أن المسلمين فى عصورهم الأولى لم تكن لهم نظم دستورية ديمقراطية مفصلة المناهج محددة الوسائل محررة البرامج ، يتجنون على الحقائق وعلى التاريخ ، وينسون الفاصل الزمنى الكبير ، والشوط الحضارى الهائل ، الذى أودع بين أيدى الناس اليوم من وسائل المواصلات وفنون الحضارات ، ووسائل التنظيم والتنسيق ما ييسر لهم الاجتماعات السريعة ، والاتصال الخاطف بين الأبعاد السحيقة المترامية الأطراف

وإنما يقارن عصر بعصر ، وبيئة ببيئة ... بما يملك هذا وذاك من وسائل متشابهة ، وامكانيات متكافئة ، وقوى متماثلة .

والشورى فى الاسلام كلية عامة ... هى روح الدستور ، والنور الذى تضاء به مصابيحه ... كلية تدور مع الحياة ، وتتلون بحضاراتها وثقافاتها ونظمها .

فتكون وسيلتها كما طبقها المسلمون فى صدر الاسلام ... شورى عامة في المساجد وأندية الحكم ، أو تكون كما تطبق اليوم بالمؤسسات البرلمانية العالمية ، أو تقوم بصورة أخرى من صور الشورى التى تتطور اليها الحضارات القادمة ، فلا تقديس لوسائل بعينها ما دام الشأن للأمة ، والكلمة للشعب ، والحكم لرأى الكثرة الساحقة .

إن الهدف المفروض ، هو حكم ترضى به الجماهير وتقر مناهجه ، فما دامت الحريات مكفولة والحقوق متساوية ، والعدالة قائمة ، والسيطرة الفردية ممنوعة ، ومصلحة الشعب - لا الحاكمين - هى المقررة المنشودة ، فثم نظام الشورى الاسلامى .

إن الاسلام يضع القواعد الكبرى التى يستظل بها الناس ، أما طرائقها ووسائلها فأمر متروك للشعوب ، تجيل فيه عقولها وتديره على مصالحها ، وبذلك يعلى الاسلام من شأن العقل البشرى ، ويرتفع بقيم أتباعه ، باطلاق أيديهم حرة من كل قيد فى شئون حياتهم التشريعية والتنظيمية .

وبذلك يفتح الاسلام أمام المسلمين أوسع أبواب التطور ، وأعظم منافذ الاجتهاد ، ويدير حياتهم على مرونة حية دائمة الحركة والنماء .

ولا يشترط الاسلام نصابا ماليا ولا صفة عنصرية ، ولا درجة ثقافية ولا ميزة معينة ، ولا يهدر أهلية الفرد فى اعطاء صوته الانتخابى الا بجريمة موجبة لذلك .

يقول الامام ابن العربى :

« والشورى بين الناس من غير تمييز ولا استثناء ، واجبة فى أصول الشرع وقواعده ، وقد وقع ذلك من الرسول المعصوم فمن دونه ... » .

ويقول سعد الدين التفتازانى فى شرحه للعقائد النسفية :

« والامامة شورى بين المسلمين ، فالكل بمنزلة إمام واحد » .

واتفق العلماء - صلاح الدين وعبد الحليم وحجة الاسلام الغزالى -

على أن اشتراك الأمة فى شئون المملكة ليس جائزا فقط . بل هو القاعدة الأساسية فى الاسلام .

وبذلك يسبق الاسلام فى سعة أفقه الدستورى أحدث الأنظمة البرلمانية فى العالم ، فضلا عن حرصه على الجانب الخلقى الايمانى الذى يحرم الرشوة والتزوير والتدليس وشراء الذمم ، وما يماثلها من أوضاع تشوه النظم البرلمانية المعاصرة .

ويقول السيد رشيد رضا – فى كتابه الخلافة والامامة العظمى – (١) مبينا الحكمة فى ترك الرسول نظام الشورى للأمة ، وعدم وضع أحكام لتفاصيلها :

« ... إن النظام يختلف باختلاف أحوال الأمة فى كثرتها وقلتها وشئونها الاجتماعية ومصالحها العامة فى الأزمنة المختلفة ، فلا يمكن أن تكون له أحكام معينة توافق جميع الأحوال فى كل زمان ومكان ، ولو وضع لها أحكاما مؤقتة لخشى أن يتخذ الناس ما يضعه لذلك العصر وحده دينا فى كل حال وزمان وإن خالف المصلحة . فاكتفى بشرع الله للمشاورة وتربيته صلى الله عليه وسلم الأمة عليها بالعمل ... » .

فسياسة الشورى فى الاسلام أمرها إلى الأمة ، لها الكلمة العليا فى وسائلها ، وتلك هى وسيلة الاسلام الخالدة ، فى كل ما يتصل بحياة الناس من نظم وشرائع .

روى الطبرانى فى الأوسط ، وأبو سعيد فى القضاء «عن على بن أبى طالب قال : قلت : يا رسول الله ، إن عرض لى أمر لم ينزل قضاء فى أمره ولا سنة . كيف تأمرنى ؟ ... قال : تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين ، ولا تقضى فيه برأيك خاصة ... » .

والفقهاء والعباد : أى رجال القانون ورجال الأخلاق ، وسمة الاسلام دائما المزج بين القانون والأخلاق ، حتى لا يشوب القانون جفاف أو شدة تنفر منه القلوب وتباعد بينه وبين واقع الحياة .

---

(١) الخلافة والامامة العظمى : للسيد رشيد رضا ص ٢٠

نظام الحسبه فى الاسلام
أو وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وعلى القاعدة الاسلامية الكبرى ، التى تقرر أن التشريع ينبثق من حاجات المجتمع ، ويدور مع مصالح الناس ، أنشأ المسلمون نظام الحسبة ووظائف المحتسبين .

فقد أدركوا – منذ عهد عمر بن الخطاب . وهو العصر الذى اتسعت فيه حدود الأمة الاسلامية وترامت أطرافها وتشابكت مصالحها – أن الاجراءات القانونية الطويلة المدى ، قد يقعد بها البطء والتعقيد عن الوفاء بالمصالح العاجلة التى تعرض للناس فيما يضطربون فيه من شئون حياتهم ، والتى تتطلب تنفيذا سريعا وعلاجا حاسما ، فسدوا هذا النقص بنظام الحسبة المتحرك الخاطف .

وهو نظام تميز به الحكم الاسلامى على سائر الأنظمة العالمية فى دقته وكفاءته ونبل أغراضه ومقاصده ، وشموله واحاطته . فهو يسير مع الناس أينما ساروا ، متكفلا بحمايتهم وراحتهم فى كافة الميادين العمرانية والتجارية والخلقية والاجتماعية .

وبذلك تحرر المسلمون منذ أربعة عشر قرنا من « الروتين » البطىء الذى تشكو منه الديمقراطيات العالمية ، ويعتبره رجال الفكر والاصلاح النقطة السوداء في جبينها المشرق .

يقول ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية » :

« وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة ومنحه سلطات واسعة ليكون سريع الحركة حاسم التنفيذ » .

فهو قوة ضاربة على أيدى المنكر أينما وجد وحيثما كان ، لا يعوقه «الروتين» البليد ، ولا يغل يده الاجراء البطىء ؛ بل هو أشبه بقوة الاطفاء السريعة ، يهرع الى كل مكان وجد فيه الشرر والحريق ، ليزيل الشرر ويطفىء اللهب بوسائل خاطفة ناجحة .

قوة تمد يد القانون الباطشة المتحركة الى كل حركة أو عمل يهدد حياة الجماهير ومصالحهم وأخلاقهم وأقواتهم ، يفتش الأسواق ويراقب الموازين والاسعار ، ويفاجيء التجار المحتكرين ، وينقب عن الأقوات المحبوسة والأرزاق المخزونة ، ويرقب حركات المرور ونظام الطرقات العامة ونظافتها وسلامتها ، والمبانى وهندستها وتناسقها ، والآداب العامة يحميها من المجون والتبذل ، ويشرف على المساجد وما يلقى فيها من دروس ، وما يقام فيها من صلوات ، ودور التعليم وما يجب لها من احترام ونظام ، ومقدسات الدين لا تستباح مكانتها ، من فطر فى ملأ أو تعاط لخمر أو مزاولة لقمار أو أكل لأموال الناس بالربا .

جاء فى كتاب « النظم الاسلامية (١) » :

« وكان للمحتسب نواب يطوفون بالأسواق يفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقائين للتحقق من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى لا تعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل ما زاد على طاقتهم ، أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظام الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية وازالة أنقاضها »

وذكر المقريزى :

« ان المحتسب ضبط فى أحدى أسواق القاهرة فى اليوم السادس من شهر رمضان سنة ٧٤٢ هـ رجلا يدعى محمد بن خلف عنده مخزن فيه حمام وزرازير بلغت عدتها أربعة وثلاثين ألفا يحجبها عن السوق ! فشهر به وأدبه » .

وبمعنى أدق فقد جمع المحتسب بين مهمات النيابة العمومية ، ووزارات الشئون والصحة والتموين والبلدية ، وبوليس الآداب والمرور ، وفى كل الأمور السريعة الحاسمة التى لا تحتمل إرجاء أو تأخرا .

---

(١) ص ٩٠ - ٩١ .

ثم امتد نظام الحسبة الى أخطر أمر فى حياة الأمة الاسلامية ، وهو القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وضم نظام الحسبة اليه صفوة العقول المؤمنة المستنيرة حتى بلغوا فى القاهرة والأقاليم - على رواية المقريزى - أربعة آلاف .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وظيفة جليلة الخطر بعيدة الأثر ، فى الأفق الاسلامى ، وثيقة الصلة بالعقيدة ومثلها العليا وآدابها وشرائعها .

فمن النهى عن المنكر مثلا ، ما كان يقوم به المحتسب ورجاله من محاربة مستنيرة للبدع والخرافات والعادات الجاهلية وشبه الجاهلية ، التى تنتشر دائما فى الأوساط العامية ، فكانوا يمنعون سير الجنازات المولولة النادبة ، والاقامة فى المقابر ، وما يتبعها من مضار ، وحفلات الزار ، والرمل والودع وما الى الرمل والودع من مستلهمات الغيب ومستكشفات الأقدار ، وما يحدث فى الموالد وحول الأضرحة ، من طبول وزمور ومهازل ، الى أمثال هذه العادات وأشباهها مما يضاد التوحيد الاسلامى ، ويتنافر مع الحياة الصحيحة المهذبة الصاعدة .

ومن الأمر بالمعروف ، تبصير الناس بأمور دينهم ، والجهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، والارشاد الى سبيل الخير والاعانة عليه والأخذ بسبل الاصلاح ودوافع القوة ، وما يتبع ذلك وما يماثله مما يلقى ضوءا مرشدا ينير للناس سبلهم ويهديهم صراطا مستقيما .

وتلك الوظيفة فريضة دينية اسلامية مقدسة تحمى قلب الأمة من الأمراض والعلل التى تفتك بالشعوب ، وتبعث العزة والكرامة فى الصدور وتقمع العصاة كما تردع الظالمين .

ولقد ألحقها نظام الحسبة بأفق الحكم الاسلامى ليضفى عليها الجلال والمهابة ، ويمدها بالسلطان والقوة اللازمين للضرب على أيدى الافساد والمروق والانحلال .

ولكن الاسلام مبين فى أن المجتمع اذا لم يأخذ على أيدى الفساق والعصاة والمفسدين والطغاة : فسد وانتشرت فيه ميكروبات الانحلال والضعف ، وتنزل عليه غضب الله .

فكما تحمى الاجراءات الصحية صحة الأمم وأبدان بنيها من الأمراض والأوبئة ، كذلك على الأمة أن تنهض بالاجراءات التى تحميها من أمراض النفوس وأوبئة القلوب ، وكما يقوم الحجر الصحى حول كل مرض يهدد بالعدوى ، بعزل المصابين به وباقامة السدود والقيود حوله ، كذلك على المجتمع أن يحمى نفسه من الأمراض الخلقية والاجتماعية ، بارشاد المصاب ونصحه وتحذيره ، فاذا لم يرتدع وجبت مقاطعته حتى يشعر بغربته وشذوذه وسقوطه ، وهذا الاجراء الحاسم هو السبيل الأقوم لحماية المجتمعات ، وإجبار الفرد المريض على التوبة والرجوع ، وبذلك تبقى الأمة سليمة القلب والوجدان ، صحيحة العقل والايمان .

روى أبو داود عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن أول ما دخل النقص فى بنى اسرائيل ، انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ؛ فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » . ثم قرأ :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ، أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ، ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون ... »

ثم قال : « كلا ... والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » أى تقهرونه على الحق قهرا .

وروى الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله :

« لما وقعت بنو اسرائيل نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان

داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . فجلس رسول الله ، وكان متكئا - فقال : لا .. والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا ... » .

وروى ابن ماجة وابن حبان عن عائشة . قالت :

خطب رسول الله فقال :

« يا أيها الناس ، ان الله يقول : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم ... » .

وقد يبدو هذا اللحن غريبا أو عجيبا علينا اليوم ، وقد غرقنا الى الأذقان فى حياة الجاهلية ، وقد سحرتنا أوربا بتقاليدها وعاداتها ونهجها فى الحياة ... فما عدنا نرى المنكر منكرا ، ولا الذنب الغليظ معصية واثما ؛ بل لعل بعض الذنوب اليوم مما يفاخر به الناس ، وبعض المنكر مما تتزين به الهامات .

ولكن يوم تعود الأمة الاسلامية ، ستكون اللبنة الأولى فى صرحها ، هو أن يتميز الخبيث من الطيب ، وينفر الطيب من الخبيث ، كما ينفر السليم من العدوى القاتلة ... يوم يقوم فى الامة رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... يوم لا يغض الحاكمون أبصارهم عن المجاهرين بالاثم ، للفاخرين بمحاربتهم لما يحب الله ويرضى .

١٥
من الصحف الأولى

فاذا انتفت الأوهام اللاصقة بالحكم الاسلامي ونظمه ، ووضحت صلات الدين بالسياسة والحكم ، والحدود الفاصلة بينهما ، فان الاسلام بعد ذلك ليس حكما فحسب بل رسالة خلقية مثالية ، وهذه الرسالة وثيقة الصلة بالحكم ونظمه ، والسياسة ووسائلها .

ولا يمكن أن نفصل قضية فى الاسلام عن تلك الرسالة التى هى روح الفكرة الايمانية ، والزيت المضىء فى النظم الاسلامية كافة .

كل شىء فى الاسلام ينبثق من عقيدته ويتلون بها ، وكل عمل فى الاسلام عليه طابع تلك الرسالة وفيه شعاع من نورها .

والأنظمة الاسلامية يؤيد بعضها بعضا ، ومن هنا كان السر المضمر فى التاريخ الاسلامى ، ذلك التاريخ الذى يشهد بأن الاسلام لا ينهض بالمسلمين الا اذا طبق بأحكامه وشرائعه ومبادئه كافة ، فهو دين كلى ، قوته فى رسالته العامة ؛ فلا يأخذ أجزاء ، ولا تستفتى وحداته تفاريق .

وفى هذا الأفق ترتد كل فكرة الى مثيلاتها ، وتنتظم كل وحدة مع أخواتها ، وتتلاقى أطراف الحياة ليتكون من جزئياتها ذلك الشىء الذى نسميه روح الاسلام ، الذى عبر عنه أبو بكر رضى الله عنه بقوله :

« ... والله ما انتصرنا على فارس والروم بعدد ولا عدة ، وإنما بشىء وقر فى الصدور من هذا الدين ... » .

وهو أفق لا يطاوله أفق ، ولا تسامقه مكارم ، ولا تدانيه عدالة ولا يحلم بمنافسته نظام عالمى أيا كان زمانا ومكانا .

وكان أبو بكر قبل الخلافة ، يحلب لضعفاء أهل السنح - وهى ضاحية من ضواحى المدينة كان يسكنها - فلما ولى الخلافة سمع جارية تقول :

« اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ، فصاح : بل لعمرى لأحلبنها لكم ».

ويخرج غداة توليته الخلافة لتوديع جيش أسامة بن زيد الذاهب لأطـراف الشام ، وأسامة على صهوة جواده ، والصديق يمشى بجانبه راجلا ، فيناديه أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبن أو لأنزلن ، فيرد عليه : والله لا تنزل ، والله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة » .

ويذهب عمر بن الخطاب ليعقد معاهدة صلح مع أهل دمشق فيستصحب معه عبدا رقيقا له ، وليس معهما إلا ناقة واحدة ، فكان الخليفة يركب مرحلة ، ثم ينزل ويأمر تابعه بالركوب ويمشي خلفه ، ودخلا دمشق على هذه الصورة : العبد راكب ، والخليفة الفاتح المنتصر يمشي على قدميه .

ويقبل بعد أيام من توليته الخلافة حاملا قربة ماء ، فيسأله ابنه فى استنكار : لم فعلت هذا ؟ ! فيجيب : « أعجبتنى نفسى فأحببت أن أذلها ».

وكان فى خلافة الصديق يتعهد امرأة بالمدينة عمياء ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قضت حاجاتها ، فترصد يوما فاذا أبو بكر هو الذى يكفيها مؤونتها ولا يشغله عن ذلك الخلافة ، فصاح عمر حين رآه : أنت هو لعمرى ...

وسئل عما يحل له من مال المسلمين نظير امارته ، فقال : « أنا أخبركم بما أستحل منه : يحل لى حلتان ، حلة فى الشتاء ، وحلة فى الصيف ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر . وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من المسلمين ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين » .

وكان مع أبى موسى الأشعرى فى بعض الفتوح رجل ذو صوت ونكاية فى العدو فغنموا مغنما فأعطاه أبو موسى بعض سهمه ، فأبى أن يقبله الا جميعا ، وأغلظ القول . فغضب أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره فامتطى الرجل جواده حتى قدم المدينة ، فلما دخل على عمر استخرج شعره ثم ضرب به صدر عمر قائلا : « أما والله لولا ... » فقال عمر :«صدق ، لولا النار».

ثم ذكر الرجل قصته مع أبى موسى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وقد أعطانى أبو موسى بعض سهمى فأبيت الا أن آخذه جميعا ، فضربنى عشرين سوطا وحلق رأسى ، وهو يرى ألا يقتص منه ، فقال عمر :«لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا ؛ أحب الى من جميع ما أفاء الله على».

ثم كتب الى أبى موسى :

سلام عليكم .. أما بعد

« فإن فلانا أخبرني بما كان منك . فان كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس . فعزمت عليك إلا قعدت له فى ملأ من الناس حتى يقتص منك ، وان كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك ».

فلما قدم الرجل على أبى موسى قال له الناس : اعف عنه ، فقال الرجل : لا والله لا أدعه لأحد من الناس . فلما قعد أبو موسى ليقتص منه الرجل رفع الرجل رأسه الى السماء . ثم قال : « اللهم قد عفوت عنه » .

ويشكو يهودى عليا الى عمر فى خلافته ، فلما مثل بين يديه نظر الى على وقال : اجلس يا أبا الحسن ، فظهرت آثار الغضب على وجه على ، فقال له عمر :« أكرهت أن يكون خصمك من اليهود وأن تمثل واياه أمام القضاء . فقال : لا ... ولكنى غضبت لأنك كنيتنى ، والتكنية تعظيم ، فخشيت أن يقول اليهودى : ضاع العدل بين المسلمين ».

ويتولى عمر بن عبد العزيز أمور الخلافة ، فيقوم الناس بين يديه فيقول :

« يامعشر المسلمين : إن تقوموا نقم ، وإن تقعدوا نقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين . إن الله فرض فرائض ، وسن سننا من أخذ بها لحق ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس ، يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته ، ويدلنا من العدل ما لا نهتدى اليه ، ويكون عونا لنا على الحق ، ويؤدى الأمانة الينا والى الناس ، ولا يغتب عندنا أحدا ، ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا » . (١)

ويروى عمرو بن المهاجر ، أن رجلا أتى عمر بن عبد العزيز بتفاحات فأبى أن يقبل ، فقيل له : كان رسول الله يقبل الهدية ، فقال عمر : « هى لرسول الله هدية ، ولنا رشوة » .

ويطلب الرشيد من أبى يوسف أن يضع له كتابا يستهديه فى نظم الدولة المالية وادارتها ، فكتب أبو يوسف كتابه الخالد - الخراج - وفى مقدمة هذا الكتاب يقول للخليفة ، أقوى رجل فى العالم حينذاك :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، على ما رواه الامام مالك ص ٣٤ .

« فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ، ولا تزغ فتزغ رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب ، وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس عندك فى أمر الله سواء القريب والبعيد ، وأن الله سائلك عما أنت فيه وما عملت به فانظر الجواب ، وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله ، وألا تنظر فى ذلك الا اليه وله . فإنك إلا تفعل تتوعر عليك سهولة الهوى وتعمى فى عينيك ، وتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الشدة لها لا عليها ، فإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه ، مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة باذن الله (١) » .

تلك قطرة من المحيط الاسلامى تقرب لنا الصورة العفة النزيهة المتعالية التى كانت طابع الحكم الاسلامى وسمته ونهجه ، وما يتميز به من ارتفاع بالخلق ، وإيمان بالروح ، وتقدير للعدالة ، ومراعاة لفاطر السموات والأرض .

وهى فى جملتها مقتبسة من الهدى المشرق المنير ، هدى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فلقد رسم لأمته بحياته وكلماته الصورة المثالية ، لأخلاق الحاكم وصفاته ، وسياسة الحكم وواجباته .

روى الحاكم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان رسول الله ... » .

وروى مسلم ، قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها الا حرم الله عليه رائحة الجنة » .

وفى مسند أحمد :

« أحب الخلق إلى الله امام عادل ، وأبغضهم اليه امام جائر »

وعن أبى موسى قال :

« دخلت على النبى أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحد الرجلين : يا

---

(١) كتاب الخراج ص ١ ، ٣ ، طبعة بولاق .

رسول الله ، أمّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال : « إنا والله لا نولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا من حرص عليه »[1] .

وروى ابراهيم الحربى فى كتابه « الهدايا » عن ابن عباس أن النبى قال : « هدايا الأمراء غلول » .

وفى الصحيحين عن أبى حميد الساعدى قال : استعمل النبى رجلا من الأزد يقال له ابن اللتيبة على الصدقة . فلما قدم . قال : هذا لكم ، وهذا أهدى الى ، فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى الى . أما والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئا الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تعير ... ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه ، اللهم هل بلغت... اللهم هل بلغت ... ثلاثا » .

وعن ابن مسعود قال : « السحت أن تطلب الحاجة للرجل . فيقضى له ، فيهدى اليه فيقبلها » .

وعن ابن مسروق ، أنه كلم ابن زياد فى مظلمة فردها ، فأهدى له صاحبها وصيفا فرده عليه . وقال : سمعت ابن مسعود يقول : من رد عن مسلم مظلمة فرزأناه عليها قليلا أو كثيرا ، فهو سحت ... قلت : يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى السحت الا الرشوة فى الحكم . قال : « ذاك كفر » .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال : « إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه ... وقال لعبد الرحمن ابن سمرة . يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فانك ان أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها » .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه

وروى أحمد وأبو داود عن أبى أمامة الباهلى . قال : قال رسول الله : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها ، فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا » .

يقول « رسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » .

« إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أقام نظاما سياسيا بارعا عادلا لحكم دولة ، ولقد كان ذلك سر قوة خلفائه الذين اتبعوه فى حكم المسلمين » .

ويقول الفيلسوف « سبنسر » .

« الاسلام مدنية كاملة . دين ودولة . لو وجدنا مقابلا له قلنا : العالم الإسيحى ولم نقل : المسيحية » .

١٩
شريعتنا الاسلامية ..

فاذا انتهينا من توضيح سياسة الاسلام الدستورية فى الحكم ونظمه ، وأنها سياسة ترتكز على الكليات الاسلامية المقررة ، وتدور جزئياتها مع الحياة ، وتتسع بالاجتهاد ، وتتطور مع المصالح المرسلة .

فان ما ينطبق على نظم الحكم فى الاسلام ينطبق أيضا على سياسته التشريعية ، فهى سياسة ترتكز على كليات عامة ، مبينة مضيئة فى الكتاب والسنة ، وتدور تلك الكليات مع الحياة ، وتتسع بالاجتهاد ، وتتطور مع المصالح المرسلة .

فكل كلية فى التشريع الاسلامى ، خلية عامرة بالحياة المتجددة ، التى ترسم الأفق الأعلى للروح الاسلامى ، ثم تترك للمشرع التفصيل والتقنين ، والمطابقة بينها وبين واقع الحياة ، ومقتضيات العرف ، وملابسات الزمان والمكان .

وهذه أكبر معجزات التشريع الإسلامى الذى جاء ليكون شعارا لخير أمة أخرجت للناس ، ودستورا هو عدالة الله بين خلقه ، ورحمته بين عباده .

فهو تشريع لا يستمد قانونه العام من الكتاب والسنة فحسب ؛ بل تتسع آفاقه لكل تطور فى الزمان أو المكان ، فيضيف إلى كلياته العامة فى الكتاب والسنة العقل الانسانى باجتهاداته وأقيسته واستنباطه ، والتطور الزمنى وما يتشأ معه للناس من أقضية وحاجيات ، فيضيف إلى الاجتهاد والقياس والاجماع قاعدتين تتسعان بآفاقهما الرحبة لكل طارىء على الحياة وقادم على الوجود : قاعدتى سد الذرائع والمصالح المرسلة .

والباحث فى التشريع الاسلامى يدرك للنظرة الأولى أن الأحكام التى شرعت للعبادات كانت مفصلة محددة محررة ، فهى تتناول الجزئيات تناولا مبينا فى الوضوء والتيمم والحيض والنفاس والصيام والاحرام وما إلى ذلك من الشئون التعبدية ؛ بل انها لتنفسح حتى تتناول ما هو أدق وأرق ، فترشد إلى الغسل ووسائله ومسبباته ، والاستنجاء وأدواته ، وعدد وحداته ، ثم تمتد إلى أعماق الوجدان وخواطر النفوس ، فيعلم الرسول صلوات الله وسلامه

عليه صحابته ، أدعية النوم والمأكل والمشرب واليقظة والأرق ، ولبس الثوب الجديد ودخول المنزل أو الخلاء والخروج منهما ، والمشى إلى المساجد ، ومجالس الذكر . حتى ليقول جابر رضى الله عنه فى الحديث الصحيح :

« لقد كان رسول الله يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا الصلاة » .

هذا التفصيل الواسع النطاق ، الرحب الآفاق ، لا تراه ولا تلمسه فى الأحوال الشخصية ، والمعاملات والدستوريات ، والاقتصاديات ، والأحكام المدنية والجنائية والسياسية ، فقد اكتفى القرآن والسنة هنا ، برسم الخطوط العريضة ، والكليات العامة ، وتركا التفصيلات والتطبيقات للناس يجيلون فيهما عقولهم بما يوافق مصالحهم ويكفل حاجياتهم .

فالعبادات لا مجال للعقول فيها ؛ لأنها فرائض مفروضة من الله تعالى لا تزول ولا تتغير بالزمان والمكان ، أما التشريع الذى يوجه الحياة ، ومصالحها . ويحكم فى قضاياها وشئونها ، ويمشى مع الناس فيما يضطربون فيه ويتعاملون ؛ فمن حق الناس أن يكون لعقولهم فيه مجال وتفصيل وبيان ، ومن بين سنن الخلود والبقاء أن يكون مرنا متطورا مع المد الحضارى والخطو البشرى .

والأصل فى الشريعة الاسلامية ، أنها شريعة تقوم على الرحمة والسعة والرفق والتيسير ، وبذلك ينتفى كل تشريع يوجب العسر والحرج .

يقول الله تعالى :

« ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ... « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ... « يريد الله أن يخفف عنكم » .

وهذا امتياز واصطفاء للأمة الاسلامية التى أكرمها الله وأنعم عليها ، وجعل من بعثة رسولها صلوات الله وسلامه عليه رحمة عامة للعالمين ، ورحمة خاصة بها ، هو هذا التشريع الذى وضع عنها الإصر والأغلال والشدة التى فرضت فى التشريعات السابقة .

يقول تبارك وتعالى فى شأن الأمة الاسلامية ورسولها العظيم :

« ... ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى

الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ... » سورة الأعراف .

لقد اصطفى الله سبحانه هذه الأمة فكتب لها رحمته التى تمثلت فكانت هذا التشريع الذى أحل لهم الطيبات كافة ، ولم يحرم عليهم إلا الخبائث من ميتة ودم ولحم خنزير ... إلخ .

التشريع الذى وضع عنهم الإصر والأغلال والقيود ، ومنحهم اليسر والسعة والرحمة ، لتكون حياتهم سلاما وأمنا وخيرا وبركة .

والإصر : وهو الأمر الغليظ ، والأغلال : وهى القيود ، كانا يضربان على اليهود فى صور تكليفات شديدة غليظة ، وتشريعات قاسية ثقيلة ، عقابا للشعب المتمرد الجاحد ، حتى أن التوبة كانت لا تقبل - فى التشريع الاسرائيلى - إلا بقتل النفس :

« فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ... »

فكان الثوب إذا أصابته نجاسة لا يتطهر الا بقرض الجزء الذى أصيب ، كما حرم عليهم - من باب التشديد والتدقيق - الانتفاع بغنائم الحرب ، والعمل فى يوم السبت ، وأكل لحوم بعض الحيوانات وشحومها ، وعدم قبول الدية فى القصاص .

ومن هذه الرحمة الالهية فى التشريع الاسلامى ، أن الأصل فى كل شىء هو الاباحة لا التحريم ، يقول تبارك وتعالى :

« ... هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا منه ... » بل إن الكون كله إنما خلق للانسان وسخر له أرضا وسماء :

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ... »

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ... إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان ؛ فلا تبحثوا عنها ... »

كل شيء حل إلا ما حرم ، وبذلك لا يعرف الاسلام هؤلاء الجهلة الذين يقذفون بكلمات التحريم فى وجه كل شيء ، ويضيقون على الناس أمورهم ويتشددون فيما أمر الله فيه باليسر والرحمة .

ولهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يكره كثرة السؤال فى أمور الدين والتشريع ، لأنها من علامات الجمود والتزمت ، ولأنها قد تدفع إلى تحريم وتضييق .

يخطب صلوات الله وسلامه عليه أصحابه فيأمرهم بالحج ، فيقوم رجل فيقول : أفى كل عام يا رسول الله ؟ ... فيعرض الرسول عنه ، ويكرر الرجل سؤاله ، فيكرر الرسول اعراضه ، ثم يقول :

« دعونى ما تركتكم ، فوالله لو قلت كل عام لوجبت ، ثم لا تطيقونها » .

ويقول الصادق الأمين فيما رواه الشيخان :

« ... أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته ... »

ويقول الرسول الذى هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، لمعاذ بن جبل ولأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن :

« يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » (١) .

ويبول أعرابى من غلاظ البدو فى مسجد رسول الله . فيثور به الصحابة ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه : « لا تزرموه » - أى لا تقطعوا عليه بوله - ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه . ثم قال :

« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين (٢) » .

وفى الحديث إشراقة يجب أن يفطن لها كل مسلم ، فالرسول يقول لأصحابه ...« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » ، وبذلك جعل من كل مسلم مبعوثا يحمل رسالة الاسلام ... رسالة اليسر والرحمة .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

« ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فأن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فإن الامام لأن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

ويقول الصادق الأمين :

« بعثت بالحنيفية السمحة » .. ويقول : « رفع عن أمتى ما أكرهوا عليه ، وما لا يطيقون ومالا يعلمون ، وما اضطروا اليه ... » .

ومن الأصول المقررة فى منطق الاسلام أن الله جل جلاله لا تضره معصية العاصى ، ولا تنفعه طاعة الطائع ، ولم يشرع سبحانه الحدود والأحكام لغرض أو هوى أو نفع ذاتى - تعالى سبحانه عن ذلك علـوا كبيرا - إنما شرعت لخير الناس وأمنهم وسعادتهم وطمأنينتهم ، شرعت لتكون الحياة أدنى ما تكون إلى الكمال والسلام ، فهى رحمة الله بين خلقه وعدالته بين عباده لتستقيم لهم الحياة وتعتدل موازينها .

فالأمر والنهى والحل والتحريم فى الاسلام يدورون مع الخير العام ، وعدم الضرر ، ومع الرحمة واليسر والسعة وعدم الضيق والحرج ، لا مع الأمر والنهى فحسب ، فاذا انتفى الخير انتفى الأمر ، واذا خيف الضر وقف النهى .

وبهذه المبادىء الشاملة دار التشريع الاسلامى مع المصالح العامة فى مرونة ويسر وعدم حرج أو تعثر ... مشى رحمة بين الناس يقيم موازينهم بالعدل والقسط ، ويهديهم صراطا مستقيما .

ولقد فهم المشرعون الاسلاميون هذه المعانى فى صدر الاسلام . فأداروا تشريعهم عليها وأقاموا اجتهادهم على نورها .

٢٧
روح التشريع معلل بالمصلحة

يقول العلامة الاسلامى عز الدين بن عبد السلام ، فى كتابه « قواعد الأحكام فى مصالح الأنام » :

« ... والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد فى دنياهم وآخرتهم والله غنى عن عبادة الكل ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وإن مصالح الآخرة لا تتم إلا بمصالح الدنيا ... »

ويقول الامام الشاطبى :

« والمعتمد أن الشريعة انما وضعت لمصالح العباد ، علم ذلك بالاستقراء فان الله تعالى يقول فى بعثة الرسل وهى الأصل :

« ... رسلا مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

والتعاليم لتفاصيل الأحكام من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى . كقوله تعالى :

« ... كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ...

وفى الصلاة : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. »

وفى القبلة : « فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة ... »

وفى القصاص : « ... ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب »

وفى الجهاد : « ... أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... » .

كل شىء فى التشريع الاسلامى معلل بخير الناس وصالح حياتهم ، وتلك حجة الله الكبرى فى تشريعه على عباده ، وتلك رحمته بين خلقه ، فمن أدرك هذه الرحمة ، فقد فقه الاسلام وفقه تشريعه .

ولقد ربى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أصحابه على هذا النهج ، فكان يعلل لهم كل حكم من أحكامه بعلته . والتعليل موجب للعلة أينما كانت كما يقول الأصوليون :

يقول الرسول لأصحابه :

« كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى لأجل الدافة فادخروها »

والدافة قوم من الأعراب يسيرون جماعات ، فلما هبطوا المدينة أيام عيد الأضحى أمر الرسول صحابته أن لا يدخروا لحوم أضاحيهم ليدفعهم إلى التصدق بها على هؤلاء القوم الذين وفدوا على مدينتهم ، فلما رحلوا وانتفت العلة ، زال معلولها ، فأمرهم الرسول بالادخار .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فانها تذكركم بالآخرة »

كان العرب فى جاهليتهم يعظمون قبور الآباء والأجداد ، ويقيمون حولها المحافل ، فنهى الرسول أصحابه عن زيارة القبور خشية أن يدفعهم قرب عهدهم بوثنية قومهم إلى ما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، فلما انتفى هذا الخوف برسوخ الاسلام فى القلوب ، أمرهم بالزيارة وربطها بالخير المنبثق من تذكر الآخرة .

وسأله بعض أصحابه عن بيع الرطب بالتمر ، فقال : « أينقص الرطب إذا يبس ؟ » فقالوا : نعم ، فقال :« فلا إذن» .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان يعلم أن الرطب اذا يبس نقص وزنه ، ولكنه تغاضى عن علم ، ليعلم أصحابه فقه التشريع ، وليعلمهم أن العلة فى تحريم البيع ، هو رجحان كفة على كفة ، وفى هذا ظلم لا ترضاه عدالة الاسلام .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه فى الصيد :

« ... فان وقع فى الماء فلا تأكل منه لعل الماء أعان على قتله » .

جعل علة التحريم خشية أن يكون الصيد قد مات مختنقا بالماء - وبهذا جاء التشريع الاسلامى تشريعا أصيلا يحترم العقول احترامه للمنطق ويدير أحكامه على العلة القائمة . فاكتسب المرونة التى تجعله تشريعا خالدا ناميا رابيا ؛ لا يقف ولا يجمد عندما تنبثق فى وجهه الأقضية والمسائل الطارئة .

ويقول ابن القيم فى كتابه الكبير « أعلام الموقعين » :

« ... فان شريعة الله مبناها فى الحكم مصالح العباد فى المعاش والمعاد ؛ وهى عدل كلها ؛ ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكم كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة

إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها التأويل .

فالشريعة عدل الله بين عباده ؛ ورحمته بين خلقه ؛ وظله فى أرضه ؛ وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها ؛ وهى نوره الذى أبصر به المبصرون ؛ وهداه الذى اهتدى به المهتدون ، وشفاؤه التام ، به دواء كل عليل ؛ وطريقه المستقيم الذى من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل ؛ وهى العصمة للناس ؛ وقوام العالم ؛ وبه يمسك الله السموات والأرض أن تزولا » .

كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ؛ وعن الرحمة إلى ضدها ؛ وعن المصلحة إلى المفسدة ؛ وعن الحكمة إلى العبث ؛ فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل .. ذلك هو الصراط المستقيم للمشرع الاسلامى ؛ وبذلك الصراط المبين يستطيع رجال التشريع فى كل زمان ومكان أن يقتبسوا من قرآنهم وسنة نبيهم الخير واليسر والعدل ؛ الذين هم قوام العالم .

ويقول فى كتابه « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » :

« ان الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ؛ وهو العدل الذى قامت به الأرض والسموات . فاذا ظهرت امارات العدل ؛ وأسفر وجهه بأى طريق كان ؛ فثم شرع الله ودينه ، بل قد بين الله سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده اقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط ؛ فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهى من الدين ، ليست مخالفة له . فلا يقال : ان السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع ؛ بل موافقة لما جاء به ، بل هى جزء من أجزائه ، ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم ؛ وانما هى عدل الله ورسوله ؛ ظهر بهذه الأمارات والعلامات »

هدف الشارع الأكبر هو العدل ؛ فاذا ظهرت أماراته ؛ وأسفر وجهه بأى طريق كان ؛ فثم شرع الله ودينه ، وأى طريق وأى نهج أدى إلى القسط والصراط المستقيم ؛ فهو دين الله وشرعته .

١٨

حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله

وعلى هذا الضوء : ضوء العلاقة الخالدة بين المصالح العامة والشريعة ، صدرت الأحكام الاسلامية التاريخية ؛ لا فى الأمور الاجتهادية فحسب ؛ بل وفى الأمور المنصوص عليها صراحة فى الكتاب والسنة .

يقول العلامة الطوفى - من فقهاء الحنابلة - فى شرح حديث « لا ضرر ولا ضرار » :

« إذا تعارضت المصلحة مع النص والاجماع ؛ وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان » .

ويقول الإمام مالك تعقيبا على ذلك الأصل التشريعى :

« ان طريقة الطوفى هى التمشى مع المصلحة المرسلة ... » .

ويقول الإمام ابن عقيل :

« ... وطريقة الطوفى ليست قولا بالمصلحة المرسلة على ما ذهب اليه مالك ؛ بل أبلغ من ذلك ؛ وهى التعويل على النصوص والاجماع فى العبادات والمقدرات ؛ وعلى اعتبار المصالح فى المعاملات وباقى الأحكام »

ويقول الإمام الشاطبى فى « الجزء الثانى من الموافقات » :

« ... فكل حكم شرعى فيه حق لله من جهة وجوب العمل به ؛ وفيه حق للعبد من جهة أنه ما شرع الا لمصلحته ؛ ولقد صدر كثير من المشرعين الاسلاميين عن المصلحة فى كثير من تشريعهم . فالعدل بين الناس هو المقصود من الشريعة الاسلامية ومن كل شريعة إلهية ؛ ينطق بهذا قوله سبحانه :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ؛ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ... » .

لهذا أمر الله المؤمنين أن يقوموا بالقسط ولو على أنفسهم أو الوالدين أو الأقربين :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ؛ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ... »

وأمر بالعدل مع العدو : « ... ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ... » .

والشاطبى هنا يمثل العقلية الاسلامية المشرعة المستنيرة التى تنفذ بصيرتها القانونية الى أهداف الشريعة العليا فى طلاقة ويسر وسماحة ومرونة حية خالدة ؛ فيضع فى كلمات قلائل قاعدة من أجل ما أصل المشرعون الاسلاميون من أصول فى تطبيقات الكتاب والسنة .

كل حكم شرعى له وجهان ؛ وجه هو حق الله المقدس فى وجوب العمل به ؛ ووجه هو حق للعبد من حيث إن الحكم ما شرع إلا لمصلحته وخيره فاذا قامت مصلحة الفرد مبينة مضيئة وقامت مصلحة الجماعة واضحة مشرقة فى أمر من الأمور فيجب أن يتحول الحكم فورا الى هذه الوجهة ؛ وأن تؤسس حيثياته على المصلحة القائمة .

لأن هدف الشريعة الاسلامية ؛ بل هدف كل شريعة إلهية ؛ هو إقامة العدل بين الناس ؛ والعدل خير ورحمة ؛ ولا يتفق العدل مع الضرر والضيق ؛ وهذا هو الميزان الذى أنزل مع الكتب السماوية ... الميزان الذى يجب أن يمشى جنبا الى جنب مع شرائع الله .

وليس فى هذا أى إهدار لحكم إلهى ؛ ولا اعتداء على قاعدة اسلامية ولا تبديل لشرعة الاسلام ؛ إذ أن الحكم هنا يرتكز - كما يقول العلامة الطوفى - على التخصيص والبيان .

وروى الشيخ الغلايينى ؛ فى كتابه « الاسلام روح المدنية [1] » ؛ « أن الامام مالك يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص ؛ لأن الله جل جلاله إنما شرع لمنفعة العباد ... » .

ويقول الاستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر فى كتابه « السياسة الشرعية والفقه الاسلامى [2] » تعقيبا على حرمان عمر ابن الخطاب المؤلفة قلوبهم من سهم الصدقات مع ثبوت حقهم بنص القرآن :

---

(١) ص ٣٩ .

(٢) ص ١٥ .

« وكذلك ليس من المخالفة لأدلة الشريعة ما فعله عمر بن الخطاب من حرمان المؤلفة قلوبهم من سهم الصدقات ، وإن كان هذا السهم قد قرر لهم في القرآن في قوله تعالى :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ... »

فلم يأخذ عمر بظاهر اللفظ ، ولم يقف عند حرفية النص ، بل راعى سره وحكم روحه ، وقرر أن الآية التى فرضت نصيبا لهؤلاء المؤلفة قلوبهم ، لم تفعل ذلك ليتخذ شريعة عامة يعمل بها فى كل حال وزمان ، بل إنما كان لحكمة خاصة ، وسبب لم يعد قائما بعد ، وأرشد الى هذا عمر بقوله :

« ان الله قد أعز الاسلام وأغنى عنهم » .

فعمر رأى أن سهم المؤلفة قلوبهم قد أوجبه الله لحاجة المسلمين الى من يعضدهم وينصرهم ، أو لا يؤلب عليهم . فاذا صار المسلمون فى قوة وعزة زال المعنى الذى من أجله وجب ذلك السهم ، وكان للامام أن يصرفه عن هؤلاء المؤلفة قلوبهم الى ما هو أجدى على المسلمين وأنفع ، وليس معنى هذا ابطال سهم المؤلفة رأسا ؛ بل إن أمره يدور مع ذلك السبب وجودا وعدما ، حتى اذا تجددت للمسلمين حاجة الى التأليف كما كانت الحاجة الى ذلك ، سمح للامام أن يصرف للمؤلفة قلوبهم على حسب ما يرى المصلحة ... » .

هذه هى شريعة الله الخالدة ... كائن حى دائم النماء ، تدور أحكامها مع المصالح العامة ، وليس معنى ذلك اهدار أحكامها . فالاحكام باقية . وانما تدور معلولاتها مع العلة ، فان انتفت العلة انتفى المعلول ، وان عادت عاد معلولها .

يأمر القرآن الكريم باعطاء المؤلفة قلوبهم سهما من أموال الصدقات ، وقد جاء هذا الأمر والمسلمون قلة يتخطفهم الناس ، والمؤلفة قلوبهم قوم أولو بأس ومكانة بين العرب ، فتألف المسلمون قلوبهم بالهبات والأموال دفعا لشرهم وكفا لأيديهم عن إلحاق الأذى بالمسلمين أو بدعوتهم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطيهم من الصدقات ، ويعطيهم أيضا من أموال غنائم الحرب ، واقتدى به أبو بكر رضى الله عنه مدة خلافته .

ثم ولى الأمر عمر بن الخطاب ، فجاءه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس – وهما من رؤوس المؤلفة قلوبهم – يطالبان بأرض كتب أبو بكر لهما بها ، فمزق عمر الكتاب الذى أعطاه أبو بكر لهما ، قائلا :

« ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم ... فان تبتم ... والا بيننا وبينكم السيف » .

لم يجمد عمر مع حرفية النص ، وإنما دار مع علته وروحه . لقد انتفت علة الحكم ، بقوة المسلمين ، فإن عاد أمرهم الى ضعف ؛ ورأى الحاكم أن من الدهاء السياسى أن يشترى أمثال هؤلاء الناس بالأموال فى سبيل المصلحة العامة ، فله أن يعود الى الحكم الاسلامى القائم الخالد وإن لم يكن منفذا ، وإن تعطل حينا (١) .

ولقد علم الرسول أصحابه – طوال حياته – كيف يجتهدون فى دينهم وكيف يدورون بأحكامه مع المصالح العامة ، فنهى مثلا عن أن تقطع أيدى السارقين فى دار الحرب ، خوفا من أن يلتحق السارق بالعدو رعبا من القصاص – كما روى أبو داود – وصدرت أحكامه صلوات الله وسلامه عليه – فى أكثر من موقف – دائرة مع المصلحة الراجحة .

ولقد واجه المسلمون فى فجر حياتهم مشاكل كبرى فى فهم التشريع ، وفى تطبيقاته العملية على واقع حياتهم ، ولكنهم استطاعوا بالفهم العالى لروح الاسلام وهم صحابة الرسول ، وأعلم المسلمين بالقرآن والسنة .

استطاعوا بهذا الفهم أن يدوروا بالأحكام مع المصلحة العامة فى سماحة ويسر كانتا السر الأكبر فى قوة العالم الاسلامى التى انبثقت فى سرعة فجائية مذهلة ، فطوفت راياتها حول العالم فى فتوحات عالمية تاريخية .

---

(١) عارض الأحناف هذه المسألة لأن من قواعد مذهبهم ، أن الأحكام الشرعية التى لها علل ظاهرة لا يشترط فى دوامها بقاء علتها ، كالشرعة فى الطواف ، علتها اظهار قوة الصحابة لأهل مكة ، وبقى الحكم دائما .

أما المالكية فقد أقروا عمل عمر فى اجتهاده ، وكذلك الشوافع ، ومجتهدوا الحنابلة : كابن تيمية وابن القيم .

وكان لعمر رضوان الله عليه - وهو صاحب أكبر العقليات التشريعية فى العالم الاسلامى - جهاد مشكور فى هذا السبيل ، وأحكام لا تزال تهدى كل دارس فى أفق التشريع الاسلامى ، فقد أدار أحكامه الاجتهادية على المصالح العامة فى تطبيقات مثالية أقره عليها العالم الاسلامى واقتدى به.. تطبيقات جزئية منيرة استهدفت الحالة الطارئة ، والقياس والاجتهاد النافع الصالح .

منع جلد شارب الخمر فى أيام الحرب أو فى دار العدو ، وجعل حيثيات هذا المنع « خشية تنصره » حيث حد مسلما فى دار حرب فتنصر . ولم ينفذ حد السرقة فى عام المجاعة « الرمادة » لأن الحد لا يقوم إلا بعد أن توجد الحياة الرخية المطمئنة التى تكفل لكل فرد بيتا وعملا ومطعما وملبسا فى يسر وسعة .

وألزم - فى حكم مشهور له - عامر بن بلتعة بدفع التعويض المناسب عن سرقة قام بها أحد خدمه ، لأنه أجاع الخادم حتى اضطر الى السرقة .

قال ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » :

« جىء لعمر بغلمة لحاطب بن أبى بلتعة ، سرقوا ناقة لرجل من مزينة فأقروا ، فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب ، وقال له : إن غلمان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، وأقروا على أنفسهم . ثم قال لكثير : اذهب فاقطع أيديهم ، فلما ولى بهم ردهم عمر . ثم قال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستغلونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ؛ لقطعت أيديهم ، وأيم الله اذا لم أفعل لغرمتك غرامة توجعك .. ثم قال : يا مزنى . بكم أريدت منك ناقتك ؟ ... قال : بأربعمائة . قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب : اذهب فاعطه ثمانمائة » .

وعمر هنا يقرر مبدأ هاما خطيرا . فانه يؤاخذ الذى هيأ الأسباب التى تؤدى لوقوع الجريمة ، ويعفو عن المضطر الذى قهره الجوع حتى سرق ، وهو مبدأ لو طبق فى عصرنا ، لوقع كثير من رجال المال والشركات والحكم فى العقوبة .

ولما رأى عمر استهانة الناس بيمين الطلاق - وهو مرض من أمراض النفوس - أراد أن يأخذهم بالقسوة لخيرهم . فحكم بوقوع الطلاق ثلاثا ممن

حلف بالطلاق ثلاثا فى لفظ واحد ، مع أن القرآن يقول : « الطلاق مرتان » والطلاق الثلاث مرة من المرتين .

يقول العلامة ابن القيم فى أعلام الموقعين :

« المقصود أن هذا القول « وقوع الطلاق الثلاث واحدة » قد دل عليه الكتاب والسنة ، والقياس والاجماع ، ولم يأت بعده إجماع يبطله ، ولكن رأى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم ايقاعه جملة واحدة ، فرأى من المصلحة عقوبتهم بامضائه عليهم ، ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه المرأة وحرمت عليه حتى تنكح زوجا غيره نكاح رغبة يراد للدوام ، لا نكاح تحليل ؛ فانه كان من أشد الناس فيه . فاذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق . فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم فى زمانه ، ورأى أن ما كان عليه عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد الصديق وصدر من خلافته ، كان الأليق بهم .

ثم يقول « فهذا مما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان ، وعلم الصحابة رضوان الله عليهم حسن سياسة عمر وتأديبه لرعيته فى ذلك فوافقوه على ما ألزم به ، وصرحوا لمن استفتاهم بذلك » .

وجاء نصارى بنى تغلب الى عمر - وهم قوم لهم كرامة وأنفة - فقالوا:

« لقد أنفنا من اسم الجزية التى تؤخذ منا ، فخذ منا زكاة كالمسلمين وضاعفها » .

وقبل عمر هذا العرض وأخذ منهم الزكاة وضاعفها عليهم ، مع أن النص القرآنى صريح فى أن الذى يؤخذ منهم هو الجزية لا الزكاة . ولكن أيتعبد عمر فى الألفاظ دون المعانى والحقائق ؟ ! .. لقد رأى شرا بازغا فتلافاه ، وفى الوقت نفسه ضمن لبيت المال حقوقه تحت اسم آخر .

وموقفه من تقسيم الفىء ، وهو أخلد المواقف كلها ، مع جلالها جميعها ، فقد هداه الله الى استنباط واجتهاد ، كانا الاساس الأول فى اقامة الاقتصاد الاسلامى وعظمة الامبراطورية الاسلامية التاريخية .

توالت انتصارات الاسلام فى فارس والروم ، وطوى الجند الاسلامى أرض الشام والعراق ، فرأى عمر نفسه أمام مشكل من أعقد مشاكل التشريع والحكم .

لقد استولى الجند المنتصر على أموال كسرى وذخائر قيصر ، كما أصبحت عشرات الملايين من الأرض الزراعية الخصبة فى قبضة الاسلام .

أما الأموال السائلة ، فقد أجرى فيها عمر حكم الاسلام ، أخذ الخمس لبيت المال وصرفه فى مصارفه العامة المشروعة ، ووزع الأخماس الأربعة على الذين نالوها بسيوفهم ، تطبيقا للآية الكرية :

« واعلموا إنما غنمتم من شىء ؛ فان لله خمسه وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

وبقيت الأرض الشاسعة ، أما الجنود فقد طالبوا بقسمتها على مقتضى الآية الصريحة ، الخمس لبيت المال والباقى للجنود كما نص القرآن ، وكما طبق الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولو أجاب عمر مطالبهم ، ومشى مع ظاهر الآية ومع السنة الثابتة لكان معنى ذلك أن تسلم أرض الشام والعراق بمن عليها للجنود الفاتحين فتتكون منهم فورا طبقة رأسمالية متميزة من أكبر طبقات المال فى التاريخ بينما لا يظفر بيت المال - وهو سند الأمة - إلا بجزء محدود من هذا الثراء الباذخ .

فكر عمر وقدر ، وأطال التفكير والتقدير ، فى هذا الأمر المشكل الخطير ، وهو يعلم أن شرع الله خير وعدل وحكمة ، وأن أحكام شريعته لا تتمشى مع الأمر والنهى فحسب ، وانما تتمشى أيضا مع مصالح الناس ، وتتطور بحسب ما يتجدد لهم من أقضية وحاجيات ، وهو يعلم أن أمر المسلمين شورى فى شريعتهم وحكمهم وحياتهم .

فجمع عمر قواد الجند ليستأنس بآرائهم ، وخاطبهم بحجته قائلا :

« اذا قسمت الأرض على الجنود فيكون بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ! ، ما هذا برأى . فقالوا له : ما الأرض والعلوج الا ما أفاء الله علينا بسيوفنا ، فقال عمر : هو ما تقولون ... ولكن لست أرى ذلك ... والله ما يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ؛ بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها فبماذا نسد الثغور ؟ .. وما يكون

للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟ .. فقالوا : أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا . قال : هذا رأى لخير الناس جميعا ، فقالوا له . استشر قال : أفعل ان شاء الله .

« فجمع المهاجرين الأولين ، فاختلفوا . ذهب فريق - على رأسه عبد الرحمن بن عوف - الى رأى الجند ، وذهب فريق - على رأسه على بن أبى طالب - الى رأى عمر . فأرسل عمر الى عشرة من رؤساء الأنصار وفقهائهم وقال لهم : انى لم ازعجكم إلا لتشتركوا معى فى أمانتى فيما حملت من أموركم ؟ .. فانني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون الحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى الذى هو هواى ، فلكم من كتاب الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق ، فقالوا له : قل نسمع يا أمير المؤمنين . فقال لهم : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا انى أظلمهم حقوقهم ، وأنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، لكنى رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس ، فوجهته على وجهه ، وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين - المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم - أرأيتم هذه الثغور ، لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد من ادرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون ؟ .

فقالوا جميعا له : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إذا لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، ويجرى عليهم ما يتقون به ، رجع أهل الكفر الى مدنهم » .

وبانضمام الأنصار الى رأى عمر غدت الكثرة فى جانبه - والتشريع الاسلامى شورى بين المسلمين - فأمضى عمر حكمه الخالد . جعل الأرض جميعا ملكا لبيت المال - أى أمم الأرض المفتوحة - وأقر أصحابها عليها ،

وفرض عليهم الجزية والخراج ، وبذلك كسب المسلمون قلوب أهل الشام والعراق ، وكسبوا جهودهم فى أرضهم ، كما ظفرت الدولة بدخل ضخم دائم ومورد ثابت يمد بيت المال بالملايين من الجنيهات سنويا .

لقد مشى عمر رضى الله عنه مع التطور التاريخى ، مقدما مصلحة الأمة الاسلامية على كل شىء ، مديرا لكل حكم مع المصلحة العامة ، فكان رأيه كما يقول الامام أبو يوسف الفقيه الحنفى الكبير فى كتابه « الخراج » :

« توفيقا من الله كما عوده فى كثير من الحالات [1] » .

واقتدى بعمر العظيم الصحابة جميعا ، فكانوا أئمة فى الاجتهاد ، ثمة فى فهم روح الاسلام والاحاطة بأسرار تشريعاته .

جاء الجند الى سعد بن أبى وقاص ، بأبى محجن الثقفى يوم القادسية ، وقد شرب الخمر فأمر به الى القيد ، وسجنه بحجرات قصره ، فلما التقى الناس ودارت رحى الحرب بين المسلمين والفرس فى ليلة القادسية ، وأبو محجن ، بطل له جهاده وبأسه ، عز عليه أن تقوم للحرب حلقة لا يكون من أبطالها وأن تسل سيوف فى سبيل الله لا يكون من أصحابها .

يقول المسعودى فى مروج الذهب [2] :

« فحبا حتى صعد الى سعد يستشفعه ويستقيله ويسأله أن يخلى عنه ليخرج ، فزجره سعد ورده فانحدر راجعا ، فنظر الى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان سعد قد تزوجها بعده ، فقال : يا بنت حفصة هل لك فى خير ؟ . فقالت : وما ذاك ؟ ... قال : تخلين عنى ، وتعيريننى البلقاء - فرس سعد - ولله على إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى القيد . فقالت : وما أنا وذلك ، فرجع يرسف فى قيده ؛ وهو يقول :

كفى حزنا أن ترسل الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا على وثاقيا
اذا قمت عنانى الحديد فأغلقت ... مصاريع من دونى تصم المناديا
فلله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

(١) جـ ٢ ص ٣٢٣ .
(٢) ص ١٤ - ١٥

فقالت سلمى : انى استخرت الله ورضيت بعهدك . فأطلقته .. وقالت : شأنك وما أردت ، فاقتاد بلقاء سعد ، وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ، ثم جال فى صفوف الفرس جولات هائلة حتى قال الناس : ان كان الخضر يشهد الحرب ؛ فهذا هو الخضر قد من الله به علينا .

فلما انتصف الليل تحاجزت الناس ، وتراجعت فارس الى أعقابها وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ورد البلقاء الى مربطها وعاد الى محبسه ، ووضع رجله فى القيد وهو ينشد :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكرمهم دروعا سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
فإن أحبس فذلكم بلائى ... وإن أترك أذيقهم الحتوفا

وأخبرت سلمى سعدا بما كان من أمر أبى محجن ، فقال سعد : لقد كنت أقول : الصبر صبر البلقاء والظفر ظفر أبى محجن ، وأبو محجن فى القيد ، الآن حصحص الحق ، والله لا أضرب اليوم رجلا أبلى للمسلمين ما أبلاهم ، ولا أسجن اليوم رجلا هذا جهاده ، فخلى سبيله ، فقال أبو محجن ، كنت أشربها اذا تقيم على الحد ، فأما اذا أسقطت الحد عنى ، فوالله لا أشربها أبدا » .

قال ابن القيم : قال ابراهيم :

« وليس فى هذا ما يخالف نصا أو قياسا ، ولا قاعدة من قواعد الشرع ، ولا اجماعا ؛ بل لو ادعى أنه إجماع الصحابة كان أصح » .

تلك هى فلسفة التشريع الاسلامى ، أو السياسة التشريعية فى الاسلام . وهى سياسة أصيلة عريقة ، فان سعدا اتبع فى ذلك هدى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقد رأى بطولة الثقفى وجهاده ونكايته فى العدو ، وبذله نفسه فى سبيل الله ، ورأى فى كل هذا ما يدرأ عنه الحد ، لأن الحسنات يذهبن السيئات ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال له :

« يا رسول الله أصبت حدا فأقمه على ، فأعرض عنه ، حتى أقيمت الصلاة . فصلى ، ثم عرض له الرجل ، فقال : يا رسول الله أصبت حدا فأقمه على فقال له الرسول : هل صليت معنا هذه الصلاة .قال : نعم قال : اذهب فان الله قد غفر لك حدك » . وكلا الذنبين لم يكونا من حدود العباد ورفع الى الامام أبى يوسف القاضى والفقيه الحنفى الكبير ، أن مسلما قتل ذميا ، فحكم بالقود ، فأتى برجل برقعة فألقاها ، فاذا فيها : . . .

يا قاتل المسلم بالكافر	جرت ، وما العادل كالجائر ! !
يا من ببغداد وأطرافها	من علماء الناس أو شاعــــر
استرجعوا وابكوا على	دينكم واصطبروا فالأجر للصابر
جار على الدين أبـــو	يوسف بقتله المسلم بالكافـــر

وثار العامة ، والتهبت بغداد بالفتنة ، فدخل أبو يوسف على الرشيد أمير المؤمنين وأقرأه الشعر وأخبره الواقعة وثورة العامة . فقال الرشيد .

« تدارك هذا الأمر حتى لا تستفحل الأمور » .

فخرج أبو يوسف وطلب من أصحاب الدم البينة على الذمة وثبوتها ؛ فلم يأتوا بها فأسقط القود ودفع لهم الدية من بيت المال ؛ وأنقذ بذلك بغداد من فتنة هوجاء .

ويقول الامام الحسين بن المنصور فى كتابه « هداية العقول » :

« إن المؤيد بالله يجوز تأخير القصاص لمصلحة العامة ، كما يجوزه إذا خيف الفتنة » .

ويقول الإمام أبو يوسف ، بجعل البر والشعير موزونين ، مع ورود النص الشرعى القاطع باعتبارهما مكيلين ، واستند أبو يوسف على العرف ، وجعل العرف فى التشريع قاعدة راجحة .

بهذه الروح فهم السابقون الأولون الاسلام ، فلم يشعر أحد منهم ، بأن شريعة الله السمحاء هى قيود لا تنفصم ، وجمود لا يتطور ، وهى التى جاءت محجة بيضاء فى ضوء الحياة وسعتها .

لقد مشوا بها الى حياتهم . يطبقونها على قضاياهم ، لتكون رحمة وخيرا وسعة ، ومشوا بحياتهم اليها فى يسر وطلاقة وسماحة ، فاتسعت لهم

آفاقها الفسيحة وشملتهم خيراتها المباركة ، وأحس المسلمون تحت ألويتها بالحرية والعزة والقوة ، وكمن فى وجدان كل مؤمن بأنه على الصراط المستقيم ، وأن شريعته هى رحمة الله بين عباده ، وأن أمته خير أمة أخرجت للناس .

فلما ضاقت العقلية الاسلامية ، وجمدت وخمدت ، ضاقت بهم وعليهم الشريعة التى أرادها الله يسرا لا حرج فيه ، وخيرا لا ضرر معه .

لقد انتهت الأمة الاسلامية - كأمة حية نامية - يوم تنادى فقهاؤها بغلق أبواب الاجتهاد والقياس والاستنباط ، وإهدار قاعدتى سد الذرائع ، والمصالح المرسلة ، وهى أبواب الرحمة التى اختصت بها أمة القرآن ، وهى الميزان الذى أنزله الله مع الكتاب .

لقد أفتى المفتون منهم بأنه لا اجتهاد بعد القرن الرابع الهجرى . كأن الله سبحانه قد أمسك خزائن رحمته فلا تفيض على عباده بعد هذا التاريخ الذى قدروه وحددوه ، وكأن حكمة الله قد رفعت من هذا الكوكب ، فلا تلد أنثى بعد زمنهم المقدر عقلا ذكيا ، وكأن الله سبحانه قد أمسك حركة الكون فلا دوران لها حتى لا تنجم للمسلمين أقضية ، أو تمشى الى مجتمعاتهم مسائل ومشاكل تستلزم تشريعا واجتهادا .

ولقد جمد المسلمون وتحرك الكون ، وجمد الفقهاء ، وخلق الله عقولا ، واختفت أبواب الاجتهاد والقياس والاستنباط وسد الذرائع والمصالح المرسلة ، وبزغت ونجمت فى الأفق الاسلامى مئات القضايا وآلاف المسائل التى وقف المسلمون حيالها حيارى لا يجدون لها حلولا تربطها بحياتهم وتصلها بتشريعهم ، لأن القدامى لم يبدوا فيها رأيا ، ولم يقولوا فيها قولا .

ودار الكون وجمد المسلمون جمودا جديدا ، ومشت الحياة ، ومشى الناس فى ضوء الشمس ، وتوارى المسلمون وراء السحب ، وأدخلوا رؤوسهم فى الجحور الضيقة ، لقد حطموا المصابيح التى أضاءت شريعتهم وتركوا نهج رسولهم وسياسة خلفائهم ومنطق مجتهديهم . وأغرموا غراما قاتلا بالجدل اللفظى ، فأخذوا يفلسفون الألفاظ ويتعبدون فى صيغها ويخلقون حاشية لكل

قول ، وهامشا لكل لفظ .حتى اختفى الفقه والتشريع تحت جبال من الأوهام ، وأكداس من الافتراضات وحشود هائلة من الكلمات الجوفاء .

يقول الامام ابن القيم مهاجما الفقهاء المتزمتين الجامدين ، ناسبا إليهم نكبة العالم الاسلامى وفقدانه لتشريعه :

« جعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة الى غيرها ، وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له ، وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعا أنها حق مطابق للواقع » ...

الى أن يقول :

« فلما رأى ولاة الأمور ذلك ، وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا من أوضاع سياستهم شرا طويلا وفسادا عريضا » .

١٩

التشريع الإسلامي يدور مع واقع الحياة

وفى كلمة ابن القيم ، شعاع يرشد الى سر من الأسرار الضخمة التى تكمن وراء ابتعاد العالم الاسلامى عن شريعته السماوية ، فالتشريع الذى يمشى مع الناس فى حياتهم كائن حى نام متطور ، وكل كائن حى يلحقه الجمود وتتفتح له سراديب الموت .

ولقد جمد الفقهاء ، وتقدم الزمن ، فنادت ضرورات الحياة الملحة بأنها فى حاجة الى تشريع يلاحق تطورها وأحداثها ، فرأى ولاة الأمور - كما يقرر ابن القيم - أن الناس لا يستقيم لهم أمر الا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء الفقهاء من التشريع ! ... فأحدثوا قوانين وأنظمة تتلاءم مع واقع الحياة ، قوانين وأنظمة لم يهيمن عليها الاسلام ، ولم تضئها هدايته ؛ بل هيمن عليها الملوك والأمراء ، ومن ثم لونوها بأغراضهم وأحاطوها بأهوائهم ، فأحدثوا من أوضاع سياستهم شرا طويلا ، وفسادا عريضا .

ولو أن الفقهاء فقهوا حقا روح الاسلام لوجدوا فى أصوله التشريعية القوة الكاملة لامدادهم بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس - فى مختلف بيئاتهم وعصورهم - العدالة والاطمئنان والحياة الكريمة الطيبة .

يقول العلامة الشيخ محمد الخضر حسين فى رسالته عن مدارس الشريعة الاسلامية وسياستها (١) :

« لا يستقيم لقانون تفصل أحكامه أن يطرد فى جميع العصور ، أو ينسحب على سائر الأقطار ؛ لأن المصالح والمفاسد التى توضع لها القوانين لا تلحق كل الأعمال لذاتها أو لوصف لا ينفك عنها حتى يكون العمل دائما لمصلحة أو مفسدة ، بل المصلحة والمفسدة تترتب على الأفعال ترتيب المسببات العادية على أسبابها ، مثل ترتيب منافع الأدوية ومضارها عليها ، فانهـــا

---

(١) جـ ١ ص ١٢ .

تختلف باختلاف الأحوال والأزمان ، فالعمل قد يكون منشأ لمصلحة فى حال أو زمان ، أو فى حق أشخاص فيستدعى الاثبات والاقبال عليه ، وقد ينتقل فعله الى أن يتصل بمفسدة فيستحق النفى والبعد عن جانبه .

ومن هنا كان بعض من لا يعرف بطانة للشريعة الاسلامية يتردد ويرتاب فى صلاح العمل بها فى كل عصر وجيل . ويقول : إن حقيقة القانون لا تنطبق على ما قررته من القضايا ، لأن من خصائص القانون أن يتبدل ويتجدد بحسب تغير العصور والأحوال .

ولا أرى هؤلاء إلا أنهم اعتقدوا شريعة الاسلام بمثال القوانين الوضعية فصلت أحكاما أو أعطت قواعد قريبة من التفصيل ثم قطعت وحيها عن الناس .

إن الشريعة ضمت تحت جوانحها حقائق حفظت مصالح كل العصور والأجيال ، ومكنت المجتهد فى كل عصر أن ينتزع - لأى حادثة تعرض - حكما يلائم مصلحتها . فقد فتحت الشريعة باب القياس ، وهو - كما قررنا - إلحاق الأمور التى لم تطلع على نص عام أو نص مفصل يدل على حكمها بالأمور التى تقررت لها أحكام بجامع العلل التى هى دائرة على اعتبار المصالح والمفاسد ، ويسع هذا الباب من الوقائع المتجددة ما لا يحيط به الاستقصاء .

أقامت الشريعة دعائم كلية . وينبنى على كل دعامة منها أصول وأحكام يستخرجها العارف بطبيعة النوازل ، القائم بمقصد الشارع فى أمثالها ، ومن هذه الدعائم قولهم - الضرر يزال - ومن مآخذها قوله عليه الصلاة والسلام :

« لا ضرر ولا ضرار » .

ومنها : « المشقة تجلب التيسير » .

ومن دلالتها قوله تعالى :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

ويدلنا دلالة جلية على اعتبار الشريعة للمصالح أن المجتهدين الذين هم أعرف الناس بمقاصدها لا يقفون فى بعض الأحيان على ظواهر القرآن والحديث

فيقيدون مطلقاتها ، ويخصصون عمومياتها بمثل هذه القواعد ، ومثال هذا ، أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه » .

وهذا مطلق فقه الامام مالك ، بما اذا وقعت بين الخاطب والمخطوبة مراكنة واتفاق على الصداق . وقال فى الموطأ :

« .. وليس هذا بمراد إذا خطب الرجل المرأة فلم يوافقها أمره ، ولم تركن إليه ، ألا يخطبها أحد ، فهذا باب فساد يدخل عليه الناس » .

ويماثل هذا حديث الصحيحين ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قضى باليمين على المدعى عليه ، فحمله الامام مالك وموافقوه على ما اذا كان بين المدعى والمدعى عليه خلطة ، حذرا من أن يتجرأ السفهاء على أهل الفضل ويبتذلوهم بتحليفهم فى اليوم الواحد مرارا ، فانظروا كيف خص الحديث بشرط الخلطة ؛ لكف ما يتوقع من الضرر على أهل الفضل ، حيث علم من مقاصد الشريعة سد الأبواب التى يتطرق الفساد من ناحيتها .

وقد يتوقف الأئمة عن العمل بحديث الآحاد إذا ورد مناقضا لقاعدة انتزعوها من موارد لا تحصى حتى قطعوا بصحتها ، وقصد الشارع الى اقامتها ، كما صنع الامام مالك وغيره فى حديث :

« المتبايعان فى الخيار ما لم يفترقا »

فانه نظر الى أن افتراقهما وانفصال أحدهما عن الآخر ليس له وقت محدود .

ومن شواهد الاعتبار بالمصالح والمفاسد أن من الأشياء ما يكون فى نفسه خاليا من المفسدة ، ولكنه يقرب منها ، بحيث يجر بطبيعته الى ما فيه المفسدة ، فتعاليم الاسلام تقتضى المنع منه ، كما تأذن فى الاعمال التى تكون عارية من المصلحة فى ذاتها ، الا أنها تفضى بعادتها الى الأعمال المقترنة بالمصالح ، ولهذه القاعدة المعروفة بسد الذرائع وفتحها فائدة عظيمة ومدخل فى مواقع السياسة بديع .

ومن وفاء الاسلام بحق المصالح أن جعل للعرف والعادة مكانة فى تفاصيل الأحكام ؛ فان من الأحكام ما يبنيه الشارع على رعاية حال مستمرة

وسبب لا ينقطع ، فيتعين العمل به فى كل زمان ومكان ، كالمنع من الربا ، ومنها ما يبنيه على رعاية أحوال تتغير وعوائد تتجدد ، وهذا النوع من الأحكام لا يلزم اطراده فى كل عصر ، ولا إجراؤه بكل موطن : بل يجرى العمل فيه على ما يقتضيه العرف السائد بين الناس .

قال شهاب الدين القرافى فى قواعده :

« ان الأحكام تجرى مع العرف والعادة ، وينتقل الفقيه بانتقالها ، ومن جهل المفتى جموده علي النصوص فى الكتب غير ملتفت الى تغير العرف ، فان القاعدة المجمع عليها أن كل حكم مبنى على عادة اذا تغيرت العادة تغير الحكم ، والقول باختلاف الحكم عند تبدل الأحوال والعادات لا يستلزم القول بتغيره فى أصل وضعه والخطاب به كما توهمه بعضهم ، وانما الأمر تدعو اليه الحاجة عند قوم أو فى عصر فيكون مصلحة وتتناوله دلائل الطلب فان لم تقتضه عادتهم ، ولا تعلقت به مصلحتهم ، دخل تحت أصل من أصول الاباحة أو التحريم ... » .

والعلامة الخضر هنا يقرر حقائق يؤمن بها ، ويعلمها كل من فقه روح الاسلام وسر تشريعه ، فان كل مشرع يجمد على النصوص فى الكتب غير ملتفت الى ظروف المكان والزمان ، وهو مشرع قاتل لروح أمته ، مهدر للميزان الذى أنزل الله سبحانه مع كتابه ، لأن التشريع الحى هو الذى يدور مع الحياة واليسر والخير ، ويجانب الضيق والضرر والعسر ، ولا يجمد على ألفاظ وأحكام ؛ بل يرقب علل الأمور ، ويستشرف مصالح الفرد والجمهور .

هكذا كان تشريع المسلمين فى عهد الرسول وفى أيام الأئمة الراشدين وفى العصور المضيئة المتلألئة من تاريخهم الخالد .

لم تقف النصوص ، ولم يقف المأثور ساعة من زمان فى وجه مصلحة قائمة أو ضرورة طارئة أو حادثة مفاجئة ؛ لأن الأصل الأصيل والقاعدة التى تجب كل قاعدة ، هو خير الناس ودفع الأذى والشر عنهم .

أباح الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه فى عهده قراءة القرآن على سبعة أحرف إباحة الأصل فيها التيسير على العرب أصحاب اللهجات المختلفة .

فلما رأى عثمان وكبار الصحابة أن المسلمين قد تفرقوا فى الأمصار ، وتباعدت بهم الأقطار ، وأن فى اختلاف القراءات ما قد يحدث بلبلة للناس

ويفتح أبوابا للشر والفتنة ، جمع عثمان الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة وجمع مصحفه التاريخى المعروف ، ووزع نسخه فى سائر أرجاء العالم الاسلامى ، ومنع الناس من القراءة بغيره تمشيا مع المصالح المرسلة (١)

ويروى الامام مالك فى الموطأ (٢) أن ضوال الابل كانت تترك فى عهد عمر مرسلة تتناتج لا يمسها أحد حتى يجدها صاحبها ، وذلك لحديث الرسول فى الصحيحين عن زيد بن خالد الجهنى قال :

« جاء رجل الى رسول الله فسأله عن اللقطة فقال : اعرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة ، فان جاء صاحبها ، والا فشأنك بها . قال : فضالة الغنم ؟ ... قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب . قال : فضالة الابل ؟ ... قال : مالك ولها ؟ ! ... معها سقاؤها وغذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها » .

لكن الانسان متغير كما يقول الفلاسفة . والضمائر ترق بمرور الزمن ، اذ أن عثمان رأى الأيدى تمتد إلى ضوال الإبل فلا يصل بعضها الى أصحابها فرأى أخذا بالمصالح المرسلة أن يمنع التقاطها ، وعين راعيا يجمعها ويعرفها ، فان لم يجد صاحبها باعها وحفظ الثمن حتى يجىء .

لقد أخذ عثمان بالمصلحة العامة المرسلة التى لا دليل عليها من النص مع وجود نص يخالفها ، وذلك لتغير الناس (٣) .

ولما ولى أبو بكر الخلافة وأسس بيت المال ساوى فى العطاء بين المسلمين جميعا ، واحتجت طائفة من الصحابة على تلك السياسة قائلين للخليفة :

« كيف تجعل من ترك دياره وأمواله وهاجر فى سبيل الله كمن دخل فى الاسلام كرها » ... فقال أبو بكر :

---

(١) الطرق الحكيمة ص ١٨ - ١٩ .
(٢) جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٣) الفقه الاسلامى ص ٤١ - ٤٢ للدكتور محمد يوسف موسى .

« إنما أسلموا لله ، وأجورهم على الله ، وإنما الدنيا بلاغ » .

فلما انتهى الأمر الى عمر فرق بينهم ، وميز المهاجرين والأنصار عن غيرهم فى أنصبة بيت المال .

فلما ولى على الخلافة رد الأمر على ما كان عليه فى عهد الصديق وساوى بين الناس جميعا فى العطاء .

والمتأمل فى أسرار التشريع والتقنين يرى أن ظروف كل خليفة كانت تحتم عليه ما فعل .

فقد ولى أبو بكر أمر المسلمين والاسلام فى بدايته يحتاج إلى أن يؤلف بين قلوب الناس ، وأن يستهوى أفئدتهم إلى ساحته ، فساوى بينهم جميعا فى العطاء .

فلما ولى الفاروق - وقد اعتز الاسلام واتسعت رقعته ، وتعاظم جنده وأقبلت الأمم والشعوب تتسابق على هديه - رأى أن يجعل للمهاجرين والأنصار - وهم الذين حملوا راية الاسلام ، وصبروا الصبر الجميل الكريم على البأساء والضراء وبذلوا أموالهم فى سبيل الله - ثمرة مما صنعت أيديهم فميزهم عن غيرهم فى العطاء .

فلما جاء على رضى الله عنه ، والدنيا تموج بالفتنة ، والصيحة عالية ضد قريش وما تدعى لنفسها من حقوق ، رأى أن السياسة الحكيمة أن يساوى بين الناس جميعا فى أنصبة بيت المال .

فالمصالح المرسلة اذن باب من أبواب التشريع ، زاوله المسلمون الأولون وداروا به مع تطور حياتهم ، ولاحقوا به الخطو الانسانى فى نموه وتعدد بيئاته وألوانه .

ومن هذا الباب استطاع المشرعون فى شتى العصور أن يجدوا فى الشريعة لكل نازلة حكما ، إن لم يكن هناك النص المحدد ، أو تصرفوا فى النصوص على وجه الحق والعدل والمصلحة العامة .

يقول الامام الشاطبى (١) :

---

(١) الموافقات جـ ١ ص ٣٠٥ .

« ... اننا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد ، فأحكام المعاملات تدور معه حيثما دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فاذا كان مصلحة جاز ... » .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « علم أصول الفقه » :

ومن استقرأ آيات الأحكام فى القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية فى العبادات وما يلحق بها من الأحوال كالمواريث .

لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدى لا مجال للعقل فيه ولا يتطور بتطور البيئات .

وأما فيما عدا العبادات والأحوال الشخصية من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية . فأحكامه فيها – على الأغلب – قواعد عامة ، ومبادىء أساسية ، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا فى النادر ، لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح .

فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة والمبادىء الأساسية ، ليكون ولاة الأمور فى كل عصر فى سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم ، وفى حدود أسس القرآن العامة من غير اصطدام بحكم جزئى .

٤٠

التشريع الاسلامى يقوم على الاجتهاد

فاذا ثبت لدينا أن التشريع الاسلامى ، يدور مع الحياة ويتمشى مع الخطو البشرى ، وأنه كائن حى دائم النماء ، يتسع ويتسع لكل ألوان الحياة ، لأنه تشريع خالد ارتضاه الله سبحانه لخلفائه علي هذا الكوكب ، وامتن به على عباده ، ليكون قوام الحياة الفاضلة للانسانية كافة .

فان تاج هذا التشريع ... تاجه المتلألىء فى جلال وسموق ، أن محوره الأكبر يرتكز على حرية العقل واجتهاداته ، فقد جاء بالكليات الكبرى ، ورسم الخطوط العليا ، وترك لأتباعه أن يجيلوا عقولهم فى تطبيق تلك الكليات ، وأن يفصلوا جزئياتها تبعا لمقتضيات حياتهم واختلاف بيئاتهم وأزمانهم ومصالحهم .

ومنذ اليوم الأول فهم المسلمون أن رسالة نبيهم تنطوى على ديـــن وتشريع .

أما الدين ، فهو العبادات التى أمر الله بها وافترضها على عباده ، وهى خالصة له جل جلاله ، ولا مجال للعقول فيها .

وأما التشريع فقد جاء أولا وقبل كل شىء لخير الناس وسعادتهم وتنظيم حياتهم واقامة نهجها على أقوم السبل .

وما حرم الشيء أو أحل فى هذا التشريع الا تبعا لما فيه من مصلحة للناس أو إضرار بهم .

يقول الامام ابن تيمية (١) :

« ... وقد بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بدين وشريعة » .

أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ووحيه ، ولم يكل الناس الى عقولهم فى شىء منه .

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ ١ .

وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للنظر الاجتهاد فى تفصيلها .

ولقد علم القرآن المسلمين أن يجتهدوا ، وأن يستنبطوا ، وأن يسترشدوا بعلمائهم ومفكريهم . يقول سبحانه وتعالى فى محكم آياته :

« ... وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم ؛ لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

وهى دعوة صريحة الى الاستنباط والاجتهاد حتى فى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبين يديه .

ولذلك حدثنا التاريخ فأطال الحديث عن الصحابة الفقهاء الذين عرفوا بالاجتهاد فى الأحكام والأقضية فى عهد رسول الله .

وحدثنا التاريخ فأطال الحديث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكيف كان يدرب أصحابه على القضايا والأحكام ، ويشجعهم على حرية التفكير وحرية الاجتهاد ،ويملأ قلوبهم ثقة وطمأنينة عند الخوف من الخطأ مع الاجتهاد ، فللمجتهد المصيب أجران ، وللمخطىء أجر [١] :

« ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما » .

وروى الآمدى فى الاحكام [٢] عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبيه قال :

« جاء خصمان يختصمان الى رسول الله . فقال لى يا عمرو : اقض بينهما . فقلت : أنت أولى منى بذلك يا رسول الله . قال : وان كان ... قلت : على ماذا أقضى ؟ ... فقال : ان أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات ، وان اجتهدت وأخطأت فلك حسنة » .

وعلى هذه الحرية المطلقة ، والسماحة المشرقة ، والاجتهاد الكريم الواسع الآفاق ، قامت حياة المسلمين منذ فجرهم الأول ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتهدون ويشجعهم الرسول على هذا الاجتهاد ويباركه .

---

(١) « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» رواه أحمد وأبو داود والترمذى مرسلا .

(٢) جـ ٤ ص ٢٣٦ .

وتشربت نفوسهم الحرة مبادىء الاسلام ، فكانوا يختلفون فى فهمهم للقضايا ، وفى فهمهم للأحداث ، ولكنه اختلاف الأحرار ، لا يعرفون لجاجة ولا خصومة ، ولا يتنابزون بالألقاب ، ولا يتراشقون بالتهم ولا يفكرون فى أن يحجروا رأيا أو يقيدوا فكرا .

روى الطبرى «أن عمر بن الخطاب - وهو الخليفة - لقى رجلا له قضية فسأله : ما صنعت ؟ ... قال : قضى على وزيد بكذا . قال عمر : لو كنت أنا لقضيت كذا . قال الرجل : فما يمنعك والأمر اليك ، فأجابه عمر : لو كنت أردك الى كتاب الله أو إلى سنة رسوله لفعلت، ولكنى أردك إلى رأى ، والرأى مشترك » .

أى سماحة من أمير المؤمنين ، وأى فهم للحرية ، وأى تقديس لها .

روى ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » [1] عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب :

« لا يصلى أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدركهم وقت العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، ولم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحدة من الطائفتين . قال أبو عمر : هذه سبيل الاجتهاد على الوصول عند جماعة الفقهاء » .

ويصرح ابن القيم فى « أعلام الموقعين » بأن الرأى وجد بين الصحابة فى زمن النبى . إذ يقول :

« وقد اجتهد الصحابة فى زمن النبى فى كثير من الأحكام ولم يعنفهم ، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلاها فى الطريق . وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا الى المعنى ، واجتهد آخرون وأخروها الى بنى قريظة فصلوها ليلا ، نظروا الى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر ، وأولئك سلف أصحاب المعانى والقياس » [2] .

---

(١) ص ١٣٢

(٢) جـ ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق [1] :

« وسن الرسول لولاته فى الأمصار أن يجتهدوا ، وجاء القرآن نفسه بأحكام كلف بها المسلمين على أن يكون سبيلهم فى طاعتها الاسترشاد بالعقل فحدث الاجتهاد فى التشريع الاسلامى منذ عهد الاسلام الأول فى كنف القرآن بترخيص من الرسول عليه الصلاة والسلام » .

وكانوا يرون أن أكبر نعم الله علي عباده هو أن يؤتيهم فهما فى القرآن ، وفهما فى حديث رسول الله ، وفهما فى قضاياهم ، فهذا الفهم هو الحكمة التى ترددت فى لحن القرآن الكريم ، وهى أسمى ألوان القربى والطاعات .

جاء فى كتاب « أصول الفقه » لفخر الدين اليزدوى عند الكلام على علم الفروع وهو الفقه :

« ان الله تعالى سمى علم الشريعة « حكمة » فقال :

« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »

... ... وقال :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

وقد فسر ابن عباس الحكمة فى القرآن ، بعلم الحلال والحرام : أى بالفقه والشريعة .

وبذلك جعل ابن عباس الشريعة - فوق أنها أحكام - دعوة ورسالة ، تساير العقل وتطابق المنطق ، وتتمشى مع الخير والمصلحة ، ولذلك كانت شريعة الله من دلائل النبوة ، ومن علامات الكمال ؛ بل هى سبيل الى الهدى والايمان ، ومحجة مضيئة يستهدفها الداعى الى الخير والاحسان .

وعلى هذا الفهم المنير سار علماء الشريعة الاسلامية فى ضوء التاريخ أعزاء بتشريعهم ، فقهاء بأسراره ، تلوذ بهم الجماهير ، وتخضع لهم رقاب الحاكمين .

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٢٢ .

يقول شمس الدين السرخسى فى كتابه « المبسوط » (١) :

« وأما علم الفقه والشرائع : فهو الخير الكثير والحكمة المذكورة فى قوله تعالى :

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

ويقول شارح « تنوير الأبصار » فى فقه الامام الأعظم ، عن الفهم فى التشريع :

«وقد مدحه الله بتسميته خيرا كثيرا ، وقد فسر الحكمة زمرة أرباب التفسير بعلم الفروع الذى هو علم الفقه » (٢) .

وفى تفسير الطبرى لهذه الآية « ... يعنى بذلك (جل ثناؤه) يؤتى الاصابة فى القول والفعل والفهم من يشاء من عباده ، ومن يؤت الاصابة منهم فى ذلك فقد أوتى خيرا كثيرا » .

وفى كتاب « العواصم من القواصم » لأبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى :

« وليس للحكمة معنى الا العلم ، ولا للعلم معنى الا العقل ، الا أن فى الحكمة اشارة الى ثمرة العلم وفائدته ، ولفظ العلم مجرد عن دلالته على غير ذاته ، وثمرة العلم العمل بموجبه ، والتصرف بحكمة ، والجرى على مقتضاه فى جميع الأقوال والأفعال » (٣) .

ويقول الامام الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » ، مفسرا لقوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

« ... فلم يبق للدين قاعدة يحتاج اليها فى الضرورات والحاجيات الا وقد بينت غاية البيان ، نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولا الى نظر المجتهد ، فان قاعدة الاجتهاد أيضا ثابتة فى الكتاب والسنة ، فلا بد من إعمالها ، ولا يسع تركها ، واذا ثبتت فى الشريعة شعرت بأن ثم مجالا للاجتهاد » ...

---

(١) جـ ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .   (٢) ١ ص ٢٠٥ .

(٣) جـ ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

ثم يقول :

« ولو كان المراد بالآية الكمال ، بحسب تحصيل الجزئيات بالفعل ، فالجزئيات لا نهاية لها ، فلا تنحصر برسوم ، وقد نص العلماء على هذا المعنى ، فانما المراد بالكمال بحسب ما يحتاج اليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها مالا نهاية له من النوازل » .

وفى « الرسالة » للامام الشافعى [1] :

« ...فجماع ما أبان الله لخلقه فى كتابه مما تعبدهم به لما مضى من حكمه جل ثناؤه من وجوه :

١ - فمنها ما أبانه لخلقه نصا مثل ، جعل فرائضه فى أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما ، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،ونص على الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير مع غير ذلك مما بين نصا .

٢ - ومنها ما أحكم فرضه بكتابه ، وبين كيف هو على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتهما ، وغير ذلك من فرائضه التى أنزل فى كتابه .

٣ - ومنها ما سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مما ليس لله عز وجل فيه نص حكم ، وقد فرض الله عز وجل فى كتابه طاعة رسوله والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فبفرض الله جل ثناؤه قبل .

٤ - ومنها ما فرض الله على خلقه الاجتهاد فى طلبه وابتلى طاعتهم فى الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم فى غيره مما فرض عليهم » .

والامام الشافعى هنا يقرر مبدأ خطيرا ، وهو أن الله سبحانه فرض على المسلمين الاجتهاد فريضة مقدسة ، يثيب الله عليها ويعاقب على تركها كما يثيب ويعاقب على باقى فرائضه .

ويقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق :

« ... الاسلام يجمع بين الدين والشريعة [2] .

---

(١) ص ٥ طبع الحسينى بك .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١١٣ .

أما الدين فقد استوفاه الله كله فى كتابه الكريم ، ولم يكل الناس على عقولهم فى شىء منه .

وأما الشريعة فقد استوفى أصولها ثم ترك للاجتهاد تفصيلها »...

ثم يقول :

« إن الرأى – بمعناه العام – نشأ فى التشريع الاسلامى مع القرآن والسنة منذ عهد النبى ، وظل الرأى أصلا من أصول التشريع يستعمل كثرة وقلة وضيقا وسعة ، على حسب الحاجة اليه بكثرة السنة المروية – كما فى الحجاز – وقلتها ، كما فى العراق [1] » .

وبهذا الفهم الكامل لروح الاسلام ، وبهذا الاجتهاد المتصل فى يسر وسماحة وطلاقة ، ساير التشريع الاسلامى تطورات المسلمين من الجزيرة العربية الى سهول الأرض وقمم جبالها ، أينما كانت الحياة ، واتسعت آفاقه للحياة المتحركة المتشابكة بمفاجآتها وأحداثها .

فما أحس المسلمون يوما بقصور هذا التشريع ، وما احتاجوا لحظة من زمن – والدنيا فى أيديهم – الى قوانين من غير شريعتهم ، ولا الى مشرعين من غير فقهائهم ؛ بل كانوا مشرعين لأنفسهم وللانسانية كافة ، حتى ليقول العلامة « ويلز » فى كتابه « ملامح تاريخ الانسانية » :

« ان أوربا مدينة للاسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الادارية والتجارية » [2] .

ومشت الحياة بالمسلمين رخاء طيبة ، وحياتهم قوية عزيزة متطورة مع الخطو الانسانى السريع بفضل الامدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية الحرة التى كانت سمة العالم الاسلامى وطابعه المميز .

ثم جاء القرن الرابع الهجرى ، وفيه انحلت الخلافة العباسية ، وصاحب انحلالها تمزيق وحدة العالم الاسلامى وبزوغ حكومات أعجمية فارسية وتركية تقنع ولاتها بالحق الإلهى للحاكمين ... حكومات استبدادية لا تطيق حرية الفكر ولا حرية التشريع .

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٣٤ .

(٢) الفقه الاسلامى : للدكتور محمد يوسف موسى .

وصبت تلك الحكومات غضبتها الكبرى على الأحرار والمشرعين ، حتى توارى الأئمة واختفى رجال الفكر ، وبرز أفواج من الفقهاء المرتزقة مشوا فى ركاب الحاكمين وأفتوا بأهوائهم ، وقامت دولة الفقهاء الجامدين الذين تنادوا بأن أبواب الاجتهاد قد أغلقت ، وأن الفقيه كل الفقيه هو من قلد إماما سابقا ، أو حفظ كتابا لمشرع قديم ، حتى ليقول صاحب جوهرة التوحيد :

« فواجب تقليد حبر منهم ... »

بذلك وقف نمو التشريع فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ونشأ التضخم الهائل فى فقه العبادات ، حيث أطلق الحاكمون لأتباعهم من الفقهاء العنان ليفنوا حياتهم فى تفريعات لا تنتهى وافتراضات لا ضابط لها .

وانقلب الفقه الاسلامى العظيم الى ملاحاة ومجادلات وتعصب أعمى للسابقين من أصحاب المذاهب الفقهية .

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته :

« ... انتهى مد الفقه الاسلامى إلى جمود وجهل بأمور الحياة وسياسة العمران ، وأصبح التقليد هو التجارة الرائجة . ولم يبق للفقهاء إلا نقل الرواية عن أصحاب المذاهب الأربعة ... لا محصول للفقه الا هذا » .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى :

« لقد ذهبت تلك الروح العظيمة القوية التى كانت تسير أولئك الفقهاء الأعلام المستقلين فى تفكيرهم ، والذين بلغوا الذروة فى زمانهم ، هذه الروح التى جعلت أبا حنيفة يقول :

« ما جاءنا عن الصحابة فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن التابعين ، فهم رجال ونحن رجال » .

بل التى جعلت مالك بن أنس يقول :

« ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله [1] » .

ونشأ عن عجز الفقهاء وجمود المشرعين وجهلهم بسماحة التشريع الاسلامى ومرونته أن انفصل هذا التشريع العظيم عن واقع الحياة الاسلامية .

---

(١) الفقه الاسلامى .

وبهذا الانفصال فقد العالم الاسلامى القوة الملهمة والروح الدافعة ، وبهذا الانفصال زحفت على المجتمعات الاسلامية العادات الجاهلية والتقاليد الوثنية ، ووجد الحاكمون المستبدون فرصتهم الكبرى ، فأخذوا يدعمون سلطانهم بالقوانين والأنظمة الدكتاتورية الباطشة .

ومن ثم هوى العالم الاسلامى الى الظلمات التى أحاط سرادقها بوجوده قرونا ، كان ختامها القارعة الكبرى التى عصفت بحريات العالم الاسلامى ووجوده كما عصفت بأنظمته وقوانينه ... قارعة الغزو الأوربى .

لقد استعبدنا الغربيون أرضا وثقافة وتشريعا ، لقد فرضوا علينا أنفسهم ، وفرضوا علينا قوانينهم ؛ لأن رجال التشريع الاسلامى عندنا فقدوا وجودهم .

ان علماء التشريع الاسلامى سعداء كل السعادة ؛ فقد أفتوا فتواهم التاريخية الكبرى بأن باب الاجتهاد قد أغلق الى الأبد ، وبذلك فليس للعالم الاسلامى أن يتطلع الى مشرع مسلم ، يقدم له الزاد الروحى والزاد التشريعى لأن مشاكل اليوم لم يدل فيها السابقون بقول ...

ومن عجب أن ينجم بين المسلمين وهم أحرار الانسانية كافة ، من يجهر بأن رسالة الاسلام قد وقف نموها فى القرن الرابع للهجرة . فلا اجتهاد بعد هذا القرن ، أو كما قال الامام القفال المتوفى سنة ٤١٧ هـ :

« والخلق كالمتفقين على أنه لا يجتهد بعد اليوم ... !!! »

ولقد ثار على هذا الإفك أحرار من كبار مفكرى العالم الاسلامى ، وبقى أن تستمر الثورة حتى ترتفع العصابة السوداء عن أعين العالم الاسلامى ليسير فى ضوء الحياة مجتهدا مبتكرا مشرعا كما أمره الله .

يقول العلامة المجاهد العز بن عبد السلام من علماء القرن السابع الهجرى :

« وقد اختلفوا متى انسد باب الاجتهاد ؟ ... على أقوال ما أنزل الله بها من سلطان ، قيل بعد مائتين من الهجرة ، وقيل بعد الشافعى . وقيل

بعد الأوزاعي وسفيان ، وعند هؤلاء أن الأرض قد خلت من قائم بحجة الله ينظر في الكتاب والسنة ويأخذ الأحكام ، وأن لا يفتى أحد بما فيهما الا بعد عرضه على قول مقلده ، فان وافقه حكم وأفتى ، والا رده ، وهذه أقوال فاسدة ، فانه ان وقعت حادثة غير منصوص عليها ، أو فيها خلاف بين السلف ، فلا بد فيها من الاجتهاد من كتاب أو سنة وما يقول سوى هذا الا صاحب هذيان ... » .

ويقول الامام الشوكانى ، وهو من علماء القرن الحادى عشر الهجرى :

« ان قول القائلين بخلو العصر من المجتهدين مما يقضى بالعجب ؛ لأنهم ان كانوا قالوا ذلك باعتبار أن الله رفع ما تفضل به على السابقين من كمال العقل وقوة الفهم ؛ فهذه دعوة على الله باطلة ، وان كانوا قالوا ذلك باعتبار أن السابقين تيسر لهم من العلم ووسائل الاجتهاد ما لم يتيسر لمن بعدهم فهذه دعوى تخالف الواقع ، فان العلم ووسائل الاجتهاد والبحث فى القرآن والسنة ومذاهب الأئمة أصبحت أيسر للمتأخرين » .

ويقول الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر :

« ان باب الاجتهاد لم يغلق على اناس يفهمون لغة القرآن الصحيحة ، ويستطيعون أن يحكموا على ما يجد من أمور مستحدثة فى ضروب التعامل والعلاقات الدولية ، ويجب على أولى الأمر من المسلمين وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا حكم الاسلام فيها على الأسس والأصول الاسلامية » .

ولا جدال فى أن أكبر كارثة أصيب بها العالم الاسلامى ؛ هى تلك البدعة التى ابتدعها الفقهاء الجامدون حينما تنادوا بقفل باب الاجتهاد ، فقد ترتب على ذلك فقدان العالم الاسلامى لشخصيته التشريعية ، بل لقد أصبح العالم الاسلامى عالة فى قوانينه وأنظمته على القوانين والأنظمة التى ابتدعتها الأمم الحية المتوثبة .

لقد كان فقهاء العالم الاسلامى فى الماضى يفصلون أحكامهم على حاجات مجتمعاتهم ، وما تأتى به الأيام من أحداث وعلاقات ، وما يصاحب الخطو البشرى من قضايا ، وما يلازم التطور الحضارى من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وعمرانية .

فلما جمد الفقه الاسلامى ، وقبع داخل أضابير الماضى ، أصبحت القضايا المستحدثة ، والمشاكل الناجمة ، والأحداث المتلاحقة فى حاجة ملحة الى أنظمة وشرائع تتمشى مع واقعها ، وتقوم بمشاكلها ! ... أصبح هذا الفراغ الهائل فى حاجة إلى من يملؤه ، ومن ثم وثبت النظم الأوربية والتشريعات الاستعمارية الى حياتنا منظمة وحاكمة وسيدة .

ولقد روى الأستاذ رشيد رضا . نقلا عن رفاعة باشا . أن اسماعيل استحضر والده - رفاعة بك الطهطاوى - وطلب منه أن يذهب الى شيخ الأزهر وغيره من كبار العلماء ؛ ليقنعهم بالقيام باصلاح الفقه الاسلامى حتى يقدم حلولا وأنظمة صالحة للحياة المصرية فى ذلك الوقت وقال له :

« انك منهم ، ونشأت معهم ، فأنت أقدر على اقناعهم . فأخبرهم أن أوربا تضطرنى - اذا هم لم يصلحوا الفقه الاسلامى بحيث يجارى التطورات المتعاقبة - الى الحكم بشريعة نابليون ، فقال له رفاعة بك :

« اننى قد شخت ولم يطعن أحد فى دينى ، فلا تعرضنى لتكفير مشايخ الأزهر اياى فى آخر حياتى ، وأقلنى من هذا الأمر !!! ».

وكانت نتيجة هذا اليأس من علماء الأزهر قيام المحاكم الأهلية التى عملت بقانون نابليون ، وكانت هذه أكبر نكبة أصيب بها الفقه الاسلامى ، ولا شك أن هذه النكبة يتحمل أكثر تبعاتها علماء الأزهر [١] » .

ولا يمكن للتشريع الاسلامى أن يعود الى سيادته ، ولا يمكنه أن يقوم بواجباته حيال الأمم الاسلامية الا اذا فتحنا أبواب الاجتهاد التى أمر الله أن تفتح ، وأجلنا عقولنا فى الكليات الاسلامية العامة ، واستنبطنا منها - على ضوء القواعد الاسلامية المقررة - قواعد القياس وسد الذرائع ، والمصالح المرسلة ، أنظمة حية متحركة تلائم حياتنا وتنهض بمجتمعاتنا وتقدم حلولا عملية لمشاكلنا فى السياسة والاقتصاد والاجتماع .

---

(١) المجددون فى الاسلام ص ٤٤٩ للأستاذ عبد المتعال الصعيدى .

لقد حدثت في العصور الأخيرة وثبات للانسانية ، فاستحدثت أنواعا من الشركات ، وأنماطا من العقود والتأمينات ، ونشأت أساليب فى الاجتماع ، ونظم فى الحكم . وبرزت مبادىء انسانية لها رنين وبريق ، وكل هذا لم يعالجه الفقه الاسلامى القديم ؛ لأنه لم يعاصره ولم يعش معه ولم يتحاكم اليه .

مبادىء ونظم وأساليب فى حاجة الى أن يتناولها المشرع الاسلامى ويحاكمها الى تشريعه . ويقدم فيها رأيا . أو ينشىء من المبادىء والنظم والأساليب ما يفضلها أو يسامقها ، وله من قرآنه ومن أحاديث نبيه واجتهاد أئمته ثروة تشريعية هائلة لا يملكها سواه ... ثروة تتضاءل حيالها كل الثروات التشريعية العالمية .

ولقد أصبح من سقط القول ، بل من أحاديث الجاهلية ، تلك الصيحة الضالة المضلة التى قرعت أسماعنا مع خطو الاستعمار ، بأن شريعة الله شريعة بدائية مضى عهدها ، فلم تعد أهلا للحياة فى عصر النور والمتفجرات .

يقول السيد رشيد رضا [1] : « ان الشريعة الاسلامية - بما تقرر فيها من قاعدتى الاجتهاد ورعاية الأصلح - كانت من الشرائع التى توافق كل زمان ومكان ، وتجيز لكل ضرورة حكما يوافق مقتضى المصلحة والحال وان خالف النص ، مع اعتبار هذه القاعدة شرعا أيضا ، خلافا لما يتقوله عليها المتقولون من أنها شريعة ضيقة توافق زمانا غير زماننا هذا ، ومكانا غير مكان الأمم الراقية لهذا العهد .

ومنشأ قولهم هذا الجهل بحقيقة الشريعة الاسلامية ، وعدم الوقوف على أصولها وقواعدها وكلياتها ، يساعدهم على ذلك ما يرونه من تعصب بعض علماء الشريعة لما جاء فى كتب الفروع دون الأصول ، وردهم لكل ما لم يرد فيها من أسباب التيسير ، وإن ورد فى أصول الشريعة وكلياتها ، على أن فى كتب الفروع من الأحكام التى لا تستند الى دليل قطعى ما لا يعد ،

(١) الجزء السادس من تفسير المنار - مذاهب التفسير لجولد تسهير ص ٣٥٧ .

ومبناها الاجتهاد أو الرأى والقياس ، ومع هذا فانهم يفضلون العمل بهذه الأحكام على الرجوع الى أصل الشريعة ، مهما كان فيها من التقليد والتضييق على أنفسهم والأمة » .

أجل لقد ضيق الفقهاء شريعة الله ، تلك الشريعة التى اعتبرها الامام الأعظم أبو حنيفة معجزة الرسول الكبرى ، ونعمة الله العظمى على عباده ، واعتبرها الفخر الرازى تفسيرا للآية الكريمة :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

تلك الرحمة الالهية يجب أن تعود الينا ، ويجب أن نعود اليها ، بل يجب أن نقدمها للانسانية زادا ونورا وإلهاما ونجاة من هول ما تضطرب فيه دنيانا اليوم .

يقول المشرع العلامة الدكتور السنهورى فى الكلمة الافتتاحية لكتاب النظرية العامة للالتزامات (١) :

« فاذا قدر لنا أن نستقل بفقهنا ، وأن نفرغه فى جو مصرى يشب فيه على قدم مصرية ، بقى علينا أن نخطو الخطوة الأخيرة فنخرج من الدائرة القومية الى الدائرة العالمية ، ونؤدى قسطا مما تفرضه علينا الانسانية ، ضريبة فى سبيل تقدم الفقه العالمى أو ما اصطلح الفقهاء على تسميته بالقانون المقارن ، ومن أهم الوسائل فى الوصول الى ذلك ، العناية بالشريعة الاسلامية ، شريعة الشرق ووحى إلهامه ، وعصارة أذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه ، وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ، ومشكاة من نور الاسلام ، يلتقى عندها الشرق والاسلام ، فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى فى هذا روح ذاك حتى ليمتزجا ويصيرا شيئا واحدا ، هذه هى الشريعة الاسلامية ، لو وطئت أكنافها ، وعبدت سبلها ، لكان لنا فى هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا ، وفى تشريعنا ، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد ، فنضىء به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون » .

---

(١) الجزء الأول فى نظرية العقد ص (و) .

٢١

الشريعة الإسلامية والقوانين العالمية

يقول الدكتور السنهورى فى مذكرة تنقيح القانون المدنى المصرى :

« ... فالشريعة الاسلامية تعد فى نظر المنصفين من أرقى النظم القانونية فى العالم ، وهى تصلح لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن ، ولا نعرف فى تاريخ القانون نظاما قانونيا قام على دعائم ثابتة من المنطق القانونى الدقيق ما يضاهى الشريعة الاسلامية . فاذا كان لنا هذا التراث العظيم ، فكيف جاز لنا أن نفرط فيه ؟ ... » .

تلك كلمة صادقة مشرقة لحجة من حجج القانون الدولى ، وعلم من أعلام التشريع العالمى ، وقد يعجب لهذا اليقين المبين ، كثير من المسلمين الذين بهرتهم الحضارة الأوربية ، وحبست تفكيرهم فى نطاقها حتى نسوا شريعتهم وتراثهم الخالد ، بل قد يتشكك فى هذا القول جمهور كبير من المثقفين الذين غمرتهم أمواج متلاحقة متعاقبة من الفنون والعلوم والآداب والعادات والتقاليد والثقافات الأوربية حتى فقدوا ذاتيتهم الاسلامية ، فعاشوا بذاتية أوربية ، فلا يسمعون إلا جرسها ، ولا يتعبدون الا بفنونها ، ولا يكبرون الا مثلها ، ولا يؤمنون الا بحضارتها وقانونها ، فلم يتصوروا أبدا ، ولم يمر بخاطرهم يوما أن هناك أنظمة اسلامية ، وقوانين وتشريعات قرآنية تسامق هذه القوانين الأوربية ؛ بل وتفضلها بما فيها من اجلال للروح واكبار للأخلاق ، وما تشتمل عليه من نور وهدى ورحمة .

قوانين هى عقيدتنا وتراثنا ، ودليل عزتنا وقوتنا ، وعلامة استقلالنا ورشدنا ، وسبيلنا الى القوة والبأس والشخصية والمكانة العالمية .

ان الذين بهرت الحضارة الأوربية أعينهم ، وتملكت أسماعهم وقلوبهم ، فلم يبصروا أن ثمة حضارة سوى هذه الحضارة الأوربية ذات البأس الغضوب والصليل الهائل ، يخادعون أنفسهم ويخادعون الحق ، ويسجلون على عقولهم طفولة ساذجة .

ان شريعتنا وجه حضارى قائم بذاته ، وفلك ثقافى له خصائصه وسماته ، فاذا اختلفت مع النظم الأوربية ، وتعارضت مع مثلها وروحها ، فليس هذا ببرهان على نقص ذاتى فيها ، أو حجة تخف بها موازينها ، كما يتشدق عشاق الغرب وتلاميذه .

ان الخفة والنقص فى هذه العقول التى تحاكم كل شىء الى مثل الحضارة الأوربية وأساليبها ، وتجعل الموازين القسط دساتيرها ونظمها ، مؤمنة الايمان كله بأن هذه الحضارة هى الرمز الأعلى ، والكلمة الأخيرة ، وأن كل حرف فى قاموسها حق لا يأتيه باطل ، ونور لا يمسه ظلام . تفترض هذا وتقرره ، وترتجل الأحكام والنتائج على ضوئه ، وهى أجهل ما تكون بالإسلام عقيدة ونظاما وتشريعا .

إن شريعتنا حضارة قائمة بذاتها ... حضارة تلتقى فيها الأديان السماوية كافة ، فيها صحف ابراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ؛ وآيات الذكر الحكيم ، شريعة تضيئها مشاعل الأنبياء جميعا ، وتتجلى فيها هداية الله وتوفيقه .

شريعة فى اجلالها وتطبيقها ؛ اجلال لكل شرع سماوى ، وتطبيق لكل خير إلهى ... شريعة يمتزج فيها القانون بالأخلاق ، والتشريع بالايمان والتقنين بالوجدان ، وتمشى مع العرف والعادة ، والزمان والمكان ، والصالح العام لبنى الانسان . هذه الشريعة يجب أن تمشى الى حياتنا وقلوبنا وعقولنا ، حتى نعيد الايمان الى الدنيا ؛ فتشرق الأرض بنور ربها ، وتعود الموازين القسط الى جلالها وسيادتها .

ونحن بذلك نخرج أنفسنا من عنق الزجاجة الذى تحجرت فيه حياتنا قرونا ، الى الفضاء الرحب المشرق الذى يتطلع الينا ويرقب دورنا ، أو كما قال سفير الجيش الاسلامى – زهرة الثقفى – الى قواد فارس :

« ... جئنا لنخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن عبادة الناس الى عبادة الله ... » .

لقد فشلت القوانين المادية فى إسعاد العالم ، وفى إلباسه أثواب الطمأنينة والراحة ، وفى أحضان هذه القوانين ؛ شاهدنا الافلاس الروحى والتحلل الخلقى ، والانهيار الاقتصادى ، والالحاد الفكرى ؛ وتحت ظلالها

شقينا بالحروب الطبقية والاستعمار والاسترقاق ، وصيحة الشيطان المدوية فى كل بقعة وزاوية من بقاع هذا الكوكب .

إن التشريعات والنظم والدساتير الأوربية القائمة اليوم ترجع أصولها إما الى القانون الرومانى الذى ترعرع فى أحضان الوثنية ، أو الى الثورة الفرنسية التى شبت فى كنف الجوع والظمأ والانتقام والأحقاد الطبقيـــة الهوجاء . ومن هذا المزيج الغريب الذى التقت فيه الوثنية المادية بروح الحقد والانتقام الثورية ، انبثقت الأنظمة والمثل التى كونت الثقافات القانونية والدستورية والاجتماعية والاقتصادية لأوربا .

ولهذا انتفت من هذه التشريعات الجوانب الخلقية والمثاليات الأدبية والأنوار الايمانية ، وكل ما يمت الى الوجدان والضمير بنسب أو سبب ... يقول « سبنسر » :

« ... بعد الثورة الفرنسية أخذ المشرعون الأوربيون فى تجريد القوانين من كل ما له مساس بالدين والأخلاق والفضائل الانسانية ، فاقتصرت رسالة القانون على تنظيم علاقات الافراد المادية ومايمس الأمن ونظام الحكم .. » .

وقد أدى انعدام العنصر الخلقى فى القوانين ، وسيادة المذاهب النفعية والمادية إلى إفساد الأرض ، واباحة جنسية بشعة ، واستهتار مجنون بالقيم والمثاليات .

وعندما عجزت هذه القوانين والأنظمة والدساتير ، عن ارضاء الانسان واسعاده ، وتنظيم شئونه وحياته ، وملء الفراغ الهائل الذى يحسه فى ضميره ووجدانه ؛ ماجت أوربا بالثورات والانقلابات والحروب ، والمذاهب الجديدة التى أرادت أن تنظم الحياة تنظيما أدق وأكمل . فزادت الحياة تعقيدا والتواء وقسوة وإغراقا فى الشهوات والماديات .

ومن هذه الروح القلقة العاجزة الفاشلة ، انبعثت البربرية النازية بكل ما فيها من سطوة وجبروت ونقمة على الروح والأخلاق ، وانبعثت الجاهلية الفاشستية بكل ما تحويه من عبادة للفرد ، وتعصب للجنس ؛ ورده الى الوثنية الرومانية الأولى . وقامت الوثنية الشيوعية ، تملأ الدنيا سخرية من الأديان ، وتهكما بالايمان ، وعبادة للشهوات ؛ واشعالا للخصومات ، وتلطخ وجه الحياة بصرخات الجسد الحيوانى الثائر المدمر .

وبذلك ازداد الروح الأوربى جموحا وإلحادا ومروقا ، وازداد العالم بؤسا وشقاء وحروبا .

* * *

ولقد ازدحم قضاء الدنيا بالدعايات الكاذبة ، ضد الاسلام وتشريعاته ونظمه ، دعايات قام بها الاستعمار ، كسلاح حاسم فعال فى قتل الروح الاسلامية ؛ وتمزيق ما يحوطها من اكبار واجلال في نفوس أبنائها .وكسلاح حاسم فعال فى فرض سيادته الفكرية والثقافية والقانونية والدستورية على الأمم الاسلامية ، وبذلك يحال بينها وبين دينها ، وهو مركز الثقل فى قوتها ، ومناط الأمل لعزتها ، والعنصر الفعال الحى فى مقاومتها للغزو الزاحف .

ومع كل هذه الدعايات الملونة البراقة استطاع هذا الدين ، واستطاعت أنظمته أن ترسل شعاعا هنا وهناك - رغم الستار الحديدى المضروب عليها - شعاعا استطاع أن ينتزع صيحات التقدير الممزوجة بالذهول الحاد من ألد أعدائه وخصومه .

ولقد أصيبت المجتمعات الأوربية بدهشة رهيبة ، يوم عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا فى عام ١٩٥١ م للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم « اسبوع الفقه الاسلامى » ودعت اليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول الغربية والاسلامية ، وقد حاضر الأعضاء فى خمسة موضوعات فقهية ، حددها مكتب المجمع الدولى المقارن ... وهى :

١ - اثبات الملكية .
٢ - المسئولية الجنائية .
٣ - الاستمساك بالمصلحة العامة ؟ .
٤ - تأثير المذاهب الاجتماعية بعضها فى بعض .
٥ - نظرية الربا فى الاسلام .

وخلال المحاضرات وقف نقيب المحامين فى باريس فقال :

« أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى ، وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفى بحاجيات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتها ، مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء » .

كما وقف غيره من رجال القانون الفرنسى ، ورجال الاستشراق ، وأشادوا بالفقه الاسلامى ، وأنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة .

وفى ختام المؤتمر ، وضع المؤتمرون بالاجماع القرار الآتى :

« ... نظرا لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التى أتاحتها المباحث التى عرضت فى خلال اسبوع « الفقه الاسلامى » وما دار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء « أن الفقه الاسلامى » يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها ، وأن اختلاف المبادىء فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية ، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة ، فان أعضاء المؤتمر يعلنون رغبتهم فى أن يظل أسبوع الفقه الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة ... » .

لقد أعلن رجال المؤتمر – وهم أئمة التشريع العالمى وصفوة رجاله – هذه الوثيقة التى تشع تقديرا واكبارا للتشريع الاسلامى الذى يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة الحديثة المتطورة ، ورغبوا فى أن يظل أسبوع الفقه الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة . ليقدم الى الانسانية تلك الثروة الفذة من الأنظمة الدستورية والتشريعية والاقتصادية .

أعلن المؤتمرون هذه الوثيقة من جامعة باريس ، لا من الجامعة الأزهرية ... ولكن دوائر الاستعمار العالمى ذات البأس والسطوة ، أفزعتها الحقيقة المدوية وخشيت أن يتنبه العالم الاسلامى الى قوته ، وأن يعود الروح الاسلامى ممثلا فى هذه الأنظمة ، فيستيقظ العملاق الرهيب من رقدته ، ويفلت من سادته ، ليمسك بزمام العالم من جديد .

أجل فزع الاستعمار واضطرب ، فلجأ الى أسلحته ليحول بها بين هذه الدراسات والنور ، ومن ثم مات أسبوع الفقه الاسلامى ، ولم ينعقد مرة ثانية ، ولم تفكر القاهرة ، أو بغداد ، أو كراتشى ، أو دمشق ، فى أن تحل محل باريس !!! .

* * *

إن تفوق التشريع الاسلامى على النظم العالمية لم يعد مسألة من المسائل الوجدانية الحماسية ، التى يلجأ اليها المسلم فى ثورة من ثورات العاطفة ؛ بل غدت حقيقة علمية مقررة لدى رجال القانون والفقه الدولى ... حقيقة يساندها البرهان والمنطق والدلائل الحية .

يقول الدكتور على بدوى عميد كلية الحقوق السابق [1] بعد مقارنة بين الشريعتين الاسلامية والرومانية ، وهى المصدر الأول لكل تشريع أوربى :

« ان القانون الرومانى يقوم على الشكلية التى تتطلب اجراءات رسمية وطقوسا معينة ، هى المحور فى جميع نظمه ، على حين أن الشريعة الاسلامية . تقوم على التجرد من الشكليات والبساطة فى التعامل ، ونية الفريقين فى التعاقد ، وعلى روح العدالة الفطرية بين الناس » ثم يقول :

« ... وكذلك فى ناحية القانون الجنائى يتبين لنا استقلال التشريع الجنائى فى الفقه الاسلامى ؛ بل وتفوقه أيضا على غيره من التشريعات القديمة والحديثة ، وذلك فى مواضع عدة ، منها :

أ - نظام الحسبة ، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث .

ب - نظام العقاب بالتعزير ، وهو أن يترك تحديد العقوبة - نوعا ومقدارا - الى القاضى ، فيحكم بما يراه تبعا لما يظهر له من ظروف كل جريمة وحالة المجرم ، ونفسيته ، ودرجة ميله الى الاجرام ، وهو نظام يمتاز به الفقه الاسلا‍ ـ وحده ، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث ، حتى تكون العقوبة محققة للغاية من تشريعها .

---

(١) مجلة القانون والاقتصاد ، العدد الخامس من السنة الأولى .

وبذلك يتحتم القول بأن الشريعة الاسلامية تشمل من مبادىء العقوبة ونظمها مالا يقل فى سعة النطاق وتهذيب الفكرة عن أحدث المبادىء والنظم الوضعية ، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبة الرومانية » .

ويقول الدكتور توفيق شحاته (١) :

« ... واذا أردنا المقارنة من حيث النظم القانونية ، وجدنا التشريع الاسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقرير المبادىء العظيمة ، ومنها مبدأ انتقال الملكية لمجرد الاتفاق ، ومبدأ سلطان الادارة ، ومبدأ النيابة التعاقدية ... »

ويقول الدكتوران السنهورى . وحشمت (٢) :

« ... لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى ، فان هذا القانون بدأ عادات كما قدمنا . ونما وازدهر من طريق الدعوى والاجراءات الشكلية ، أما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتابا منزلا ، ووحيا من عند الله ، ونمت وازدهرت من طريق القياس المنطقى ، والأحكام الموضوعية ، الا أن فقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء الرومان ؛ بل امتازوا على فقهاء العالم باستخلاصهم أصولا ومبادىء عامة من نوع آخر ؛ وهى أصول استنباط الأحكام من مصادرها ، وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه ».

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى (٣) :

« ... إن القوانين الأوربية تنظر الى الفرد باعتباره وحدة ، وباعتباره العنصر الأهم فى الحياة ، لا باعتباره جزءا من المجموعة ، وقد ترتب على شيوع هذه الفردية المطلقة التصرف ، أن انهار العرف والخلق تحت وطأة الجموح الفردى ، وسر روح هذه القوانين ، أن الثورة الفرنسية – وهى التى قام على أساسها القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م – كان هدفها تحرير الفرد مما كان ينوء به من قيود وأثقال فى السياسة والقانون والحرية ، فجاءت الثورة لتقدس الحق الفردى ، وبذلك حطمت روح التعاون الاجتماعى وأثرت هذه الروح فى القوانين الأوربية كافة .»

(١) النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة . الجزء الأول . ص ٢٠١ .

(٢) أصول القانون ص ١٣٢ . (٣) الفقه الاسلامى ٨١ .

أما الشريعة الاسلامية ، فقد منحت الحرية الفردية ، ثم قيدتها بمصالح الجماعة » ... ثم يقول :

« ... فلكل نظام غاية يهدف لها ، فالقانون الوضعى غايته استقرار المجتمع الذى وضع له هذا القانون بتنظيمه وبيان حقوق وواجبات كل فرد فيما يختص بعضهم ببعض ، وهى غاية نفعية محددة ، فالقانون مثلا يقضى بسقوط الحق بالتقادم ، كما يقضى لمن يضع يده على عقار لمدة خمس عشرة سنة بملكيته لهذا العقار ، حتى ولو كان غاصبا مجاوزا ما تقضى به قواعد الأخلاق فى هذا الخصوص .

وبذلك يبعد القانون عن قواعد الدين والأخلاق ، أما التشريع الاسلامى فشىء آخر ، فهو يرعى الفرد ، والمجتمع ، والانسانية عامة ، فالمصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة ، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، كما يقرر الامام الشاطبى .

فالتشريع الاسلامى وحدة منسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا ، يصدر عن روح عامة واعية فاهمة ، فالاسلام يحرم المقامرة ، فترى هذه الروح سائرة ، فيحرم بيع الغرر ، وذلك كبيع الطير فى الهواء ، والسمك فى الماء قبل صيده ، وبيع ما سينتج من الخضر أو الزرع من هذه الأرض أو الحيوان الضال ، كل ذلك نهى عنه الشارع ؛ لأن فيه مخاطرة أو مقامرة من البائع والمشترى على السواء » .

ويقول الدكتور عبد الفتاح عبد الباقى (١) :

« ان الجرائم فى القوانين يصحبها الجزاء ، الا أن هذا الجزاء يكون دنيويا دائما ؛ لأن واضع القانون لا يملك طبعا من أمر الآخرة شيئا ، ومن ثم لا جناح على من يستطيع الافلات من هذا الجزاء » .

ويعقب الدكتور محمد يوسف موسى (٢) فيقول :

« ... أما القانون السماوى – وهو فى أسمى صوره الفقه الاسلامى – فعلى غير ذلك فيما يختص بالجزاء ، انه يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الدار الآخرة أيضا ، والجزاء الأخروى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى ، ومن أجل ذلك يحس المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل بأحكامه ، واتباع

---

(١) نظرية القانون ص ١٦ – ١٧. (٢) الفقه الاسلامى ص ٦٩ .

أوامره ونواهيه ، ولو أمكنه التفلت من الجزاء فى هذه الحياة الدنيا ، وليس كهذا باعث على اتباع التشريعات التى تستند الى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتشريع الذى يستند الى الدين هكذا يقصد صلاح الفرد والمجتمع ، وهذه غاية نفعية بلا ريب ، بيد أنه يريد بناء مجتمع مثالى نقى ، مما لا ينافى الدين والأخلاق ، ولذلك لا يمكن أن يقر شيئا ينافى شيئا منهما ، كما أنه لا يقصد فقط الى بناء مجتمع سليم ، بل الى سعادة الفرد والمجتمع والبشرية كلها فى هذه الدار وفى الدار الأخرى أيضا ، كما يهدف الى احسان قيام الانسان بواجبه نحو نفسه واخوانه فى الانسانية ، ونحو الله تعالى بعبادته حق عبادته ... » .

* * *

ولا جدال فى أن التشريع الاسلامى لارتباطه بعقيدة سماوية يمتاز بأنه وحدة متسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا ... وحدة تهدف إلى غايات خلقية أو مصالح عامة ، تتسق مع عقيدته ورسالته . فالشريعة الاسلامية تجعل للعنصر الخلقى والجانب الروحى نصيبا فى كل نص تشريعى .

ولذلك جاءت تشريعاته معللة دائما بمكارم الأخلاق ، ومصالح جميع المسلمين والعباد .

والمتتبع للأحاديث النبوية المتعلقة بالتشريع ، يرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان دائما يتبعها بالعلة الموجبة لها .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها ، إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم »

ونهى صلوات الله وسلامه عليه عن ادخار لحوم الأضاحى ثم أباحها قائلا :

« انما نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى لأجل « الدافة » ... ألا فادخروها » .

والدافة جموع وفدت على المدينة فى أيام عيد الأضحى ، فرأى رسول الله أن يوسع المسلمون على ضيوفهم ، فحرم عليهم ادخار لحوم الأضاحى ، فلما انصرفوا أباح لهم ادخارها .

وقال : لمن حلف على شىء ورأى غيره خيرا منه .

« احنث فى يمينك وافعل الذى هو خير ثم كفر عن يمينك » .

ولما نهى عن بيع التمر قبل أن يبدو نضجه ، علل نهيه بقوله عليه السلام :

« أرأيت إن منع الله الثمرة ، بم يأخذ أحدكم ماله ؟ » .

ولما حرم الاسلام الخمر والميسر ، ووصفهما بأنهما رجس ، أردف موضحا بيان السر فى التحريم ، وهو أن الشيطان يريد أن يلقى بين الناس العداوة والبغضاء ، وهل يوقع الناس فى العداوة والبغضاء شىء أكبر من الخمر والميسر ؟ .

وحرم الزنا ، لأنه اعتداء على الأعراض ، واختلاط للأنساب وتمزيق للأسر ، واهدار لكرامة المجتمع .

وحرم الربا ؛ لأنه يمنع الفضل بين الناس ، ويبذر بذور الحقد الغضوب فى المعاملات .

وهكذا نلمس دائما الروح الكامن وراء كل تشريع روحا خلقيا نبيلا شامخا ، يرمى الى اقامة مجتمع نقى سليم طهور ، لا يعرف الشقاق ولا الأحقاد ولا التنابز بالألقاب .

إنه ليصوغ من المسلم قوة مثالية مهذبة أسمى ما يكون التهذيب ، متحابة أجمل ما يكون الحب . متعاونة أوثق ما يكون التعاون .

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ... » .

« ... إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ... » .

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ... » .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ... » .

« لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ... » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ... لا تجسسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ؛ وكونوا عباد الله اخوانا » .

« ... لا يتناجى اثنان دون ثالث ... » .

« الله فى حاجة العبد ما دام العبد فى حاجة أخيه » .

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .

« من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

« أيما أهل عرصة أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

يقول العلامة محمد الخضر حسين :

« ... وتمتاز السماوية بأن معاملات الناس على طرائقها ، تصرفهم على مقتضى حدودها من قبيل العمل برضا واجب الوجود ، بخلاف الوضعية فان الداخل تحت سلطانها انما يكون سائرا بحسب ارادة بشر يماثله ، ولهذا لا يمكنها أن تأخذ من احترامات القلوب الموضع الذى تأخذه الشريعة .

وتمتاز السماوية بأنها تعزز قوانينها بسلطة غيبية ، فتهدد المخالف بعقوبة آجلة ، أو بلاء ينزل به القدر فى هذه العاجلة ، وتبشر الطائع بنعيم خالد ، أو عيش طيب فى هذه الحياة ، ولا يختص ذلك الانذار والبشارة بما هو حق لله خالص كالعبادات ، بل ورد أيضا فى الأحكام الموضوعة لمصالح الخلق فى الدنيا ، وهذه السلطة المحتجبة هى التى تدعو النفس الزكية الى احترام قانونها ، ولو فى المواضع التى لا تنالها يد السلطة الظاهرة .

وتمتاز السماوية بأنها توجب على الفرد اصلاح عمله ، وتنهاه عما يضر بشخصه وان لم يسر منه الضرر الى غيره ، فحجرت على الانسان أن يلقى بعضو من جسده فى تلف ، أو يرمى بقسط من ماله فى سرف ، والقوانين الوضعية تقول : لا يجب استعمال القانون بين الناس الا لمنعهم من ايذاء بعضهم لبعض ، ولهذا عرفوا القانون بما يوضع للحكم بين الرعايا .

والسماوية تكلف الانسان برفع الضرر عن غيره وحمايته منه ، وقد تلقى عليه التبعة اذا استطاع السبيل الى خلاصه من أذى ، أو وقايته من خطر ، فأمسك يده عن مساعدته ، وأعرض بجانبه متعاونا . ولم تنظر القوانين الوضعية الى هذا المطلب [1] » .

يقول الدكتور « اينريكو انساباتو » :

إن الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هى التى تعطى العالم أرسخ الشرائع ثباتا .

ويقول العلامة الأستاذ « شبرل » عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا فى مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ م :

« إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد - صلى الله عليه وسلم - اليها ، إذ أنه - رغم أميته - استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفى سنة [2].

* * *

وأخيرا نردد مع الدكتور السنهورى :

« ... ان الاستقلال لا يكمل الا باستقلال التشريع . فالقانون هو أساس النظم التى يقوم عليها بناء الأمة . وليس من الرشد أن تقيم أمة نظمها على أساس مستعار من أمة أخرى ، وهو مع هذا لا يتفق ودينها وماضيها وتقاليدها .

---

(١) مدارك الشريعة الاسلامية وسياستها ص ٦ ، ٧ .

(٢) فقه الاسلام ص ٤٠٩ للأستاذ حسن الخطيب .

٧٢

النظام الاقتصادى الاسلامى

الصراع العالمى الذى يضطرم اليوم داخليا بين الطبقات ، ويثور خارجيا ملتهبا بين أكبر معسكرين شهدهما التاريخ ، انما يرتكز ويستمد الحيوية والطاقة والحرارة من اختلاف الفلسفة الاقتصادية للنظم السائدة هنا وهناك .

والحوار والجدل بين الأفراد والجماعات ، والحوار والجدل بين الشعوب والأمم ، انما يدور محوره أول ما يدور ، حول التفاضل بين الألوان المختلفة للمذاهب الاقتصادية التى تحكم العالم وتهيمن على مقدرات أفراده وجماعاته .

ولعل أعظم كارثة أصيب بها العالم الاسلامى ، هى فناء روحه فى هذا الصراع ، وفقدانه لذاتيته فى هذا المعترك ، وخضوع تفكيره وحياته لمذاهب وفلسفات تضاد الروح الأصيلة لعقيدته وفكرته العامة عن رسالة الانسان وأهداف الحياة .

لقد خدعتنا الحضارة الأوربية ببريقها وضجيجها وبأسها الغضوب حتى أنستنا أنفسنا وأنستنا ذاتيتنا ، فرضينا بأن نكون من الأذناب الذين يعيشون عالة على ما تفكر ، وعلى ما تؤمن ، وعلى ما ترسم من برامج ومناهج أيا كان لونها وصبغتها .

لقد نسينا فى وهج البريق والبأس الشديد أننا نمثل فى هذا الكوكب الأرضى القوة الربانية الإيمانية ، وأن خصائص هذه القوة الربانية الايمانية أنها لا تذوب فى غيرها من مذاهب الجاهلية ومناهجها وأن من خصائص هذه القوة أيضا . أن كل شىء فى حياتها يجب أن يتلون بألوان عقيدتها ، وأن يسمو بسمو إيمانها ، وأن يخضع لمثلها الخلقية الصاعدة ، التى تحرص أول ما تحرص على تكوين مجتمع تتجلى فيه الرحمة ، وتسوده المحبة ، ويقوده التعاون . ويرفرف عليه الاطمئنان والسلام .

نسى المسلمون كل هذا ، فأخذوا فى محافلهم وصحفهم يتخاصمون ويتجادلون لحساب قوانين أمم أخرى ، قد يكون فى تصوراتها عن الحياة

ومثلها ، وفى تصوراتها عن صلات الأفراد والجماعات وحقوقها ، ما يضاد الروح الاسلامى وما يناقضه ويحاربه ، وينال من فلسفته ومثالياته .

بل إن الكثرة الساحقة من الجماهير الاسلامية التى تعيش وعلى آذانها دوى الطبول الأوربية الهائلة ، لا تكاد تتصور أن للاسلام أنظمة اقتصادية شاملة لكل شئون الحياة ، ومناهج اقتصادية شامخة ، تسامق المناهج الأوربية وتفضلها بما فيها من خير وتعاطف وتراحم لا يجعل الفرد فريسة للمجموع كما فى النظام الشيوعى ، ولا المجموع ضحية للفرد كما فى النظام الرأسمالى ؛ بل منهجا وسطا وميزانا قسطا لا يميل ولا يحيف .

حتى الجماعات الاسلامية ، من كراتشى الى الزيتونة ، وقد تحررت أو كادت من رق الاستعمار الفكرى الأوربى ، لم تعن بدراسة هذا الاقتصاد ، ولم تلتفت الى قوته وقدرته على حل معضلات حياتنا ورعاية شئون وجودنا .

لقد افترضنا أن النظام الأوربى بشبكته الهائلة التى صنع خيوطها العقل اليهودى بدهائه وخبرته ، وبشقيه اليمينى واليسارى ، هو أسمى ما ابتدعته العقول ، وأرقى ما وصل اليه التطور الحضارى والتسلسل التاريخى . وأن من الجمود والتزمت ؛ بل من الهوس والجنون ، أن يفكر مسلم يعيش على هذا الكوكب فى أن يتحرر من مناهجه ، أو يجرؤ على التفكير فى العودة الى ماضى الاسلام يستهديه ويسترشده ، برامج اقتصادية تعيش فى عالم الذرة ، وفى دنيا الحضارة الضاحكة المتحركة .

ومن العجيب أن رجال الفكر الأوربى أنفسهم قد ابتدءوا يفكرون فيطيلون التفكير فى أن العالم لن تهدأ مواقيد الحروب فيه ، ولن تسكن أحقاد طبقاته وصرخات جماعاته الا بالعدول عن هذه البرامج الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية ، الى برامج لا تنظر الى الحياة على أنها كباش تتناطح ، وذئاب تتواثب ، وأقوياء يتلذذون بأكل الضعفاء ، ومضاربات تمزق الأسر وتحطم البيوت ، وسعار فى جمع المال يدفع الى الكفر بكل قيم الوجود ومقدسات الأخلاق . .

انهم ليفكرون ويطيلون التفكير ، فلا يجدون فى أيديهم سوى العودة الى نظم الاسلام المالية بما فيها من تعاون كريم ، وتعاطف رحيم ، واعتدال مستقيم .

يقول العلامة « ج. و. ل داى » فى كتابه « حول الاضطراب المالى » :

« ومن العجيب أنه لا توجد وسيلة ناجحة لاصلاح هذا الحال سوى استلهام الروح الاسلامية فيما يسمى اقتصادا ، على ما سنبينه بعد ، وهو علاج اقتصادى بحت مستقل عن الحزبيات السياسية ، ولا صلة له بالحروب بين الطبقات ؛ بل هو على العكس يوفق بين مصالحها جميعا ، كما هو شأن الاسلام في كل قضاياه » .

بل إن الحركة الاصلاحية الديمقراطية فى ميدان المال التى قادها عباقرة المال الانجليز ، « الميجور دوجلاس » . و « هار جريف » و « الماركيز تافستوك » ، و « بونامى دويرى » ، تقوم - كما يقرر ذلك الدكتور زكى أبو شادى (١) - على هدى التعاليم الاسلامية المالية ... يقول سيادته :

« وقد تفضل « الماركيز تافستوك » فكتب إلى على أثر ظهور رسالتى فى صحيفة « المانشستر جارديان » رسالة لطيفة فى صحبة كتابه « حول الخلاص من الفقر وزيادة الضرائب » وهذه الرسالة تقوم على الاعتماد الأهلى المالى ، وثبت من المبادىء أشعة تألقت بها ديمقراطية الاسلام المالية الممثلة فى رغبته الحارة فى القضاء على الفقر ، ونشر العدل والمساواة .

وقد قضى « الميجور دوجلاس » زمنا فى الهند ، فدرس النظام المالى للهند الاسلامية خاصة ، وهو النظام الانسانى الذى أشارت اليه « مسز أنى بيزانت » فى رسالتها المشهورة « اشتراكية المستقبل » وهذا النظام الذى يدعو اليه هؤلاء المفكرون الانجليز ، والذى اهتمت بدراسته وتجربته مقاطعة « البرتا » فى كندا ، قد اجتذب اليه أناسا من طبقات شتى ، لأنه نظام لا يفرق بين الطبقات ، ولا صلة له بالحركات السياسية الشاذة ؛ بل هو فى مصلحة الجميع ، لأنه يضمن السلامة للجميع بالقضاء على الربا والفوضى التى تحدث الاضطرابات الصناعية والمالية ثم تنتهى بالناس الى الحرب ، ولو أنهم مع ذلك لا يتأدبون ولا يتوبون بدليل تكرر الأزمات الاقتصادية والسياسية التى تنتهى الى الحرب ، وفى هذا يصدق قوله تعالى :

---

(١) عظمة الإسلام ص ١٨ .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ؛ لا تظلمون ولا تظلمون ... » .

انها الحرب التى أنذر بها الله ، الحرب التى تأكل أوربا ، وتأكل حضارتها ، وتهدد الجنس البشرى كله بالفناء ، نتيجة لهذا النظام العفن الربوى المهدر لكل القيم ، القائم على السحت ، الماشى بين الناس بالكراهية والبغضاء .

ولو تأملنا هذه القلاقل الطبقية التى تعصف بالانسانية ، وهذه الحروب التى تهدد بالفناء ؛ وهذا الاستعمار الجشع البغيض مصاص الدماء ، لرأينا السر المضمر وراء كل هذا ، هو النظام الرأسمالى الربوى اليهودى القاسى ؛ المتجرد من القلب والخلق والضمير .

لقد أصبح رأس المال الذى تضخم فى جانب ، وترك العوز والفاقة فى الجوانب الأخرى ، قوة مخيفة تلقى بظلها الرهيب على الأرض ، فهى التى تسير السياسة ، وتسير الحكم ، وتحرك الجماهير ، وتخلق الحروب وتتبنى الاستعمار، وتفتح له الآفاق ، حتى أصبح السلب المنظم تحت ألفاظ مختلفة ، كالاحتلال ، والوصاية ، والمجال الحيوى ، ونحو ذلك حقا مشروعا مقدسا .

بل إن الشيوعية والفاشستية والنازية ، وكل الحركات الأوربية المضادة إنما انبثقت فى المجتمعات الأوربية تمردا على هذا النظام وكفرا به . لأنها ولدت ثائرة بين الأحقاد ، وقامت على العنف والبغضاء ، فقد جاءت أقسى قلبا وعقلا ووجدانا وضميرا ، جاءت تنضح بالأنانية القومية ، والعبودية الفردية ، كما تعالت فى غطرسة غليظة على كل خلق ودين ، وكل هدى يمت الى الخلق والدين .

يقول « مولاى محمد على [1] » بعد حديثه عن النظام الاقتصادى لدول الغرب ، هذا النظام الذى انتهى إلى طرفى نقيض بسبب عجزه عن سد حاجات المجتمعات ، فهو اما حرب رأس المال ضد العمل : أى حرب

---

(١) الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٥٨ .

البرجوازيين ضد الدهماء ، أو حرب العمل ضد رأس المال : أى قتال الدهماء للبرجوازيين ... يقول :

« ... اذا ما اردنا أن نوقف هذه الحروب الى الأبد ، وجب علينا أن نتلمس الوسائل وطرق العلاج بين هذه الطبقات المتحاربة فى العالم أجمع ، وما المسيحية – كدين ، ولا المدنية المادية التى أنجبتها المسيحية – بمستطيعة أن تقدم مثل هذا الاصلاح المرجو . اذن فاقتراحات السلام فى هذه الحالة أيضا فى يد الاسلام مرة أخرى ؛ لأن النظام الاقتصادى الذى جاء به الاسلام وحده هو الذى يوفق بين رأس المال والعمل ؛ وهو الذى يقدم الاصلاح المنشود ، فيسود السلام الحقيقى الأرض قاطبة ... » .

ويقول العلامة « جيب » فى كتابه « حيثما يكون الاسلام » :

« ما يزال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين فى دنيا الغرب فهو يساوى ويوائم بين الاشتراكية القومية الأوربية وشيوعية روسيا فلم يهو بالجانب الاقتصادى من الحياة الى ذلك النطاق الضيق الذى أصبح من مميزات أوربا فى الوقت الحالى ، والذى هو اليوم من مميزات روسيا أيضا .

فالاسلام هو الصراط المستقيم ، والنهج الوسط بين الرأسمالية وبين الشيوعية » .

ويقول العلامة « ماسنيون » (١) :

ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليا المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ؛ كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب حقوق الولد والزوج ، ويشجع الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبهذا يحل الاسلام – مرة أخرى – مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية .

---

(١) الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٦٠ .

وعلى ذلك فالاسلام هو بمثابة خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة ، فلنظامه الاجتماعى خصائص لا نجدها فى غيره ، فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تشغل الذهن البشرى بحيث تنسيه القيمة العالية للحياة ، لأن من أول ما يتلقاه المسلم من الدروس هو أن واجب الله مقدم على كل واجب سواه ، وأن عليه أن يترك العمل الذى يباشره - مهما عظم - اذا ما دعاه المؤذن للسجود لبارئه ، وهذا النداء لا يجلجل فى البكور فقط ، ولا فى العشى عند ما يأوى الانسان الى فراشه ؛ بل يتردد أثناء انهماك الانسان فى عمله اليومى ، وانه ليعلم أن عليه أن يركز كل انتباهه فى عمله ليكسب عيشه ، ولكنه يعلم فى نفس الوقت أن الانسان لا يعيش بالخبز فقط ، وأن للحياة قيمة أعلى ، تتداعى أمامها كل قيمة مادية ، وما لم تعلم هذه الحقيقة فستجلب المنافسة الاقتصادية بين الأفراد والشعوب الويل والدمار - بدل الهناءة وراحة البال .

نسيت الشعوب المتحضرة في تسابقها من أجل المنافع الاقتصادية هذا الدرس ولذا فان كلا منها يسعى لتدمير الآخر والقضاء عليه ... » .

الاسلام هو خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة ، ولنظامه الاجتماعى خصائص لا نجدها فى غيره ، فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تستعبد الذهن البشرى وتسترقه ، بحيث تنسيه القيمة العالية لمثاليات الحياة .

ذلك هو الفيصل بين النظام المالى فى الاسلام والنظم الغربية على شتيت ألوانها وصورها .

ان الاسلام ليستهدف فى كل نظمه الأخلاق وكرامة الانسان وعدالة الايمان .

ولهذا لم يعرف الاسلام يوما حرب الطبقات - وهى شعار الغرب الدائم - ولا المجال الحيوى الاستعمارى - وهو طابع الحضارة الغربية - ولم يعرف تلك الرأسمالية المتحكمة السيدة ، ولا تلك الشيوعية الكافرة الجاحدة ، ولا هذا السحت الربوى المدمر المذل .

لقد أدار الاسلام نظامه المالى على هدى تعاليمه ، فارتكز صرحه أول ما ارتكز ، على أن المال هو مال الله :

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ... » .

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ... » .

المال مال الله ، والفرد مستخلف فيه ، وكلمة الاستخلاف هنا عظيمة الدلالة ، محددة الغاية ، لأن الاستخلاف غير التملك ، ومن هنا تحددت علاقة المال بصاحبه ، فهو مستخلف فيه لخير المجموع وصالحه ، ولهذا فإن الصبى أو الرجل المبذر السفيه يحجر عليه ، ويمنع من التصرف فى ماله ...

يقول الله تعالى :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ... »

فأضاف الله جل جلاله مال السفيه الى المسلمين باعتبارهم وحدة متماسكة ، ومنع السفيه من التصرف فيما يملك خوفا من اساءة استعماله لما له ، كما منع الصبى لعدم اكتمال عقله .

وكنز المال أيضا لا يجيزه الاسلام ولا يعترف به ؛ لأن الواجب المفروض هو توظيفه وتداوله .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ؛ فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ؛ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ؛ فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ويقول الامام ابن عقيل :

« ان حبس المال عن التداول فى كل ما يعود على المسلمين نفعه ، ينطبق عليه الكنز ، لأن العمل لخير المسلمين هو فى سبيل الله ، وهو الأصل فى المال » .

ومن هنا كان الاحتكار فى الاسلام يصاحب الكفر - كما يقرر الرسول صلوات الله وسلامه عليه - ؛ لأن فيه التضييق على المسلمين ، وفيه الاستغلال والتحكم (١) .

---

(١) روى أبو داود فى سننه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

فاذا وضحت تلك الكليات الكبرى فى أفق الاقتصاد الاسلامى ، وضحت تبعا لذلك رسالة المال فى الاسلام وضوحا يجعل المشرع الاسلامى يبنى تشريعه المالى على أعلى وأخلد النظريات الاقتصادية الرحيمة العادلة . النظريات الاشتراكية الكاملة المبرأة من الظلم والجور .

المال مال الله ، فلا تفاخر به ، ولا تقاتل عليه ، ولا استغلال له ، ولا تهالك وفناء فى سبيل جمعه وكنزه . وإنما هو أداة لخير المجموع وسعادة الأمة وعزتها ، وكل فرد من أبنائها فيما يملك انما ينوب عن أمته .

والمال لا يجب أن يكتنز أو أن يدخر ليتراكم فى الخزائن والمصارف ، وإنما يجب أن يتداول فى الأسواق و كما يجب أن يزكى وأن ينفق منه للفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وفى سبيل الله ، وفى كل ما يعود على أمته نفعه حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فحسب ؛ بل دولة بين أفراد الأمة جميعا .

« كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ومن هذا الأفق وعلى هذا الضوء جاءت القواعد التى يرتكز عليها المشرع الاسلامى . فملكية الأرض مثلا تسقط اذا تركها صاحبها ثلاث سنوات دون احياء : « أى دون زرع » عملا بالحديث المأثور :

« ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين [١] » .

ثم تأتى بعد ذلك القاعدة الأخرى .

« من أحيا أرضا مواتا فهى له [٢] » .

والاسلام لا يقر الملكيات الزراعية الواسعة التى يحتكرها صاحبها ويقعد فى بيته ويؤجرها لغيره الذى يكدح طوال حياته والثمرات تجنى للمالك

---

(١) جاء فى كتاب الأموال لابن سلام أن عمر بن الخطاب قال : ليس لمحتجر بعد ثلاث حق .

(٢) روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«من أحيا أرضا ميتة فهى له ». يقول الأحناف أن من أحيا أرضا مواتا صار مالكا لها .

وروى الامام أبو يوسف فى كتاب الخراج عن الليث عن طاووس :

« فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » .

وعن جابر بن عبد الله قال :

« كان لرجل منا فضول أرض ، فقالوا : لو أجرها بالثلث . فقال الرسول : من كانت له أرض - أى واسعة - فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤجرها اياه أو يكريها » .

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج الى أرض تهتز فروعا فقال :

« لمن هذه الأرض : فقالوا : أكراها فلان . فقال : لو منحها اياه كان خيرا من أن يأخذ عليها أجرا معلوما » .

ثم تأتى الناحية الاجتماعية فى دستور الدولة المالى ، وهو أعلى دستور اجتماعى تكافلى عرفته الحياة ؛ فالدولة أولا مسئولة عن كل فرد من رعاياها ... يقول البلاذرى :

كان عمر بن الخطاب يفرض للمولود مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده ، وكان اذا أتى باللقيط فرض له فى بيت المال : أى فرض له رزقا ، ثم يأخذ وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة الي سنة ، وكان يوصى بهم خيرا ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال » .

وجاء في كتاب « السياسة الشرعية » لابن تيمية ، فى باب وجوه صرف الأموال :

« ومن المستحق ذوو الحاجات . فان الفقهاء قد اختلفوا ؛ هل يقدمون فى غير الصدقات والفىء وغيره على غيرهم ؟ ... على قولين فى مذهب أحمد وغيره : منهم من قال يقدمون ، ومنهم من قال المال استحق بالاسلام فيشتركون فيه كما يشترك الورثة فى الميراث ، والصحيح أنهم يقدمون ، فان النبى كان يقدم ذوى الحاجات كما قدمهم فى مال بنى النضير ، قال عمر :

« ليس أحد أحق بهذا المال من أحد ، وإنما الرجل وسابقته ؛ والرجل وغناه ، والرجل وبلاؤه ، والرجل وحاجته ، فجعلهم عمر أربعة أقسام » .

الرجل وحاجته ، قاعدة أصيلة فى النظام المالى الاسلامى ، كل رجل لا يملك شيئا ولا يجد عملا ؛ فالدولة كفيلة ، إما بايجاد العمل له ، أو بسد حاجته .

وكتب والى العراق الى عمر بن عبد العزيز ، بأنه قد اجتمعت عنده أموال عظيمة ، فأمره بأن يوسع بها على المسلمين وذراريهم فى أرزاقهم ، فكتب اليه أنه قد فعل وحصل مال ، فكتب اليه أن يقوى أهل الذمة على العمارة ويجعله سلفا عليهم [1] .

ويقول ابن حزم فى كتابه « المحلى » :

« فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان فى ذلك إن لم تقم الزكوات ولا فىء المسلمين بهم ؛ فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك . وبمسكن يقيهم من المطر والشمس وعيون المارة » ... ويقول عمر :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء وقسمتها على الفقراء » .

ويقول علي بن أبى طالب :

« ان الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، وما جاع فقير الا بما متع به غنى » .

ومن منشورات خالد بن الوليد الى أهل الشام :

« إنما شيخ عجز عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، إلا طرحت جزيته ان كان ذميا ، وطرحت زكاته ان كان مسلما ، وأعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله : [2] .

« أن اقضوا عن الغارمين » فكتب اليه : « انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس ، وله الأثاث فى بيته » فكتب عمر : « لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه رأسه ، وخادم يكفيه مئونته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، ومع ذلك فهو غارم ، فاقضوا عنه ما عليه من الدين »

---

(١) رواية الامام مالك فى سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٣ .

(٢) رواية الامام مالك فى سيرة عمر بن عبد العزيز .

وبجوار الواجب الحكومي يقوم الواجب العام المفروض على كل فرد من أبناء الأمة الاسلامية المتضامنة المتكافلة .

عن أبي سعيد الخدري قال :

« بينما نحن مع النبي في سفر ، اذ جاء رجل على راحلة له . قال : فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا . فقال الرسول : من كان معه فضل ظهر ؛ فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد ؛ فليعد به على من لا زاد له ، قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » (١) .

وروى البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال :

« ان الأشعريين اذا أرملوا في الغزو ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموا بينهم في اناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم » .

وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « اكسني يارسول الله . فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟ ... قال : بلى غير واحد . قال : فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة » .

وفي الحديث القدسي :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدني فيقول ابن آدم : كيف أعودك وأنت رب العالمين . فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده . يا ابن آدم : استطعمتك فلم تطعمني ؛ فيقول يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين .

فيقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا استطعمك فلم تطعمه ، أما لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي ... » .

---

(١) رواه مسلم .

مكانة النظام الاقتصادى الاسلامى بين النظم الاقتصادية العالمية

لكل نظام اقتصادى عرفته الانسانية ، فلسفة خاصة به ، استوحاها من سياسته ورسالته .

ولكل نظام اقتصادى عناصر يتميز بها ويقوم عليها ، ومن مجموع هذه الفلسفة ، وهذه العناصر ، يتكون النظام الاقتصادى ، ويأخذ الاسم الذى يتفق مع هذه الفلسفة ، ويتسق مع هذه العناصر .

وفلسفة النظام الرأسمالى تتمثل وتتجسد فى الفردية ، فهى تمهد للفرد سبل الاستغلال ، وتمنحه ما يشاء من ربح وتضخم وثراء واحتكار .

ومن هنا يرتكز هذا النظام على الملكية الفردية والحرية الفردية ، ويتجه الى تحقيق الفلسفة الفردية المطلقة التى يقوم عليها ، ويؤمن بها غير ملتفت الى مصلحة الجماعة ولا مقدر لها .

وللنظام الشيوعى فلسفته وعناصره التى تخدم رسالته التى يقـــوم عليها ، والتى تتمثل فى عدم الاعتراف بالفرد وحريته ، والايمان بالجماعة ايمانا يمنحها دكتاتورية مطلقة .

الجماعة التى تملك أموال الانتاج ، وتملك رأس المال ، وتملك كل شىء فى الأرض وجو السماء ، حتى الضمائر والعواطف والمشاعر .

فالفرد آلة مسخرة ، ليس له أن يفكر ، بل ليس له أن يختار ما يعمل وما يأكل وما يرتدى .

والنظام الاقتصادى الاسلامى الذى انبثق من الرسالة الكليـــة الاسلامية ، لا يستمد فلسفته من الفرد فحسب ، مهدرا مصلحة الجماعة ، كالنظام الرأسمالى ، ولا يستمد فلسفته من الجماعة فحسب مهدرا مصلحة الفرد وحريته وملكيته .

وإنما يقوم ويرتكز نظامه على أصلين أساسين جمع فيهما أصلح ما فى النظامين الرأسمالى والشيوعى .

أولهما الاعتراف بمواهب الفرد وحقه المقدس فى ثمرات كفاحه وعمله ، وهذا هو الأساس الذى بنى عليه النظام الرأسمالى العالمى .

ثم تقرير حق المجتمع فى كسب الفرد ووجوب التكافل بين أبناء الأمة ، وهو الأساس الذى بنى عليه النظام الشيوعى الدولى .

وبذلك المزج ، اختص الاسلام بأفضل ما فى النظامين ، وقدمه رحمة وهدى للانسانية ، فى صورة اشتراكية أجتماعية ايمانية ، جوهرها الأخوة الانسانية الرحيمة ، والمبادىء الخلقية الرفيعة ، قبل أن تعرف الدنيا فلسفة النظامين بأربعة عشر قرنا .

وبذلك تخلص النظام الاسلامى الاقتصادى ، من أنانية الفرد وطغيان رأس المال وجبروته واستبداده ، واهداره لكل القيم الأخلاقية والانسانية ، فى سبيل مطامعه ومغامراته وجشعه وشهواته .

كما تخلص من دكتاتورية الجماعة وطغيانها وتحكمها ، واهدارها لحق الفرد ، وتنكرها لذاتيته ، وقتلها لمواهبه ونشاطه ، ودوافع غرائزه .

ثم يأتى الروح الاسلامى العام ، ليضفى على الاقتصاد الاسلامى نسمات من روح الله وهداه .

فالنظام الاقتصادى الاسلامى ، لا تنفصل نظمه وقواعده عن الشعور والسلوك والضمائر والوجدانيات والقيم .

وتلك هي ميزة الاقتصاد الاسلامى الكبرى .

انه اقتصاد يفي بحاجات الناس ، ثم تتوجه انسانية فاضلة ، وعدالة هادفة ، وأنوار سماوية تصعد به الى آفاق الايمان والرسالة .

انه اقتصاد أسس على الأخلاق ، وعلى التقوي ، وعلى التراحم ، فهو ليس بمواد جافة ؛ بل هو حياة حية .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ... » .

وهذه الآية ترشدنا الى روح مبين من فلسفة هذا النظام .

فقد اشترطت مشروعية التجارة بأمرين :

الأول : أن تكون هذه التجارة عن تراض بين الفريقين .

والثانى : ألا تكون منفعة فريق قائمة على خسارة الفريق الثانى .

وذلك ما يوضحه « ولا تقتلوا أنفسكم » من هذه الآية ، وقد فسره المفسرون على معنيين ينطبق كل منهما فى هذا المقام .. فالمعنى الأول : أن لا يقتل بعضكم بعضا ، والمعنى الثانى : أن لا تقتلوا أنفسكم بأيديكم .

فمؤدى هذه الآية على كل حال ، أن كل من يضر غيره لمنفعته الشخصية ، فكأنه يتزف دمه ، ولا يفتح طريق الهلاك إلا على نفسه فى نهاية الأمر .

فالسرقة ، والرشوة ، والقمار ، والغرر ، والخديعة ، والتدليس ، والربا ، وكثير غيرها من طرق الكسب ، يوجد فيها كل من هذين السببين لعدم المشروعية ، واذا كان يوجد فى بعضها شرط « التراضى » فانه يعوزه الشرط المهم الذى يتضمنه قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » (١) .

وحينما تنظر الرأسمالية الى الانسان كسلعة ، وتنظر الشيوعية الى الانسان كآلة مسخرة ، ينظر الاسلام اليه كروح وحس وشعور ورسالة سماوية .

وحينما تعبد الرأسمالية الدولار وتوابعه ، وتفسر الشيوعية التاريخ والدين بالاقتصاد وضروراته ، ينظر الاسلام الى المادة كشيء مسخر لخدمة الانسان .

يقول الصحفى الأمريكى « جون جنتر » فى كتابه « فى داخل أوربا » « ان الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الاسبوع ، ويتوجهون فى اليوم السابع الى الكنيسة » .

---

(١) أسس الاقتصاد لأبى الأعلى المودودى ص ١٥١ ، ١٥٢ .

ويقول العلامة « جود » رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن :

« ان شعار أوربا : « لا نستطيع أن نجمع بين عبادة الله ، وعبادة المال ... »[1] ويقول :

« وعقيدتنا أن الثروة - ولا سواها - هى القياس الصحيح لعظمة الفــرد » .

ويقول « كارل ماركس » :

« ان المال هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة » ... يقول :

« ان النظام الاقتصادى هو روح الاجتماع ، وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة ، والفنون الجميلة كلها انعكاس لهذا النظام الاقتصادى » .

لقد أصبح المال هو الاله الأكبر الذى تسجد جباههم جميعا فــى محرابه ... الاله الذى يحرق الأخلاق والأعراض والكرامات والمقدسات ، والمثل والقيم ، بخورا ذليلا فى ساحاته .

لقد فقد الانسان فى النظامين « الرأسمالى والشيوعى » ذاتيته وحريته وكرامته ، واستعبد ذليلا مهينا لسطوة المال ، وسخر عبدا رخيصا لمغامراته وأهدافه .

لقد قيم كل شىء فى الفلسفتين بالمال ، وأصبح الانسان أرخص هذه القيم ، وأحقر هذه السلع .

إن كل ما أصاب الانسانية فى عصرنا : من فجور وتحلل وإلحاد وتمرد واستعباد واستعمار ... وكل ما تتقلب فيه الحياة اليوم من جاهلية وثنية ، وبربرية وحشية ، ومذاهب وجودية ، وفلسفات مادية . إنما انبثق وانبعث من بنوك هذا الإله المادى المتغطرس الجبار .

الاله الرهيب الذى يتجلى مهيمنا وسيدا وحاكما على مقدرات البشرية وأهدافها وسلوكها فى ظل النظامين الاقتصاديين العالميين ، الرأسمالى والشيوعى .

---

(٢) ص ١٧٢ « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » لأبى الحسن الندوى .

ومن هنا كانت الفروق الأساسية ، النفسية والجذرية ، بين النظم الاقتصادية العالمية ، والنظم الاقتصادية الاسلامية ، واضحة وضوحا مبينا في روحها وأهدافها .

فالحياة الاقتصادية في نظر الاسلام ، حياة تراحم وتعاون وتكافل ورحمة .. حياة انسانية لها مثل عليا تستمدها من رسالتها وعقيدتها .

بينما هي في النظرة الرأسمالية والشيوعية على السواء ، حياة صراع وتقاتل ، وسيطرة واستعباد ، صراع تحترق فيه كافة القيم العليا ، لتبقى قيمة واحدة ، حية مهيمنة : قيمة رأس المال الفردى أو الجماعى .

إن الاسلام فى كافة نظمه وتشريعاته ، هو توازن وتعادل فلا روحانية حالمة تحلق بعيدا عن واقع الحياة ، ولا مادية مظلمة جشعه حقودا ، لا يتنكر للروح وللفضيلة فـ « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

* * *

ولقد اتهم الاسلام فى العصر الحديث بأنه خلو من التفكير الاقتصادى ، بل لقد اتهم بالرجعية الرأسمالية ، وانه استغلال للطبقات المستضعفة من العمال والفلاحين والكادحين كافة .

وسر الاتهام الجهل بالاسلام ونظمه ، وروحه ورسالته .

لقد جاء الاسلام دعوة تحريرية بكل ما فى التحرر من معان واسعة عريضة ؛ بل جاء فورة إلهية - ان جاز هذا التعبير - على الجمود والضعف والرجعية المادية والعقلية .

جاء فى نظامه الاقتصادى باشتراكية رشيدة هادفة تحقق التعاون بين الطبقات فى ظل المحبة ، وتكفل التطور الهادف فى نطاق كليات مرنة تتسع آفاقها لكل خطو بشرى واتجاه حضارى .

ولهذا فالنظم الاسلامية فى سيرها وتطورها لا تجد حرجا فى أن تقتبس

من هنا وهناك ما يتفق مع روحها ، ويتلاءم مع وجهتها ، ويتسق مع أهدافها في نطاق نظرتها الايمانية الربانية .

وبهذا كله تمسى النظم الاسلامية حية نامية متطورة محتفظة بفاعليتها وايجابيتها وصلاحيتها الخالدة ، غير منعزلة عن خطو التاريخ ، ولا متخلفة عن موكب الحضارة .

تمشى وبيدها مشعلها ورسالتها ، التى تصنع خير أمة أخرجت للناس .

وبعد :

فتلك اشارات - لا تحقيقات - ترمز الى النظم المالية الاسلامية ، تلك النظم التى أنجبت أسعد المجتمعات العالمية وأغناها وأطهرها .

يقول الامام « مالك » فى كتابه عن عمر بن عبد العزيز ، رواية عن يحيى بن سعيد ... قال يحيى بن سعيد :

« بعثنى عمر على صدقات أفريقيا فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منى ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس » .

لقد أصبح كل فرد فى الأمة الاسلامية فى ظل النظام الاقتصادى الاسلامي غنيا موفور الحاجيات ، حتى لا يجد المال من يرغب فيه أو يتهالك عليه ، أو يبيع روحه وخلقه فى سبيله .

وتلك آية الآيات فى التفاضل بين الحضارات ، والمقارنة بين الفلسفات والاقتصاديات .

وذلك فضل الله يؤتيه من اتبع رضوانه ، وقام على سبل السلام ، وعاش تحت ظلال دولة القرآن .

طه عبد الباقى سرور نعيم

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الايداع	٨٨/٧/٥٥
الترقيم الدولى	٩٧٧-١٠-٣٢٣-٢